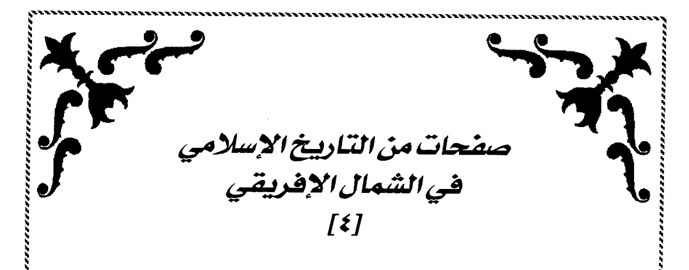


صفحات من التاريخ الإسلامي
في الشمال الإفريقي
[٤]

الجوهر الثمين بمعرفة

دولة المرابطين

الدكتور
عليّ محمد محمد الصّلاّبيّ

مكتبة الإيمان بالمنصورة

بطاقة الفهرسة

فهرسة الهيئة المصرية العامة للكتاب .

الصلابي ، علي محمد محمد .

دولة المرابطين / تأليف علي محمد محمد الصلابي . ـ ط٢ . ـ

المنصورة : مكتبة الإيمان ، ٢٠٠٦ .

٥٣٦ص ، ٢٤x١٧سم .

تدمك 2 ـ 284 ـ 290 ـ977

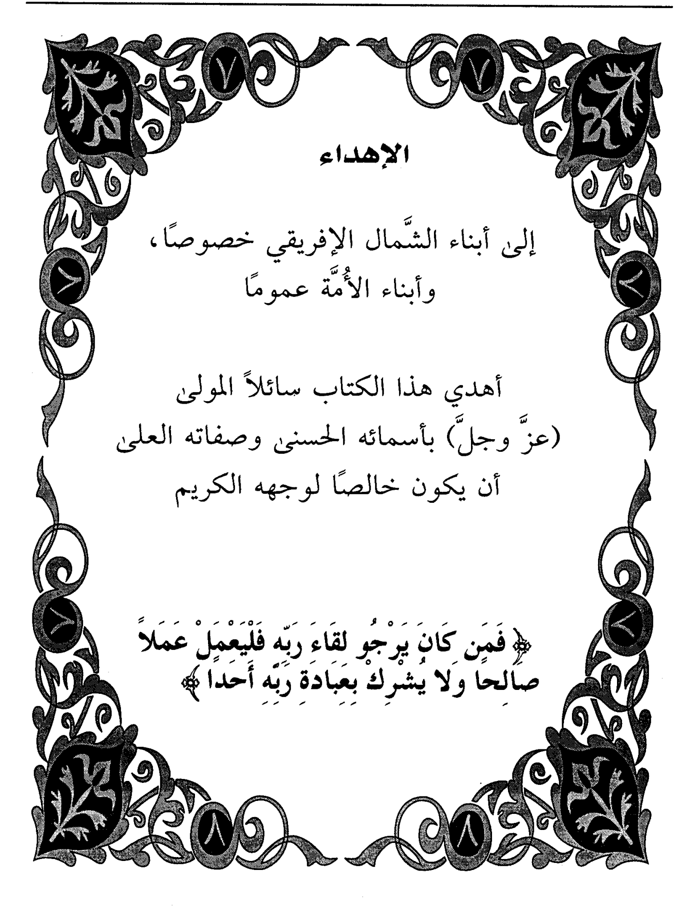
١ـ المرابطون . ٢ ـ المغرب ـ تاريخ العصر الإسلامي .

أ ـ العنوان .

٩٥٣,٠٧١٣

مكتبة الإيمان رقم الإيداع : ٢٠٠٦/٩٣٧٦

((كمبيوتر ٠١٢٢٥١١٢٠٣))



الإهداء

إلى أبناء الشَّمال الإفريقي خصوصًا،
وأبناء الأُمَّة عمومًا

أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى
(عزَّ وجلَّ) بأسمائه الحسنى وصفاته العلى
أن يكون خالصًا لوجهه الكريم

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يُضلل فلا هادي له، وأشهدُ أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهدُ أن مُحمدًا عبده ورسوله.

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء: ١].

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً * يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٧٠، ٧١].

وبعد:

فإن أصدق الحديث كتاب الله (تعالى)، وخير الهدي، هدي محمد (ﷺ)، وشرَّ الأمور محدثاتُها، وكلَّ مُحدثةٍ بدعة، وكلَّ بدعة ضلالة.

أما بعد:

يا ربِّ لك الحمدُ كما ينبغي لجلال وجهك، وعظيم سلطانك، لك الحمد حتى ترضى، ولك الحمدُ إذا رضيت.

هذا الكتاب الرَّابع (صفحات من التَّاريخ الإسلامي في الشَّمَال الإفريقي) يتحدث عن دولة المرابطين السُّنِّيَّة منذ نشأتها وحتى سقوطها، ويتعرَّضُ لسُنن الله في بناء الدول وإحياء الشعوب، فيعطي نبذة تاريخية عن أصول القبائل التي قامت عليها دولة المرابطين، فيتكلم عن مواطنها، ومواقعها، وحياتها الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والدينية، قبل دخول الإمام عبد الله بن ياسين في قلب الصَّحراء الكبرى لدعوة قبائل صنهاجة إلى الإسلام، وكيف تعامل ذلك الإمام مع تلك القبائل، وجعل منها أمَّةً تحمل الإسلام عقيدةً ودعوةً ومنهجًا، كما يسلِّط هذا الكتاب الأضواء على زُعَمَاء دولة المُرابطين، من أمثال الأمير يحيى بن إبراهيم، والأمير أبي بكر بن عمر، ويوسف بن تاشفين، ويتكلم عن خط سير المرابطين في توحيد المغرب الأقصى، وتوغُّلهم الدَّعَوِيّ في جنوب المغرب نحو غانا ومالي وغيرها من دول إفريقيا، ويتحدث عن دفاع المرابطين عن مسلمي الأندلس، وأسباب ضعف المسلمين هناك، وعن أثر تحكيم شرع الله في مُجتمع المرابطين، وعن سياستهم الدَّاخلية والخارجية، وكيف أعطوا حقوق الرعية من خلال دستور دولتهم السُّنية، وما موقف الرعية من دولة المرابطين؟

ويتحدث عن عَلاقة دولة المرابطين بالخلافة العباسية، ودولة بني حماد وملوك الطَّوائف والإسبان والنصارى، ويعطي نبذة مختصرة عن أنظمة الدولة المرابطية، كنظام الحكم والإدارة، والنظام القضائي، والنظام العسكري، والنظام المالي، ويدافع عن دولة المرابطين ويبين مآثرها الحضارية من أعمال معمارية وحياة أدبية وعلمية وفقهية وتاريخية وجغرافية وطبية.

ويجد القارئ الكريم في ثنايا هذا البحث تركيزًا على معرفة سنن الله، وكيفية التعامل معها من خلال الوقائع التاريخية، وأهمية العلماء في قيادة

الأمة نحو المجد والعزة والكرامة، وكيف حرصوا على الأخذ بالأسباب المادية والمعنوية التي حققت النصر على الأعداء، ويتحدث عن أهمية سنة التدرج في تغيير الشعوب وبناء الدول، ويعطي للتربية الربانية أهمية قصوى في تحقيق الأهداف العُظمى للأمة ،سواء على مستوى القادة في أخلاقهم وعلمهم وجهادهم، أو مستوى الشعوب في استجابتها لكتاب ربِّها وسنة نبيها وقيادتها المخلصة.

وهذا الجهد المتواضع حاول أن يُسلط الأضواء على فقه التَّمكين من خلال التحليل والتفسير للأحداث التي وقعت في دولة المرابطين.

والهدف من هذا الكتاب:

١ ـ التعريف بزعماء دولة المرابطين من أمثال: عبد الله بن ياسين، ويحيى بن إبراهيم، وأبي بكر بن عمر، ويوسف بن تاشفين، وأبي عمران الفاسي.

٢ ـ إظهار معان في فقه التمكين من خلال المنظور التاريخي لدولة المرابطين، فيوضح مراحل التمكين التي مرت بها الحركة المرابطية إلى أن وصلت إلى الدولة، وما الأسباب التي اتخذوها والشروط التي حققوها؟ وما الأهداف التي نفذوها لَمَّا وصلوا إلى الحكم؟

٣ ـ تسهيل مبدأ الاعتبار والاتعاظ بمعرفة أحوال الدول، وعوامل بنائها، وأسباب سقوطها، والنظر في سُنن الله في الآفاق، وفي النفس والمجتمعات.

٤ ـ الاهتمام بمعرفة عقيدة أهل السنة والجماعة، وتربية أبناء الأمة عليها، وكيف كان اهتمام المرابطين بهذه العقيدة التي استمدوها من كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ).

٥ ـ إثراء المكتبة الإسلامية التاريخية بالأبحاث المنبثقة عن عقيدة صحيحة وتصورٍ سليم، بعيدة عن سموم المستشرقين وأفكار العلمانيين، الذين يسعون لقلب الحقائق التاريخية من أجل خدمة أهدافهم.

أما خطة الكتاب: فقد قمت بتقسيمه إلى خمسة فصول:

الفصل الأول: بناء دولة المرابطين ويشتمل على ستة مباحث:

المبحث الأول: الجذور التاريخية للمرابطين.

المحث الثاني: الأمير يحيى بن إبراهيم.

المبحث الثالث: أبو عمران الفاسي.

المبحث الرابع: الزعيم الديني عبد الله بن ياسين.

المبحث الخامس: المراحل التي مر بها ابن ياسين لبناء الدولة.

المبحث السادس: مرحلة التمكين.

الفصل الثاني: المرابطون ودفاعاتهم عن مسلمي الأندلس.

ويشتمل على تسعة مباحث:

المبحث الأول: الصراع بين طليطلة وقرطبة.

المبحث الثاني: أسباب ضعف المسلمين في الأندلس.

المبحث الثالث: العالم زمن ظهور دولة المرابطين.

المبحث الرابع: أثر الحكم بما أنزل الله على مجتمع المرابطين.

المبحث الخامس: الأندلس بعد الزلاقة.

المبحث السادس: الفتاوى في جواز ضم الأندلس.

المبحث السابع: العبور الثالث للأمير يوسف بن تاشفين.

المبحث الثامن: الجواز الرابع.

المبحث التاسع: آثار الابتعاد عن تحكيم شرع الله.

الفصل الثالث: السياسة الداخلية والخارجية في دولة المرابطين.

ويشتمل على ستة مباحث:

المبحث الأول: حقوق الرعية الذين يعيشون في الدولة.

المبحث الثاني: موقف الرعية في دولة المرابطين.

المبحث الثالث: موقف المرابطين من الخلافة العباسية.

المبحث الرابع: علاقة الأمير يوسف مع بني حماد.

المبحث الخامس: علاقة المرابطين مع ملوك الطوائف.

المبحث السادس: علاقة المرابطين مع الإسبان النصارى.

الفصل الرابع: سياسة المرابطين في دولتهم المجيدة.

ويشتمل على أربعة مباحث:

المبحث الأول: نظام الحكم والإدارة.

المبحث الثاني: النظام القضائي.

المبحث الثالث: النظام العسكري.

المبحث الرابع: النظام المالي.

الفصل الخامس: أهم أعمال دولة المرابطين الحضارية.

ويشتمل على سبعة مباحث:

المبحث الأول: الآثار المعمارية في المغرب والأندلس.

المبحث الثاني: الحياة الأدبية والعلمية في دولة المرابطين.

المبحث الثالث: من مشاهير علماء دولة المرابطين.

المبحث الرابع: علوم اللغة في زمن المرابطين.

المبحث الخامس: علوم التاريخ والجغرافيا.

المبحث السادس: علوم الطب في عصر المرابطين.

المبحث السابع: أسباب السقوط.

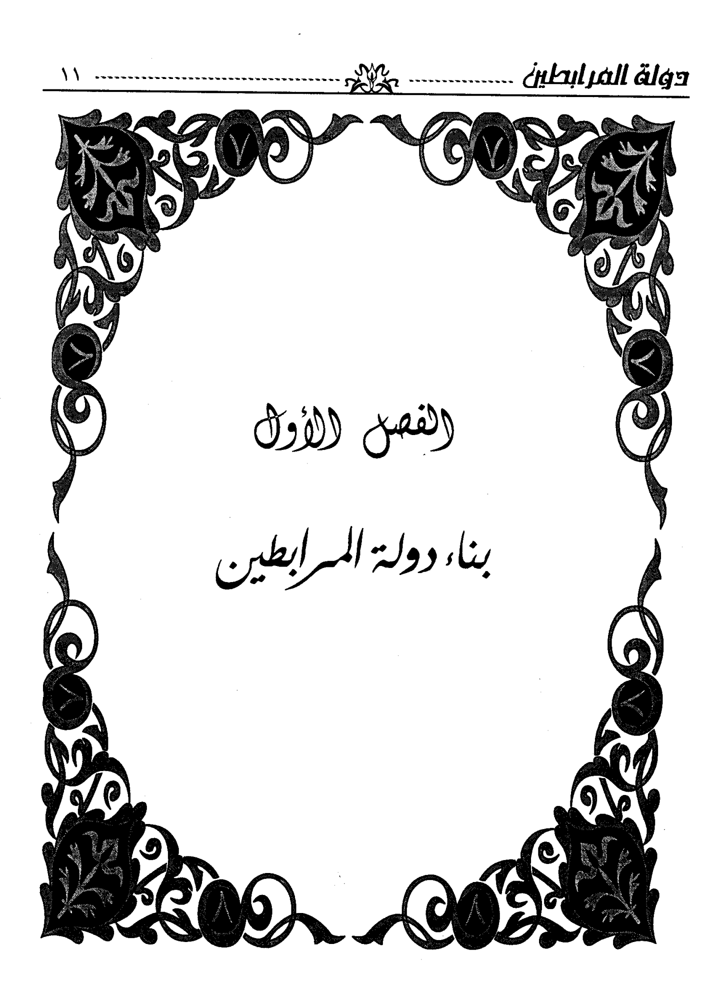
ثم نتائج البحث.

وأخيرًا أرجو من الله (تعالى) أن يكون عملاً خالصًا لوجهه الكريم، وأن يُثيبني على كل حرف كتبته، ويجعله في ميزان حسناتي، وأن يثيب إخواني الذين أعانوني بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا الكتاب.

سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرك وأتوب إليك، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفقير إلى عفو ربه
ومغفرته ورحمته ورضوانه
علي محمد محمد الصَّلاَّبيّ





الفصل الأول

بناء دولة المرابطين



المبحث الأول

الجذور التاريخية للمرابطين

تمهيد:

تعتبر قبائل صنهاجة أقوى قبائل البربر وأشدها وأمنعها، واشتهرت بقوة شكيمتها، وكثرة رجالها الذين ملؤوا الشمال الإفريقي وسكنوا جباله وسهوله وخصوصًا من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى.

واعتبر بعض المؤرخين أن قبائل صنهاجة مثلت شعبًا انضوت تحت لوائه أكثر من سبعين قبيلة بربرية، ومن أهم هذه القبائل وأشهرها لمتونة، وجدالة، ولمطة، ومسوفة، وهي التي تكونت منها دولة المرابطين السُّنِّيَّة. وبعض المؤرخين يجعل القبائل الصنهاجية لها أصل من حمير بن سبأ أي إن أصلهم يمانيون.

والبعض الآخر يذهب إلى أنهم برابرة لا علاقة لهم بالعرب[1].

١ - تسمية الملثمين:

اشتهرت القبائل الصنهاجية في التاريخ باسم الملثمين، وأصبح اللثام شعارًا عُرفوا به إلى أن تسمَّوا بالمرابطين، ويرى بعض المؤرخين أن الملثمين ينتسبون إلى قبيلة لمتونة إحدى بطون صنهاجة، وكانت لمتونة تتولى رئاسة سائر قبائل مسوفة، ومسراته، ومداسة، وجدالة، ولمطة، وغيرها، ثم آلت

---

(١) انظر دولة المرابطين في المغرب والأندلس، د. سعدون عباس ص (١٢، ١٣).

الرئاسة إلى قبيلة جدالة على عهد الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي[١].

ويبدو أن إطلاق اسم الملثمين في بدايته كان خاصًا بقبيلة لمتونة ،ثم توسع وأصبح شعارًا لكل من حالف لمتونة ودخل تحت اسم سيادتها.

٢- سبب تسميتهم:

وأما سبب تسميتهم فقد وردت أقوال كثيرة في سبب تسميتهم بذلك، منها: أن أجدادهم من حمير كانوا يتلثمون لشدة الحر، ويذهب إلى هذا الرأي من ظن أن أصل قبائل صنهاجة يرجع إلى الهجرات القديمة من المشرق لأسباب متعددة، منها اقتصادية، وسياسية.

ومنها: أنهم آمنوا بالرسول (ﷺ) وكانوا قلة ،فاضطروا للهرب لما غلبهم أهل الكفر فتلثموا بقصد التموية، وقيل: إن طائفة منهم أغارت على عدو لهم ،فخالفهم إلى مواطنهم وهي خالية إلا من النساء والأطفال والشيوخ، فأمر الشيوخُ النساء بأن يرتدين ثياب الحرب ويتلثمن، ففر الأعداء وهكذا اتخذوا اللثام سنة يلازمونه ،وارتقى عندهم إلى مستوى رفيع في حياتهم وأعرافهم، ومما قيل في اللثام:

قَوم لهم درك العلا في حمير ... وإن انتموا صنهاجة فهمُ همُ
لما حَوَوْا إحراز كلِّ فضيلة ... غلبَ الحياءُ عليهمُ فتلثَّموا[٢]

٣- موطن الملثمين:

سكن الملثمون الصحراء الكبرى الممتدة من غدامس شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، ومن جبال درن شمالاً إلى أواسط الصحراء الكبرى جنوبًا.

---

(١) انظر: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، د. حمدي عبد المنعم، ص (٢٧).

(٢) انظر: وفيات الأعيان (ج٧/ ١٣٠).

ولم تكن هذه الأماكن والمواطن تجري بها أنهار دائمة، وكانت قليلة الأمطار وأحيانًا تُحبس عنها الأمطار لسنوات عديدة؛ فيتعرض سكانها للمجاعة فيرتحلون لطلب الماء والكلأ، فتفرقوا حول الواحات الصغيرة في تلك الصحارى الممتدة الأطراف، وكوَّنوا قرى بدائية تتماشى مع ظروف حياتهم الرعوية[1].

٤ـ حياتهم الاقتصادية:

توزع الملثمون حول الواحات بحثًا عن المياه وعملوا في الزراعة وخاصة زراعة الشعير الذي ينبت في الأرض الفقيرة ويكفيه قليل من الماء، وقد ازدهرت زراعته في منطقة أزكى التي تسكنها قبيلة لمتونة.

وكان النخيلُ من أهم أشجارهم، وكانت مدينة سجلماسة من أهم واحات الصحراء عمرانًا بشجر النخيل ،واستفاد الملثمون من ظل أشجار النخيل، فزرعوا البطيخ والقرع والكوسى والقثاء، وشهدت بعض الواحات زراعة الذرة، وازدهرت في واحة سجلماسة زراعة القطن وقصب السكر. وكانت وسيلة الزراعة في تلك الواحات الصحراوية المحراث البدائي الذي تجره الجمال.

وكانت تلك القبائل تهتم بتربية الحيوانات للحصول على قوتهم ولكي يستعملوها في تنقلاتهم، ومن أهم الحيوانات التي اهتموا بها الإبل، والتي كانوا يشربون ألبانها ويأكلون لحومها ويستفيدون من أوبارها وجلودها لصناعة العباءات والألبسة والنعال وسقف البيوت الصغيرة.

---

(١) انظر: دولة المرابطين في المغرب والأندلس، ص (١٣).

(٢) انظر : دولة المرابطين، ص(١٥).

وكذلك اهتموا بتربية البغال والحمير لاستخدامها في النقل المحلي[٢].

واهتموا بتربية المواشي من بقر وغنم وماعز لاستعمال ألبانها ولحومها في غذائهم، وجلودها وأصوافها في لباسهم، واهتموا بتربية النحل للحصول على العسل والشمع، وقد مارسوا الصيد وخاصة صيد البقر الوحشي.

وازدهرت الصناعات المحلية للاكتفاء الذاتي، وتطوَّرت في الكم والنوع الصناعات المنزلية، وكذلك الأدوات الحربية التي ازدهرت بسبب الحروب المستمرة بين الملثمين وجيرانهم الوثنيين من السودان وغانا، واهتموا بصناعة السروج ولجم الخيل، وازدهرت الصناعات الغذائية فاستخرجوا الزيت من ثمر الفرتي وذلك بعصر قشره، واستعملوه في طهي الطعام وإنارة السرج ليلاً، وكانوا يمزجونه بالرمل ويطلون به أسطح المنازل فيخفف من شدة الحر، ويمنع تسرب الماء، واشتهرت مدينة تارودانت بصناعة قصب السكر، والمنسوجات والألبسة من الصوف والقطن والوبر، وكانوا يصنعون من ثمار القرع أواني يضعون فيها الملح والبهارات.

ومن أهم المعادن في بلاد الملثمين؛ الملح ويكثر في أوليل وتفاري، والأخيرة تضم معظم مناجمه وهي على شكل ألواح يُقطّعها العبيد وتحملها الجمال إلى بلاد السودان وغانا، وكان الحمل الواحد يباع في أيوالاتن بعشرة مثاقيل من الذهب، أما في مالي فكان يباع بعشرين مثقالاً، وربما ارتفع إلى الثلاثين. كان للملح أهمية في حياتهم الاقتصادية، إذ كانوا يقطعونه قطعًا صغيرة يقايضون به كالذهب والفضة، وكان الفائض من إنتاجهم الزراعي والصناعي يُصدَّر إلى خارج بلادهم[١].

---

(١) انظر: دولة المرابطين، ص(١٦).

٥ ـ أهمية موقع الملثمين:

كانت بلاد الملثمين الممرّ الوحيد بين الأندلس وأواسط إفريقية؛ فكانت تسلكه القوافل على ثلاث طرق، فالطريق الأول وهو الطريق الساحلي على المحيط الأطلسي ينطلق من أغادير مارًا بنواكشوط حتى مصب نهر السنغال، يقابله طريق داخلي غير بعيد عنه لجهة الشرق هو طريق تارودانت أويل، أما الطريق الثاني وهو الأوسط فيمتد من أواسط المغرب إلى قلب الصحراء حيث بلدان مالي والنيجر، يبدأ هذا الطريق من سجلماسة ويمر بأزكى حتى أودغشت في بلاد النيجر.

والطريق الثالث والأخير وهو طريق الصحراء يمتد من السودان الغربي إلى أواسط الصحراء شرقًا، ولا تخلو هذه الطرق من صعوبات طبيعية، فتحرك الرمال يمحي معالمها وتتعرض القوافل المارة بها إلى مخاطر لا يُحمد عقباها، ولذلك احتاجت هذه القوافل للقُصَّاص من الملثمين لكي يقودوا القوافل في تلك الصحارى حتى تصل إلى بر أمانها مقابل مبالغ مالية على المجهود الرائع العظيم.

ونشطت حركة التجارة بين إفريقيا الغربية وبلاد المغرب والأندلس بسبب الدور الريادي الذي قامت به قبائل لمتونة ومسوفة وجدالة التي كونت حلقة الاتصال الناجحة والمثمرة للأطراف المشاركة، وكثُرت الأسواق التجارية التي تعرض فيها بضائع بلاد الأندلس والمغرب الأقصى وبلاد السودان الغربي، حيث يتم التبادل بالتقايض، أو بالذهب والفضة على حسب الاتفاق بين المتبايعين، من أشهر تلك الأسواق التي اشتهرت في تاريخ البلاد: أوغشت، أغمات، أسيلا[١].

---

(١) المصدر السابق، ص (١٨).

٦- الحياة الاجتماعية في بلاد الملثمين:

وأدى ازدهار التـجارة في بلاد الملثـمين إلى ظهـور طبقـة من الأثرياء تجمـعت لديهم أموال عظيـمة بسـبب نشاطهم التـجاري، وعلى رأس هذه الطبقة الأمراء الذين استأثروا بالحكـم وحافظوا على مصالحهم، وكانت هذه الطبقة مستعدة لمقاومة من يُهدد مـصالحها، أو يحاول انتزاع مكانتها وثروتها وجاهها، مستخـدمين من أجل تلك الأهداف الأساليب المشروعة والمحرمة، ويساندهم في ذلك الفقهاء المحليون الـذين ارتبطت مصالحهم بهم وأصبحت أطماعهم والسعي لتحقيقها فوق أحكام الله.

واحتكرت هذه الطبقة الأراضي الزراعية في الواحات، وكذلك مناجم الملح وقطعان الماشيـة، أي جميع مصادر الثروة، وكانت تبني بيـوتها بطريقة تدل على ترفـعهـا عن سائر الناس، ومـعلوم لدى الدارسين والباحـثين في تاريخ المجتـمعات البـشرية أنه عندما تظهـر طبقة ذات ثراء مـفرط ينتج عنه ظهور طبـقة من الفقـراء المدقعين في فقـرهم، وهذا ما حدث في المجـتمع الملثم، حيث نجد أن عامة الناس أصابهم الفقر واضطروا إلى الاشتغال برعي المواشي وبالعمل في الأراضي الزراعية، ويؤدون الضـرائب للأمراء والأعيان الذين استغلوهم استغلالاً مشينًا، وكانت طبـقة الفقراء تتعرض للمجاعة في سنوات الجـفـاف وكـانت منازلهم من أغـصـان الأشـجـار مـغطاة بالجلود كالأكواخ.

وظهرت في المجتمع الملثم كثرة العبيد الذين استُخدموا وسُخروا للعمل في مناجم الملح، وجلُّهم كـانوا أسرى في الحروب التي نشـبت بين الملثمين والوثنيين، وارتفع شـأن العبيـد فيمـا بعد؛ فكانوا فـرقة خاصـة في جيش المرابطين، واشتهرت المرأة الملثمة بـالجمال، وهي سمراء اللون، وبعض نساء

الطبقة العليا كانت لهن منزلة رفيعة فاقت منزلة الرجال في بعض الأحيان.

وانتشرت عادات خبيثة في المجتمع الملثم تتنافى مع تعاليم الإسلام، بل هي عادات غارقة في مستنقعات الجاهلية، ومن أبشع هذه العادات السيئة الزواج بأكثر من أربع حرائر، وعادة الزنا ومصادقة الرجل للمرأة المتزوجة بعلم زوجها وحضوره، وغابت العقيدة الإسلامية الصحيحة عن ذلك المجتمع واضطربت تصوراته وانحرف عن الصراط المستقيم، بعدما كان أجداد هذا المجتمع قد آمنوا بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد (ﷺ) نبيًا ورسولاً، ونبذوا ديانتهم المجوسية القديمة، بل كان أجداد هذا المجتمع دعاة إلى الله، ورفعوا لواء الجهاد، وخاضوا حروبًا في سبيل إعلاء كلمة الإسلام الخالدة التي وصلتهم بعد فتح الأندلس.

واشتهر من ملوك الملثمين بحرصهم على نشر الإسلام وكسر شوكة من يعاديه الملك «تيولوثان بن تيكلان اللمتوني» الذي حارب القبائل الوثنية ونشر بينها الإسلام، وبعد وفاته سنة ٢٢٢ هـ خلفه حفيده الأثر الذي دام حكمه حتى وفاته عام ٢٨٧ هـ ، فخلفه ابنه تميم الذي قتل عام ٣٠٦ هـ/ ٩٢٠ م على يد مشايخ صنهاجة.

وبعد ذلك افترقت كلمة الملثمين، وضاعت كثير من تعاليم الدين، واستمر شتاتهم مدة مائة وعشرين سنة إلى أن قام بالأمر الأمير محمد بن تيفاوت اللمتوني[1] الذي وحدهم، وقد استشهد هذا الأمير بعد ثلاث سنوات من حكمه على يد الوثنيين، فقام بعده صهره الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي، الذي قاد قومه نحو دين الله بعد رجوعه من حجِّه ورحلته المشهورة.

---

(١) انظر : ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص (٧٤٦) نقلاً عن دولة المرابطين ص (١٩).



المبحث الثاني

الأمير يحيى بن ابراهيم (الزعيم السياسي)

كان الأمير يحيى بن إبراهيم سيـدًا مطاعًا في قومه؛ لِما عُرف عنه من شجـاعة وكرم وجود ومـقدرة قيادية عـالية، واشتـهر برجاحة عـقله ونفاذ بصيرته وسداد رأيه وحرصه على هداية قومه.

خرج هذا الأمير الجليل من ديار الملثـمين قاصدًا بيت الله الحرام، لأداء فريضة الحج تاركًا الحكم لابنه إبراهيم عام ٤٢٧ هـ ـ ١٠٣٥م[١].

وكانت العادة أن يقترن الحج بطلب العلم، وبعد أداء الفريضة، انطلق الأمير يحيى يبحث عن المعرفة في مدارس المغرب الفقهية طالبًا للعلم لإرواء روحه الظمـأى إلى نور المعرفة الإسلامـية التي اندرست معـالمها في بلاده، ورمت به أقدار الله في حلقة إمام المغرب في زمانه في مدينة القيروان «الإمام أبو عمران الفاسي» الذي تعلقت نفسُ الأمير يحيى بتعاليمه وفقهه، وعرض نفسه على الإمام أبي عمران الفـاسي الذي ورث زعامة المدرسة المالكية التي انتصرت على الهـيمنة الإسماعـيلية العبيدية البـاطنية الرافضيـة، واستردت حريتها كاملة بعد جهادهم المرير الذي أصبح معلمًا من معالم أهل السنة في الشمال الإفريقي.

وأُعجب الشيخ أبو عـمران بالأمير يحيـى لما لمسه فيه من حبـه للخير وحرصه على التعلم، وتحـدث إليه الأمير عن سوء الأحوال الاجتـماعية في بلاده، وجهل قبائلها بأصول الديـن وفروع الشريعة، وطلب من أبي عمران

(١) انظر: دولة المرابطين، ص (١٩).

أن يبعث معه أحد طلبته ليعلم قومه أصول الفقه والشريعة الإسلامية[1].

وتذكر بعض كتب التاريخ، أن أبا عمران الفاسي هو الذي وضع الخطوط الأُولى مع الزعيم يحيى بن إبراهيم لقيام دولة صحراوية سنية في المغرب على أسس دينية صحيحة ،كي تستطيع القضاء على الفوضى السياسية والدينية التي كان المغرب يتخبط فيها منذ سنوات عديدة، وفي ذلك يقول صاحب كتاب «بعض مشاهير أعيان فاس في القديم»:

«ولما اجتمع أبو عمران مع يحيى بن إبراهيم، ندبه إلى قتال برغواطة، وقتال زناتة على ما صدر منهم من الظلم، واستنزال رؤسائهم من الولاية، فوعده يحيى بالنهوض إلى ذلك»[2].

وكان يحيى بن إبراهيم حريصًا على وأخذ فقيه وعالم معه إلى قومه، ورأى أبو عمران الفاسي من أجل تحقيق الأهداف التي رسموها أنه لا بد من المرور بمراحل ضرورية في بناء الدولة المنشودة من مرحلة التعريف بالمنهج وتكوين أفراده وتربيتهم عليه، وتنفيذ السياسة المرسومة بعد التكوين للوصول إلى مرحلة القوة والتمكين.

فأحال أبو عمران أمير الملثمين على تلميذ له في بلاد السوس في أقصى المغرب، وهو الفقيه وجاج بن زلوا اللمطي، الذي كان يقيم في رباط هناك بمدينة نفيس يسمى دار المرابطين، ومن هذا الرباط أرسل وجاج صحبة هذا الأمير الفقيه عبد الله بن ياسين الجزولي ليفقه هؤلاء الصحراويين في أمور دينهم.

وكان يحيى بن إبراهيم بجانب تفكيره في إخراج قومه من الظلمات

(١) انظر: تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، ص (٣٨).

(٢) انظر: تاريخ المغرب والأندلس، د. أحمد العبادي، ص (٢٧١).

إلى النور يفكر في إنقاذ قومه من الهيمنة الزناتية الظالمة، التي كانت قبائل صنهاجة الملثمة تعاني من جورها وقسوتها وإذلالها وإهانتها.

لقد رأى الأمير يحيى أن طريق عزة قومه في تمسكهم بالإسلام الصحيح، وقد لاحظ الأمير يحيى بن إبراهيم أن كل من حركوا القبائل البربرية وهيؤوها لإنشاء الدول، كانوا جميعًا من المتحمسين من علماء الدين، أو أصحاب الدعوات الدينية سواء كانت خارجية بدعية، أو إسماعيلية كفرية، أو إدريسية مالكية، من أمثال: أبي الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الخارجي، وأبي عبد الله الشيعي الباطني، وإدريس بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب، حتى برغواطة ذات الديانة الشركية المجوسية اليهودية تزعَّمها رجل يدَّعي أنه من أهل العلم، وهو ميسرة الفقير، وحتى قبيلة غمارة تزعمها صالح البرغواطي الذي زعم أنه «صالح المؤمنين» الذي ورد ذكره في القرآن[1].

لهذه الجولة التاريخية التي مرت في ذاكرته حرص على الاهتمام بالشيخ عبد الله ياسين الرجل الفقيه العالم السني ليعلم قومه ويزكيهم ويفقههم.

كما كان الأمير يحيى بن إبراهيم يخشى من خطر الجنوب ويهتم بدعوة القبائل الوثنية للإسلام.

وبدأ الأمير يحيى في شق طريقه المليء بالأشواك من أجل إنقاذ قومه وإعزازهم في الدنيا والآخرة، ورجع إلى أهله وعشيرته ومعه الرجل الربَّاني والفقيه المالكي والمربي الصبور والزعيم الديني الإمام عبد الله ياسين، وقبل الدخول في سيرته نترجم للإمام السني المالكي سيد القيروان في زمانه.

(١) انظر: معالم تاريخ المغرب والأندلس، د. حسين مؤنس، ص (١٦٠).



المبحث الثالث

أبو عمران الفاسي

مهندس الخطوط العريضة لدولة المرابطين (٣٦٨هـ - ٤٣٠هـ)

ذكر القاضي عياض في «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك» ترجمة أبي عمران الفاسي فقال: «هو موسى بن عيسى بن أبي حاج بن وليم بن الخير الغَفَجُومي، وغفجوم فخذ من زناتة من هوارة، وأصله من فاس، وبيته بها بيت مشهور، يعرفون ببني أبي حاج، ولهم عقب، وفيهم نباهة إلى الآن»[1].

١ـ شيوخه:

تفقَّه بالقيروان عند أبي الحسن القابسي، وسمع بها من أبي بكر الدويلي، وعليّ بن أحمد اللواتي السوسي، ورحل إلى قُرطبة، فتفقه بها عند أبي محمد الأصيلي، وسمع الحديث من أبي عثمان سعيد بن نصر، وعبد الوارث بن سفيان، وأحمد بن قاسم، وغيرهم، ثم رحل إلى المشرق، فحج ودخل العراق، فسمع من أبي الفتح بن أبي الفوارس، وأبي الحسن علي بن إبراهيم المستملي، وأبي الحسن الخضر، وغيرهم من العراقيين[2]، ودرس الأصول على القاضي أبي بكر الباقلاني، وسمع بالحجاز من أبي الحسن بن أبي فراس، وأبي القاسم السقطي، وبمصر من أبي الحسن بن أبي جدار، وأحمد بن نور القاضي، ثم رجع إلى القيروان، وسكنها، وأصبح

(١) ترتيب المدارك، الطبعة المغربية، (ج ٧/ ٢٤٣، ٢٤٤).

(٢) المرجع السابق.

سيدها المطاع، وأقبل عليه طلاب العلم من كل صوب، وطارت فتاويه في المشرق والمغرب، واعتنىٰ الناس بقوله[1].

٢ ـ أثره وتلاميذه:

ابتدأ نشاطه العلمي سنة ٤٠٢ هـ، حين عاد من المشرق، فقد جلس للطلبة في المسجد، وفي داره أيضًا، وسرعان ما عُرف قدره، واشتهرت إمامته، وطار ذكره في الآفاق، وقد خلف الإمام القابسي المتوفي سنة ٤٠٣هـ، في نشر علوم السنة في إفريقية ورئاسة العلم بها، ورحل إليه الناس من الأقطار لسماع مروياته واستجازه من لم يستطع الاجتماع به[2].

وكان يجلس في حلقته العلمية من بعد صلاة الصبح إلىٰ صلاة الظهر، يحدثهم ويملي عليهم، ويقرأ لهم، «فلا يتكلم بشيء إلا كُتب عنه إلىٰ أن مات».

وكان يحدث بصحيح البخاري و«التاريخ الكبير» له أيضًا ،و«تصحيف المحدثين» للدارقطني، وكان يحدث كذلك بمصنفاته في الحديث والرجال والفقه، وقد انتشرت روايتها في الأندلس أيضًا عن طريق تلاميذه من أهلها[3].

وكان متضلعًا في كلام الرواة جرحًا وتعديلاً، ومعرفة سيرهم ووفياتهم وغير ذلك.

وكان العامة من أهل القيروان خصوصًا يرجعون إليه فيما يلم بهم ويستفتونه.

(١ -٣) انظر: مدرسة الحديث في القيروان (ج ٢/ ٧٦٥، ٧٦٦).

كما كان الموفدون في مهمات سياسية إلى القيروان يسألونه ويستفتونه ويستفيدون من علمه.

وكان له اهتمام بالبلاد البعيدة ويرسل إليها من يقوم بنشر العلم ،كما حدث في اهتمامه بصحراء المغرب، وما نتج عن ذلك الاهتمام من قيام دولة المرابطين في تلك المناطق النائية(١).

وقد تتلمذ عليه عدد كبير من الناس من أهل إفريقية والمغرب، والأندلس، وصقلية، قال الذهبي: «تخرج بهذا الإمام خلق من الفقهاء والعلماء»(٢).

٣ـ ثناء العلماء عليه:

قال تلميذه الحافظ حاتم الطرابلسي: «لقيته بالقيروان في رحلتي سنة ٤٠٢ هـ، وكان من أحفظ الناس وأعلمهم ،وكان جمع حفظ المذهب المالكي، وحفظ حديث النبي (ﷺ)، والمعرفة بمعانيه، وكان يُقرئ بالسبعة، ويُجودها مع المعرفة بالرجال، والمعدلين منهم والمجرحين...»(٣).

وقال الذهبي: «الإمام الكبير العلامة عالم القيروان ... أحد الأعلام ... تخرج به خلق من الفقهاء والعلماء»(٤).

وقال أبو بكر الباقلاني لأبي عمران الفاسي: «لو اجتمعت في مدرستي أنت وعبد الوهاب بن نصر ـ وكان إذ ذاك بالموصل ـ لاجتمع فيها علم

---

(١) المرجع السابق.

(٢) سير أعلام النبلاء (ج ١٧/ ٥٤٦).

(٣) ترتيب المدارك (ج ٧/ ٢٤٦) الطبعة المغربية.

(٤) سير أعلام النبلاء (ج ١٧/ ٥٤٥، ٥٤٦).

مالك: أنت تحفظه، وهو ينصره ،لو رآكما مالك لسُرَّ بكما»[١].

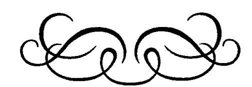
٤ـ شعره:

عندما كتب محمد بن علي الطبني أبياتًا من الشعر وأرسلها إلى أبي عمران الفاسي بمناسبة العزم على الذهاب إلى بيت الله الحرام، أجاب أبو عمران الفاسي بهذه الأبيات:

حياك ربُّك من خلٍّ أخي ثقة	وصان نفسك بالتكريم مولاها
من كلِّ غم وشان لا يوفقها	فهو العليم بما يبديه مولاها
ولا أضاع لها الرحمن حرمتها	وقولها إن تسر ودعتك الله
الله يجمعنا من بعد أوبتنا	ويؤتنا من وجوه البر أسناها[٢]

هذه ترجمة موجزة لواضع الخطوط العريضة لدولة المرابطين.

وتوفي(رحمه الله) سنة ثلاثين وأربعمائة من الهجرة.



(١) ترتيب المدارك (ج ٧/ ٢٤٦).

(٢) المصدر السابق (ج ٧/ ٥٢)



المبحث الرابع

الزعيم الديني لدولة المرابطين عبد الله بن ياسين

هو عبد الله بن ياسين بن مكوك بن سير بن عليّ الجزولي، وأصله من قرية «تماماناوت» في طرف صحراء غانة[١].

درس على فقيه السوس وجاج بن زلوا، رحل إلى الأندلس في عهد ملوك الطوائف وأقام بها سبع سنين[٢]، واجتهد في تحصيل العلوم الإسلامية، ثم أصبح من خيرة طلاب الفقيه وجاج بن زلوا، فعندما طلب أبو عمران الفاسي من تلميذه وجاج بن زلوا أن يرسل مع يحيى بن إبراهيم فقيهًا عالمًا دينًا تقيًا مربيًا فاضلاً وقع الاختيار على عبد الله بن ياسين الصنهاجي ،الذي كان عالمًا بتقاليد قومه وأعرافهم وبيئتهم وأحوالهم.

ودخل عبد الله بن ياسين مع يحيى بن إبراهيم في مضارب ومواطن ومساكن الملثمين من قبيلة جدالة في عام ٤٣٠ هـ/ ١٠٣٨ م فاستقبله أهلها واستمعوا له، وأخذ يعلمهم، فكان تعليمه باللغة العربية لطلبة العلم، والإرشاد الديني للعامة بلهجة أهل الصحراء البربرية.

لاقى عبد الله بن ياسين كثيرًا من الصعوبات، فقد وجد أكثر الملثمين لا يصلون ولا يعرفون من الإسلام إلا اسمه، وعم الجهل عليهم، وانحرفوا عن معالم العقيدة الصحيحة وتلوثت أخلاقهم وأحكام دينهم، واصطدمت تعاليمه بمصالح الأمراء والأشراف، فثاروا عليه، وكادوا يقتلوه، إلا أنه ترك

---

(١) دولة المرابطين، ص (٢١) نقلاً عن البكري المغرب، ص (١٦٥).

(٢) ابن الخطيب، الحلل، ص (١٩١).

قبيلة جدالة، وانتقل إلى قبيلة لمتونة، ومن ثم اختار رباطه المشهور على مصب نهر السنغال، بعد انتشار صيته، وتعلق الناس به، فهرعوا إليه ليربيهم وينظمهم، ويعلمهم.

ومن خلال كُتب التاريخ نستطيع أن نقول: إن عبد الله بن ياسين (رحمه الله) نجح في رسالته الدعوية لأسباب مهمة يجب أن يعرفها الدعاة إلى الله، ألا وهي: ما وهبه الله من صفات فطرية، وما اكتسبه في حياته من صفات عقلية، وصفات حركية.

أ- ومن أهم الصفات الفطرية التي ظهرت لي من سيرته:

١- الذكاء: فكان (رحمه الله) عميق الفهم، صاحب حجة، يُقيم الدليل على خصومه من الفقهاء، والمحليين الذين تحالفوا مع الأمراء والأعيان للقضاء عليه أو طرده.

واختياره لمكان أنسب لتربية أتباعه وتعليمهم يدل على ذكائه وبُعد نظره، ويظهر ذلك في حروبه التي خاضها لتوحيد القبائل الصنهاجية، ثم انتقاله للقضاء على المخالفين له في المنهج والمعتقد والتصور.

٢- الشجاعة: حيث إنه دخل الصحراء داعيًا إلى الله (تعالى) مع أن غيره من تلاميذ أبي عمران الفاسي اعتذروا وكذلك من تلاميذ وجاج بن زلوا.

وامتاز بشجاعة وصلابة عظيمة في دعوته وأمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وفي جهاده حتى إنه استشهد في إحدى معاركه ضد أعدائه.

فكان شُجاعًا عظيم الاحتمال، ومارس أفضل الشجاعة، ألا وهي الصراحة في الحق، وكتمان السر ،إذ إنه كان قد خطط مع يحيى بن إبراهيم المراحل العلمية ولم يتسرب منها شيء لأعدائه حتى أخذت حيز التنفيذ.

والشجاعة في الحق وفي ميادين القتال بالنسبة للمسلم تدل على قوة عقيدته وسلامتها من غبش التصور وانحراف المنهج، ومن المعلوم أن صفاء العقيدة يرفع الهمة وينمي الشجاعة، ويلهب المشاعر، ويذكي الروح، ويربط

الفؤاد وينور العقل، ويوسع المدارك، والعاملون في الدعوة إلى الله ينبغي عليهم أن يكونوا شجعانًا فهي منه وإليه.

قال (تعالى): ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ * فَانقَلَبُوا بِنِعْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾ [آل عمران: ١٧٣، ١٧٤].

وحامل دين الله ينبغي ألا يستكين، ولا يجبن، ولا يخور عزمه؛ لأنه صاحب رسالة مقدسة من عند العليم الحكيم، سار على نهجها رسل الله من قبل، فنصرهم الله، وانتقم من عدوهم.

قال الشاعر:

إن نفسًا ترتضي الإسلام دينًا ... ثم ترضى بعده أن تستكينا

أو ترى الإسلام في أرض مهينًا ... ثم تهوى العيش نفس لو تكونا

في عداد المسلمين العظماء[1]

وكم نحن محتاجون إلى شجاعة الدعاة إلى الله من أمثال الفقيه عبد الله بن ياسين لندك بها الباطل، ونزيل بها المنكرات الظاهرة، وندمغ الشبهات الخادعة بالنورين كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ).

قال الشاعر:

وإذا اضطررت إلى الجدال ولم تجد ... لك مهربًا وتلاقت الصفان

فاجعل كتاب الله درعًا سابغًا ... والشرع سيفك وابد في الميدان

والسنة البيضاء دونك جُنة ... واركب جواد العزم في الجولان

واثبت بصبرك تحت ألوية الهدى ... فالصبر أوثق عدة الإنسان

واطعن برمح الحق كل معاند ... لله درُّ الفارس الطعان

واحمل بسيف الصدق حملة مخلص ... متجرد لله غير جبان[2]

(١) انظر: الصفات اللازمة للدعاة، أحمد القطان، جاسم المهلهل، ص (٢٠).

(٢) نونية أبي عبد الله القحطاني، ص (٣٩).

وكم نحن محتاجون للدعاة الذين يتوغلون في مواطن القبائل التي ابتعدت عن إسلامها ودينها وإيمانها ،ليقودوها من جديد إلى دعم حركة الإسلام المعاصرة التي استهدفها كل من النصارى واليهود والملاحدة الحاقدين.

٣ـ المهابة: ومن الصفات التي ظهرت لي في سيرة عبد الله بن ياسين أنه كان مهيبًا قويًا شديدًا، فمن الأدلة على قوته البدنية، خوضه الحروب بنفسه وتقدمه في ميدان الفروسية ،بل جعل من منهجه الذي ربى عليه أصحابه في هذا الجانب قوله (تعالى): ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُم﴾ [الأنفال: ٦٠].

وفسر الرسول (ﷺ) القوة في هذه الآية- بالرمي بقوله: «**ألا إن القوة الرمي**»[١]، والرماية إن لم تخرج من ساعد قوي ومتين فهي لا تحقق الهدف المطلوب، وفي السنة نجد القوة البدنية لاقت حظًا وافرًا، فالرسول (ﷺ) هو أقوى الأقوياء، وكان يشجع أصحابه (رضي الله عنهم) على اكتساب هذه الصفة ،بل ربما كان يباريهم ويصارعهم، ويسابقهم، وكما تحدثنا السيرة عن ذلك، يروى مرة أن تسابق (ﷺ) مع عائشة (رضي الله عنها) فسبقته مرة، ثم سبقها مرة، وكذلك تحدثنا السيرة عن مصارعته (ﷺ) لأحد أصحابه فصرعه.

ومر (ﷺ) على صبيان يرمون بالسهام؛ فأخذ يرمي معهم ويشجعهم ويذكي فيهم روح البطولة والشجاعة والقوة، ويقول: «**ارموا فإن أباكم إسماعيل كان راميًا**»[٢]، وهذه الآية والأحاديث الفعلية كانت منهج عبد الله ابن ياسين وأصحابه، ولذلك تظهر لنا صلابة وقوة أتباعه في ميادين القتال.

---

(١) رواه مسلم رقم (٩١٠).

(٢) رواه البخاري فتح الباري، (ج ٦/ ٤٣١).

ومفهوم القرآن للقوة عام يشمل كل أنواع القوة، قال السعدي (رحمه الله) في تفسيره في قوله (تعالى): ﴿ مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ أي: «كل ما تقدرون عليه، من القوة العقلية، والبدنية، وأنواع الأسلحة، ونحو ذلك».

«فدخل في ذلك أنواع الصناعات التي تعمل فيها أصناف الأسلحة والآلات، من المدافع والرشاشات والبنادق، والطيارات الجوية، والمراكب البرية والبحرية، والقلاع، والخنادق، وآلات الدفاع، والرأي والسياسة، التي بها يتقدم المسلمون، ويندفع عنهم بها شر أعدائهم، وتعلم الرمي والشجاعة، والتدبير»[1].

لقد جمع عبد الله بن ياسين (رحمه الله) من القوة الفكرية أنواعًا متعددة من قوة الإدراك، وقوة الصبر، وقوة العلم، وقوة التلقي، وغيرها من القوى.

ومن هنا يتضح لنا حاجة العاملين في الحركة الإسلامية إلى هاتين القوتين، البدنية والعقلية وجميع أنواع القوى الفكرية لتوظيفها في الدعوة إلى الله[2].

ولقد أشار القرآن الكريم إلى قيمة القوة العقلية الفكرية وإلى القوة البدنية في بيان أمة مجاهدة تحفز للنهوض بعبء النضال، في سبيل عقيدتها وحريتها، وكان من صفات قائدها أن الله أعطاه ومنَّ عليه بهاتين القوتين البدنية والعقلية، قال (تعالى): ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ [البقرة: ٢٤٧]. فبسطة العلم إشارة إلى القوة العقلية، وبسطة الجسم إشارة إلى القوة البدنية، قال الشيخ حسن البنا (رحمه الله) في

(١، ٢) انظر: الصفات اللازمة للدعاة، ص (٢٢).

الأصل الأول من الأصول العشرين: إن القوة تشمل قوة الإنسان التي تجعله قويًا في نفسه وبدنه وعقله، وعليه أن يباشر الأسباب التي تجعله قويًا، أما قوة نفسه فبالإيمان، وأما قوة بدنه فبالرياضة والفروسية ونحوها، أما قوة عقله فبالعلم[١].

والإنسان المسلم الذي وهبه الله القوة العقلية والفكرية والبدنية لا ينسى دائمًا وأبدًا قوة القوي العزيز الذي أمده بكل خير وفلاح وصلاح، وما سوى قوة الله فهي قوة ضئيلة هزيلة، مهما أوتيت من وسائل البطش والقوة والتنكيل، فهي بمثابة خيوط العنكبوت: ﴿وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤١][٢].

قال سيد قطب (رحمه الله) في «ظلاله»: «وإن أصحاب الدعوات، الذين يتعرضون للفتنة والأذى والإغراء والإغواء ،لجديرون أن يقفوا أمام هذه الحقيقة الضخمة، ولا ينسوها لحظة، وهم يواجهون القوى المختلفة المعادية، التي تحاول سحقهم وإبادتهم، كلها خيوط عنكبوت في حساب العقيدة الصحيحة»[٣].

٤- الأمانة: ومن الصفات الفطرية التي تميز بها الزعيم الديني لدولة المرابطين: الأمانة، فحين وجد الفقيه عبد الله بن ياسين أن القلوب التفت حوله، وأصبح الآمر الناهي في قبائل الملثمين، لم ينافس الأمير يحيى بن إبراهيم في منصبه، بل نجده لم يتجاوز حدوده، ولم يتدخل في سلُطات

(١) انظر: رسالة التعاليم، ص (١٠).

(٢) انظر: الصفات اللازمة للدعاة، ص (٢٢)، نقلاً عن طريق الدعوة في الظلال.

(٣) انظر: الظلال لسيد قطب، نقلاً عن الصفات اللازمة لأصحاب الدعوات، ص (٢٢).

الأميـر يحيى ،مع مـقدرته على إزاحتـه وإبعاده من الطريق ليـتبوأ الزعـامة السيـاسية والدينيـة معًا، وهذا يدل على أمـانة الداعية الفـقيه عـبد الله بن ياسين، والأمانة صفة مهمة للعـاملين في الحركة الإسلامية، فهي ذات أنوار تشع على من حول الدعاة إلـى الله ،فتجذبهم للانخراط في مـيادين العمل الإسلامي الواسعة والمحتاجة لكل جهد وشخص مخلص لهذا الدين.

والأمانة تحتاج إلى أشخاص أقوياء لحـملها، ومفهوم الأمانة في القرآن واسع جدًا.

وقد وصف الله المؤمنـين الذين نالوا الفلاح في الدنيـا والآخرة وورثوا جنة الفردوس بصفات ،منها الأمانة.

قال (تعالى): ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ ﴾ [المؤمنون: ٨].

يقول سيد قطب (رحمه الله) في تفسير هذه الآية: «وراعون لأماناتهم وعهدهم أفرادًا، وراعـون لأماناتهم وعهدهم جماعة، والأمـانات كثيرة في عنق الفـرد، وفي عنق الجمـاعة، والجـماعة المُسـلمة مسـؤولة عن أمانـاتها العامة، عن عهدها مع الله (تعالى)، وما يترتب على هذا العهد من تبعات، والنص يحمل التـعبير ويدعـه يشمل كل أمانة وكل عـهد، ويصف المؤمنين بأنهم لأماناتهم وعهـدهم راعون، فهي صفة دائـمة لهم في كل حين، وما تستقيم حياة الجماعة إلا أن تؤدَّى فيها الأمانات وتُرعى فيها العهود»[1].

فعـبد الله بن ياسين (رحمـه الله) اتصف بالأمانة فعـظم شأنه في نظر أتباعـه وفي تاريخ المسلمين؛ لأنه كان أمـينًا في نفسه ومع أخـوته، وحمل أمانـة الإسلام، وبذل كل مـا في وسعـه، وتحرك بمنهج الله في دنيـا الناس لتحكيم شرع الله، فأكسبته هذه الصفة في نفوس الناس قبولاً.

---

(١) في ظلال القرآن، ص (٢٤٥٦).

٥.الحياء: والصفة الخامسة الفطرية التي جُبل عليها عبد الله بن ياسين، الحيـاء الذي هو شـعبة مـن شعب الإيمان، ويظهـر ذلك جليًا عندمـا طلب شيخه منه الذهاب مع يحيى بن إبراهيم للدعوة ،فلم يعارض ولم يناقش بل استجـاب لشيخه، كـما نلاحظ ذلك في سيـرته مع يحيى بن إبراهيم الذي تملك قلبه حب عبد الله بن ياسين ،وأسر فؤاده بإحسانه وكرمه وحرصه على دعوة الناس لدين الله، فعنـدما عرض الأمير يحيـى على عبد الله بن ياسين رباطًا في ضفاف نهر السنغال أجابه عبد الله بن ياسين الذي كان عازمًا على ترك جدالة ولمتـونة؛ لما أصابه من عنتهم وظلمهم وجـورهم في بداية دعوته لهم، وعرف العلماء الحـياء فقالوا: «أصل الاستحيـاء الانقباض عن الشيء والامتناع منه خوفًا من مواقعة القبيح»[١].

وقال الجنيد: «إن الحياء يتولد من مشاهدة النعم ورؤية التقصير»[٢].

فالحياء من المعـاني والصفات الرائعة التي يتصف بهـا النبلاء والشرفاء من الناس، وكـان الرسول (ﷺ) أشد الناس حياء، وقد وصـفه الصحابي الجليل أبو سعيد الخدري (رضي الله عنه) بقوله: «كان رسول الله (ﷺ) أشد حياء من العذراء في خدرها، فإذا رأى شيئًا يكرهه عرفناه في وجهه»[٣].

وقال رسول الله (ﷺ): «الحياء لا يأتي إلا بخير»[٤]، ومن الحياء غض البصر، وخفض الجناح، وعدم رفع الصوت إلا في وجه الباطل.

فعلى العاملين في الدعوة إلى الله أن يُلازموا هذه الصفة الجميلة.

(١ ،٢) الصفات اللازمة لحياة الدعاة، ص (٢٦، ٢٧).

(٣) البخاري، فتح الباري، (ج ١٢/ ١٥١).

(٤) رواه البخاري (٦١١٧).

فالحياء المطلوب في صفة الداعية والذي تدعو إليه الشريعة وتحث عليه، هو الذي يمنع صاحبه من ارتكاب المعاصي والوقوع في الآثام، وفي نفس الوقت يحث صاحبه على العمل الدَّؤوب للإسلام، ومناصرة الحق والذَّود عنه، والوقوف أمام الباطل بشتى أنواعه.

قال رسول الله (ﷺ): «**الإيمان بضع وسبعون شعبة أفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان**»[١].

إن هذا الخلق الكريم والصفة الفاضلة لا بد منها في أخلاق الدعاة الربانيين ،ولا يمنعهم هذا الخلق أن يفرطوا في معالي الأمور والصعود على سُلَّم الفضائل، والوصول إلى الغايات النبيلة من تفقه في الدين وتعلم العلم والحرص عليه.

فعن عائشة (رضي الله عنها) ،قال رسول الله (ﷺ): «**نعم النساء نساء الأنصار، لم يمنعهن الحياء أن يتفقهن في الدين**»[٢].

٦ـ الحلم: والصفة السادسة من الصفات الفطرية التي يلاحظها الباحث في حياة الفقيه عبد الله بن ياسين هي صفة الحلم، فنجده عندما تمكن من قبائل جدالة ولمتونة التي حاربت دعوته عفا عنها وأحسن إليها، وكل من انصاع لأحكام الله من المخالفين والمحاربين له عفا عنه.

والحلم -كما هو معلوم- سيد الأخلاق؛ فالحليم هو الذي يتحمل أسباب الغضب، فيصبر ويتأنى، ولا يثور.

من هنا ينبغي على الداعية أن يملأ صدره بالحليم، لأن طريق الدعوة محفوفة بالمكاره، والمتاعب والإيذاء، والبطش، والسخرية، وهذه كلها

---

(١) رواه مسلم رقم (٣٥).

(٢) رواه مسلم (ج ١/ ٢٦١).

عقبات تزدحم في وجه الداعية والدعاة إلى الله[١].

ولقد ضرب الله لنا في كتابه العزيز نماذج من حلم رسله وسعة صدورهم على ما لاقوه من إيذاء وابتلاء من قومهم، قال (تعالى) عن هود (عليه السلام): ﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ۝ قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ۝ أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَا لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ﴾ [الأعراف: ٦٦ - ٦٨].

صورت لنا هذه الآيات مقدار الحلم الذي يتصف به هود (عليه السلام) وسعة صدره، حيث لم يعبأ بهذا السباب، وبهذه السخرية والشتائم، ولم يطش لها حلمه، بل قابل هذه الشتائم والسباب والسخرية بدعوة التوحيد، ووضح لهم مهمة رسالته ،وأخيرًا نصحهم بالحسنى وأنه أمين على ذلك.

أما رسول الله (ﷺ) فكان حلمه، يفوق حد التصور، وخصوصًا إذا علمنا أن حلمه، كان مع القدرة على البطش ورد الفعل بأنكى وأعتى، فقد روى أنس بن مالك (رضي الله عنه) قال: «كنت أمشي مع رسول الله (ﷺ)، وعليه برد نجراني غليظ الحاشية، فأدركه أعرابي، فجذبه بردائه جذبة شديدة حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله (ﷺ) وقد أثرت بها حاشية الرداء من شدة جذبته ثم قال: يا محمد، مُر لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه فضحك، ثم أمر له بعطاء»[٢].

إن الدعاة إلى الله (تعالى) الذين يسعون لإقامة شرع الله على منهج النبوة الخالد، لمحتاجون إلى هذه الصفة الرفيعة في حركتهم الدائبة والمستمرة، وإن كتب التاريخ الإسلامي تبين لنا أن طلائع الفتح والتمكين

(١) انظر: الصفات اللازمة للدعاة إلى الله، ص (٣٠).

(٢) أخرجه البخاري في الفتح (٧/ ٦٣)، والحديث (٣١٤٩).

دائمًا وأبدًا تكون هذه الصفة بارزة في صفوفهم.

٧- الجاذبية الفطرية: وهذه الصفة بارزة للعيان في شخصية الفقيه عبد الله بن ياسين ،وبها جذب قلوب أبناء الصنهاجيين بدون تكلف، وهي من أقوى العناصر التي تكونت منها شخصية الفقيه ابن ياسين.

لقد استطاع أن يملك قلوب من جالسوه وسمعوا حديثه من أمثال يحيى ابن إبراهيم، ويحيى بن عمر، وأبي بكر بن عمر، وغيرهم من قادة الصنهاجيين وشيوخهم، ولا شك أن ما ذكرناه من هذه الصفات المهمة في شخصية الداعية هي من العطايا العظيمة التي يهبها الله لفئة من عباده الذين أخلصوا القول والعمل.

وكان قول الله (تعالى) متمثلاً فيهم: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

ب- من الصفات المكتسبة في شخصية الفقيه ابن ياسين:

١- الصدق:

وظهر ذلك في أقواله وأفعاله ومخالطته للناس، فكان صادقًا في دعوته وفي عرضها، وفي مخاطبته للناس، ولا يهاب أحدًا، ولا يخشى في الله لومة لائم، ولا همزة هماز، ولا لمزة لمّاز.

ولمس الناس صدقه في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، وفي حربه للبدع، وفي تعليمه للناس وجهاده في سبيل الله ،فتأثر أتباعه به غاية التأثر. وحثنا القرآن الكريم على التخلق بهذه الصفة فقال (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩].

وكانت التوجيهات النبوية الكريمة للصحابة (ﷺ) تحثهم على الصدق،

فعن ابن مسعود (رضي الله عنه)، عن النبي (ﷺ) أنه قال: «**إن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدق ويتحرى الصدق حتى يُكتب عند الله صديقًا**»(١).

ويعتبر الصدق من أهم صفات المنتسبين للعمل الإسلامي القائمين بإرشاد الناس إلى دين الله، فليعلم ذلك كل داعية، وليعلم تمامًا أن دعوته جاءت بالصدق، كما قال (تعالى): ﴿**وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ [الزمر: ٣٣].

وقد شهد المؤرخون - حتى الذين طعنوا في دولة المرابطين - على زعيمها عبد الله بن ياسين، لقد ساد ابن ياسين في قبائل الملثمين بصدقه في دعوته.

٢- ضبط النفس والابتعاد عن التهور والانفعال:

ويظهر ذلك جليًا في شخصية ابن ياسين عندما باشر الأمير يحيى بن عمر اللمتوني القتال، وأمضى الحرب بنفسه، فأدبه ابن ياسين وضربه بالسوط عشرين مرة ، وبين له أن ذلك خطأ، لأن الأمير لا يقاتل وإنما يقف يحرض الناس ويقوِّي نفوسهم ،فإن حياة الأمير حياة عسكره، وموته فناء جيشه.

واعتبر عبد الله بن ياسين أن إقدام الأمير يحيى على القتال فيه تهور وعدم ضبط النفس.

كما يدل على ضبط نفس الفقيه ابن ياسين، وابتعاده عن التهور أنه لم يعلن الجهاد حتى أعد عدته، واستكمل أمره وأخذه بمراحله، وربّى رجاله، ولذلك عندما خاض جهاده كان موفقًا منصورًا، ولم يستطع القوة المعارضة

(١) أخرجه البخاري فتح (١٣/ ١٢١) الحديث (٢٠٩٤).

له أن تقضي عليه[١].

إن الداعية يتعرض أثناء قيامه بعمله الإصلاحي، إلى كثير من الجدال والتحدي والأذى، فعليه أن يتحلَّى بالصبر، وضبط النفس؛ لأن طريق الدعوة -كما هو معروف- طويل ويحتاج إلى صبر حتى الوصول إلى نهايته.

فعملية ضبط النفس وعدم التَّهَوُّر والإسراع في تهدئة الجو مطلوب من الداعية قبل التورط فيما لا تُحمدُ عقباه.

إن ضبط النفس يتم بموازين مُحددة تقي صاحبها من مغبة انسياقه وراء ما يصور له خياله، ويراه في نظره هو الأسلم فعندئذ يغضب، ويندفع ويتعجل الأمور فيتورط، ولقد ذكر لنا القرآن قصة تعطى هذه المعاني، وتصوِّرها لنا تصويرًا كأننا نلمسه ونشاهده، تلك قصة الملأ من بني إسرائيل: ﴿إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

وفي هذه القصة عبر وعظات، فإن أشد الناس حماسة واندفاعًا وتهورًا، قد يكون أشد الناس جزعًا وانهيارًا وهزيمة ونقضًا للعهد: ﴿قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلاَّ تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلاَّ نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

وهكذا نكثوا وعدهم، وتفلَّتوا من الطاعة، ونكصوا عن التكليف، وهذا شأن المتهورين المتسرعين، الذين لا يُقدِّرون الظروف، ولا يحسبون الصحيح ،ولا يعرفون قيمة للتكاليف الملقاة على عاتقهم[٢].

(١) انظر: روض القرطاس ص (٧٩، ٨٠).

(٢) انظر: الصفات اللازمة للدعاة، ص (٤٤).

ورحم الله الشيخ حسن البنا حيث يقول: «أيُّها الإخوان المسلمون، وبخاصة المتحمسون المتعجلون منكم، اسمعوها مني كلمة عالية داوية من فوق هذا المنبر - في مؤتمركم هذا الجامع - إن طريقكم هذا مرسومة خطواته، موضوعة حدوده، ولست مخالفًا هذه الحدود التي اقتنعت كل الاقتناع بأنها أسلم طريق للوصول، فمن أراد منكم أن يستعجل ثمرة قبل نضجها، أو يقطف زهرة قبل أوانها، فلست معه في ذلك بحال، وخير له أن ينصرف عن هذه الدعوة إلى غيرها من الدعوات... ألجموا نزوات العواطف، بنظرات العقول، وأنيروا أشعة العقول بلهب العواطف، وألزموا الخيال صدق الحقيقة، والواقع، واكتشفوا الحقائق في أضواء الخيال الزاهية البراقة، ولا تميلوا كل الميل فتذروها كالمعلقة، ولا تصادموا نواميس الكون، فإنها غلابة، ولكن غالبوها، واستخدموها، وحوِّلوا تيارها، واستعينوا ببعضها على بعض، وترقَّبوا ساعة النصر وما هي منكم ببعيد»[1].

فينبغي على العاملين في الحركة الإسلامية أن يدركوا هذا جيدًا، ويتركوا عنهم الحماس المتهور، ويتفهموا أصول العمل، ويدركوا الواقع الذي يحيط بهم، وينبذوا المجازفات الفاشلة؛ إن واقعنا المعاصر يحتاج إلى صفة ضبط النفس وعدم التهور للعاملين في الدعوة إلى الله (عز وجل).

٣- الإرادة القوية:

لقد شهد المؤرخون المسلمون وغيرهم أن ابن ياسين (رحمه الله تعالى) كان ذا همة وعزيمة لا تهزها الجبال، آمن بسمو دعوته، وقدسية فكرته، وعزم أن يعيش لها ويموت في سبيلها، وأدرك أن الأمانة التي يحملها ودخل بها الصحراء الكبرى تبعتها عظيمة؛ فعليه أن يصبر في عزيمة قوية، وإيمان

(١) مجموعة الرسائل، لحسن البنا ص (١٨٠).

ثابت ويقين لا يدخله تردد ولا شك.

فداوم على العمل الجاد وأخذ بقوة وعزم ومثابرة ومصابرة ،حتى تحقق إعـزاز دين الله في تلك الصـحـاري القـاحلة المقـفرة الخـاليـة من العلمـاء والفقهـاء، فأصبحت بفـضل الله ثم بجهده وجهـاده مليئة بالدعاة والفـقهاء والعلماء والمجاهدين.

فيـنبغي علينا ونحن في طريق الـدعوة سائـرون أن نأخذ أمر الـدعوة بقوة، وإرادة قـوية وعزيمة ماضـية، وهمة مـتطلعة للمـعالي، ونترك حـياة الرخاء واللين والدعة، ونقتـدي بسيد الدعاة الرسول (ﷺ) في عزمـه وقوة إرادته، وجمال صبره وشدة تحمله، وعظم حلمه.

ج- الصفات العقلية التي ظهرت في شخصية ابن ياسين:

١- القدرة على الفهم والاستيعاب:

استطاع ابن ياسين أن يفـهم ويستوعب المناهج العلميـة التي كانت في زمانه ،من فـقه وحـديث ولغة وأصـول وغيرها من العلوم حـتى تأهل لأن يكون أهلاً لحمل الرسالة التي كلـفه بها شيوخه، كـما انجلى لي قدرته على فهم واقعه الذي يريد تغييـره وحدد أولويات المرحلة التي هو فيها وشرع في إصلاحـها، كمـا أنه استـوعب الظروف السياسـية في زمـانه، واستطاع أن يستفيد منها لدعوته.

فينبغي على العاملين في الدعوة الإسـلامية أن يكون لهم وعي سياسي بواقعهم، وخبرة بالأساليب الحركيـة والتنظيمية، ومهارة في التخطيط المنظم المتزن ،حـتى نستطيع أن نـواجه العدوان الشـرس الموجه لأمـتنا الإسلامـية ونتصدى له بأسلوب كله حكمة وحنكة.

ومن هنا يتوجب علـى الأخ الداعية، أن تكون عنده قـدرة على الفهم

والتجارب وسرعة في التنفيذ، وأن يتسلح بالمعرفة التامة، وأن يفهم دعوته حق الفهم كي يستطيع أن يبلغها حق التبليغ، قال عمر (رضي الله عنه): «لست بالخِبِّ، ولا الخِبُّ يخدعني».

٢ـ النظر الثاقب والقدرة على الوصول للقرار الحاسم دون تردد:

ويظهر ذلك في سيرة الفقيه عبد الله بن ياسين عندما طلب فقهاء سجلماسة ودرعة في عام ٤٤٧هـ منه القدوم ليخلصهم من الحكام والطغاة الظلمة من زناتة المغراويين، ومن أميرهم مسعود بن أنودين، فجمع ابن ياسين شيوخ قومه وقرأ عليهم رسالة فقهاء سلجماسة، فأشاروا عليه بمد يد العون لهم، وقالوا له:

«أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا فَسِر على بركة الله»؛ فأخذ قراره الحاسم، وتحركت جموع المرابطين في شهر صفر سنة ٤٤٧هـ إلى بلاد درعة، واشتبكت مع المغراويين الذين انهزموا أمام المرابطين وتشتتت جموعهم، ودخل ابن ياسين سجلماسة، وأصلح أحوالها وقدم عليها عاملاً من أتباعه وجعل فيها حامية من جنوده ورجع إلى الصحراء[١].

فعلى العاملين في الدعوة الإسلامية، الاتصاف بصفة النظر الثاقب، وسرعة اتخاذ القرار الحاسم دون أي تردد، ودون أي ريب، لأن الداعية الرباني ينظر بنور الله، وهذا النور الإلهي إذا حل في قلب المؤمن يولد فيه البصيرة الثاقبة، التي يعرف بها الحقائق، ويزن بها الأمور، ويدرك بها الصعاب[٢]. ﴿ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ﴾ [النور: ٣٥].

(١) تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين، حمدي عبد المنعم، ص (٤٢).

(٢) انظر: الصفات اللازمة للدعاة إلى الله، ص (٦٣).

د ـ الصفات الحركية التي ظهرت للباحثين في شخصية ابن ياسين:

١ ـ الشعور بالمسؤولية:

وبدأ الشعور بالمسؤولية في حياة ابن ياسين منذ أن رغب في التحصيل والتزود للعلم والاستعداد للدعوة، وازداد ظهور ذلك في شخصيته عندما دخل مع الأمير يحيى بن إبراهيم في قبائل الملثمين حيث تولد في أعماقه شعور بمسؤولية الدعوة في هذه الأمة الجاهلة من قبائل صنهاجة، وكان شعورًا جرى في عروقه جريان الدم، فأحس بعظمة التكليف، وأعباء المسئولية فقام بأدائها خير أداء.

إن الأمة الإسلامية في هذه الأيام بمسيس الحاجة إلى العناصر التي تتحرك ذاتيًا نحو مسؤوليتها، وبحاجة إلى عناصر تتقد نفوسها شعورًا وإحساسًا بواجباتها الإسلامية، وبحاجة إلى عناصر يغلي فيها الشعور لهذا الدين، وهي تريد عناصر لا يهدأ تفكيرها للعمل لهذا الدين ساعة من ليل أو نهار.

فالشعور بالمسؤولية أمر لا بد منه لكل داعية نذر نفسه لله ولرسوله ولدينه، وعليه أن يتحرك في هذه الحياة بمقدار ما يحمله من مسؤولية، لأن حياة الداعية هي التحرك للإسلام لا القعود ولا الهمود[1].

وقد أحسن الشيخ الدكتور يوسف القرضاوى عندما قال:

قلت الحياة هي التحرك	لا السكون ولا الهمود
وهي الجهاد وهل يجاهد	من تعلق بالقعود
وهي التلذذ بالمتاعب	لا التلذذ بالركود
هي أن تذود عن الحياض	وأي حُر لا يذود
هي أن تحس بأن كأس	الذل من ماء صديد
هي أن تعيش خليفة	في الأرض شأنك أن تسود[2]

(١) المصدر السابق، ص (٧١ـ ٧٣). (٢) انظر: الصفات اللازمة للدعاة إلى الله، ص (٧٣).

٢ - النظام والدقة:

وظهرت صفة النظام والدقة في شخصية الفقيه ابن ياسين عندما تكاثر عدد المريدين في رباطه، الذي اتخذه قريبًا من نهر السنغال؛ حيث وضع شروطًا في قبول كل جديد كي يحفظ صفو جماعته من المخربين، فكان ينتقي أطهر الملثمين نفسًا وأوفرهم قوة وأقدرهم على تحمل المشاق، ومن توفرت فيه الشروط واجتاز التجربة بنجاح يتولى تعليمه وتثقيفه من قرآن وسنة وتفسير وحديث وأحكام الدين[1].

وأصبح رباطه قمة في النظام والدقة، واختار لإدارته أحد الأمراء، وفي الأمور المهمة كان الأمر شورى بين الجماعة الإسلامية المرابطة[2].

إن ديننا الإسلامي حثنا على النظام في كل شيء، ومن التطبيقات العملية على ذلك نأخذ مثال السفر، حيث أمر الإسلام الركب إذا كانوا ثلاثة أن يؤمِّروا عليهم أميرًا، حتى لا يختلفوا في الطريق وتتبعثر جهودهم، وخصوصًا أن السفر كما قال الرسول (ﷺ) : «قطعة من العذاب» فعملية التنظيم واختيار الأمير، لا شك أنها عملية تريح المسافرين من أعباء كثيرة، قال (ﷺ): «إذا خرج ثلاثة في سفر فليؤمِّروا أحدهم»[3]. فلا بد إذًا من تعويد النفس وضبطها على النظام، فالمسلم لا يتربى تربية منظمة، إلا إذا كان في جماعة منظمة ذات ارتباط ونظام ودقة في كل شيء، وفي كل أمر، كما أن هذه الجماعة لها هدف جماعي، يتحقق بتعاون الفرد وانصهاره في بوتقة الطاعة والنظام[4].

(١، ٢) دولة المرابطين ص (٢٧).

(٣) مسلم، كتاب المساجد، باب من أحق بالإمامة، (١/ ٤٦٤) رقم (٦٧٢).

(٤) انظر: الصفات اللازمة للدعاة إلى الله، ص (٧٥).

٣ـ القدرة على التعامل مع الناس:

تميزت شخصية الفـقيه ابن ياسين بمقدرته في تعامله مع أصناف الناس من أمراء وعوام وتجار وغيرهم من طبقـات المجتمع الصنهاجي. كان (رحمه الله) رقيق الشعـور، ثائر العاطفة، يقظ القلب، بعيد الآمال، كـبير المطامع في الإصلاح، وكان كل همِّه أن ينتفع الناس بعلمه ودعوته، ولذلك اختلط بالناس ودرس أخلاقهم وطبيعتهم عن كثب، وكان في خطابه للناس متحليًا بمكارم الأخلاق بعيدًا عن التجريح والإساءة.

واتخـذ من القرآن مـنهجًـا في أسلوبه ودعـوته ،متـمـثلاً بقـول الله (تعالىٰ): ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقد وصف نبـيه الكريم (ﷺ): ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمـران: ١٥٩]. فليقتـد الداعي المسلم برسـول الله (ﷺ)، وليكن شأنه ودَيْدنَه لمن يدعوهم، ويتـحمل صدور أي أذىٰ منهم.

٤ـ الاستعداد للبذل والتضحية بكل شيء:

نجد أن الفقـيه عبد الله بن ياسين (رحـمه الله) بذل نفسه ومـاله ووقته وحـياته، وكل شـيء في سبـيل الغـاية التي خـرج من أجلهـا إلىٰ قبـائل صنهاجة، وقد أيقن هذا الداعية الرباني أنه ليس في الـدنيا جهاد لا تضحية معه، إنما هو الأجر الجزيل، والثواب الجميل.

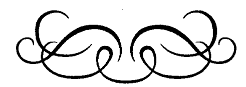
إن المسلم عندما يـبذل ما في وسـعه من أجل دعوته ورضـا ربه يرجو بذلك أعظم الدرجات عند الله، والفوز والخلود والنعيم المقيم بالجنة، وأعظم من ذلك إحلال رضـوان الله عليه، قـال (تعالىٰ): ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَـرُوا

وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ۞ يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُم بِرَحْمَةٍ مِّنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَّهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُّقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٠، ٢١].

إن الذين ضحوا وبذلوا وجاهدوا، استطاعوا أن يغيروا مجرى التاريخ، ويبذلوا أفكار ومبادئ البشر الأرضية بمبادئ سامية ربانية.

فينبغي على العاملين في مجال الدعوة الإسلامية أن يجردوا أنفسهم من الهوى، وينفضوا أنفسهم من كل بهرج وزينة، وأن يبذلوا المال برضاء وسخاء، ويبذلوا العافية والصحة والسهر والتعب، والمسير المضني، لرفع دعوة الله، وإذا دعت الحاجة إلى بذل الروح فلا يضنون بها، بل يجعلونها رخيصة بجانب مغفرته ورحمته ورضوانه وجنته[1].

لقد تعمَّدت الإسهاب في ذكر الصفات اللازمة في الشخصية التي تربي أمة وتنشئ شعبًا وتبني دولة، لعل الله ينفعنا بالدراسة التحليلية للشخصيات الربانية التي ظهرت في أمتنا العظيمة.



(١) انظر: الصفات اللازمة للدعاة إلى الله، ص (٧٤ وما بعدها).



المبحث الخامس

المراحل التي مر بها ابن ياسين في دعوته

نستطيع أن نقرر من الاستقراء التاريخي لسيرته أنه مرَّ بعدة مراحل قبل أن تقوم دولة المـرابطين، وبعض المراحل عاصـرها وأشرف عليهـا وبعضـها الآخر قام بها أتباعه المخلصون.

أما المراحـل التي مرت بهـا دولة المرابطين قبل قـيامـها ،فهي مـرحلة التعـريف والتكوين والتنفيذ، أمـا مرحلة التمكين فـهي التي أصبحت فيـها ملامح دولة المرابطين واضحة للعيان.

إن المراحل التي عاصـرها وأشرف عليـها بنفسـه هي مرحلة التـعريف والتكوين وجزء من التنفيذ، أما بقية المعـارك فقام بها تلاميذه المخلصون من أمثال أبي بكر بن عمر، يوسف بن تاشفين، وأما صاحب الفضل - بعد الله (تعالى) - في مرحلة التـمكين والتوسع والانتشار الفـعلي، فهو يوسف بن تاشفـين منقذ الأندلس من الضـياع ومبـيد الحـركات الكفـرية البدعـية من الوجود.

١ ـ مرحلة الدعوة والتعريف بالإسلام:

قام ابـن ياسين في هذه المرحلة بتعـريف الناس بالعـقيـدة الإسلامـية الصحيحـة؛ موضحا لهم أركان الإيمان الستة: «الإيمان بالله وملائكتـه وكتبه ورسله، واليـوم الآخـر، وقـضـائه وقدره» عـلى أصول مـنهج أهل السنة والجماعة، واهتم بتنقية العقيـدة الإسلامية من الملوثات الشركية والوثنية التي خالطت عقائد الملثمين في تلك الفترة.

واهتم بتعليم الناس الصلاة والزكاة وأحكام الـصيام ،حيث وجدهم لا يعرفـون من الإسلام إلا اسـمه، وحارب العـادات السيئـة التي تصطدم مع

ثوابت الدين، من زنا وزواج بـأكثـر من أربع، وغـيـر ذلك من الأعـراف والتقاليد الممـزوجة بالجهل والتخلف والضلال، وبذل جـهدًا في بيان أصول الإسلام للناس ،وحـاول جاهدًا أن يربطهم بالكتاب والسنة وإجـماع الأمة، وأوضح للناس ضرورة الالتزام بالسنة وأنها هي المبينة للقرآن الكريم، بل هي شرح وتفـصيل للقرآن العظيم، وعـمل على تفسيـر نصوص الدين بأسلوب يلائم عقول الملثـمين، وأزال الشبهات التي تعلقت بأذهـان الناس من قبائل صنهاجـة ،وكان همُّـه جمع الناس على الإسـلام ومبادئه والعـمل به على العموم.

ودعا الناس جميعًا إلى محبة كل أعمال الخير وكراهية كل أنواع الشر.

ونستطيع أن نقول: إن هذه المرحلة في دعـوة ابن ياسين كانت انطلاقًا من قوله (تعالى): ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٥١].

وهذه الآية حدد الله بها وظيفة النبي (ﷺ) وواجبه، وكذلك الدعاة من أمته من بعده.

حيث نجـد الداعيـة الفقيـة ابن ياسين سلك في دعـوته هذه الأمور أو الوظائف أو الواجبات وهي:

١ ـ تبليغ وحي الله إلى الناس، وذلك في قوله (تعالى): ﴿يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا...﴾.

٢ ـ تزكية نفوس الناس وتطهيرها وتنميتها بالخيرات والبركات في الدنيا والآخرة، بحيث يصير الإنسان في الدنيا مـستحقًا للأوصاف المحمودة، وفي الآخرة الأجر والمثوبة وذلك في قوله (سبحانه وتعالى): ﴿وَيُزَكِّيكُمْ﴾.

فـالداعيـة إلى الله يطهـر نفـوس الناس بوحي الله، وينمي أرواحـهم

وأقوالهـم وأبدانهم، ويرتفع بهم إلى المستوى الذي يليق بكرامة الإنسان، الذي كرَّمه ربه وفضَّله على كثير ممن خلق.

٣ ـ التعليم، تعليم الناس العلم النافع، أي القرآن والحكمة، وذلك في قوله (سبحانه) من هذه الآية: ﴿وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾.

فهو واجب النبي (ﷺ)، وواجب الدعاة إلى الله إلى يوم الدين، و«الكتاب» هو القرآن الكريم، وهو هدى للناس؛ كل الناس، إذ ما من خير للبشرية في دينها ودنياها إلا أمر به القرآن، وما من شيء من هذا وذاك إلا اشتمل عليه القرآن: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ و ﴿وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ و﴿تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾.

وقد سُمي القرآن الكريم قرآنًا من بين كتب الله؛ لأنه جمع ثمرة هذه الكتب كلها، بل جمع ثمرة العلوم والمعارف كلها، إذا القرآن معناه الجمع والإثبات.

والحكمة هي:

إصابة الحق بالعلم والعقل، ولها معان، فهي من الله (سبحانه): معرفة الأشياء وإيجادها، على غاية ما يكون الإحكام، ومن الإنسان: معرفة الموجودات، والعلم بها، وفعل الخيرات. و«الكتاب والحكمة» بهذه المعاني هما: تنوير الأذهان بما تفتقر إليه من هدايات في عالمي الغيب والشهادة، وكم كانت قبائل صنهاجة محتاجة لهذه الهدايات التي أصلحت اعتقادها وتصورها ومنهجها، وأصبحت قبائل تحمل أهم رسالة ودعوة ربانية، بفضل الله عليها ثم بجهود المخلصين من أمثال الفقيه ابن ياسين.

٤ ـ واجتهد ابن ياسين (رحمه الله) في نقل الناس من ضلال الباطل إلى طريق الحق، ومن ظلام الجهل إلى نور العلم، مسترشدًا بقول الله

(تعــالىٰ): ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُون﴾ أي يبصركم بحــاضركم، ويرسم لكم أسلم طريق لمستقبلكم.

كان أثر التـربية القرآنيـة واضحًا في شخـصية ابن ياسين (رحـمه الله) حيث نجـده في تبليغ رسالات الله لا يُداهن ولا يُجـامل، بل يأخذ بجـميع الأخلاق الشرعية، ويتوكل علىٰ الله في الصدع بكلمة الحق، وكأن بين عينيه قول الله (تعــالىٰ): ﴿ الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب: ٣٩].

وكان يشعر في قرارة نفسه بالإثم والمعـصية إن قعد وكتم ما علمه الله (سبحانه وتعالىٰ) وهذا من أثر القرآن في نفسه حيث قال (تعالىٰ): ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ﴾ [البقرة : ١٥٩].

والآية واضحة في بـيان أن من عرف الحق، فقد وجب عليـه أن يُبينه للناس، ومن لم يفعل فقد أثم.

إننا محـتاجون بأن نتربىٰ علىٰ آيات الله، لنـفهمهـا ثم لننطلق في دنيا الناس عامـلين بها ابتغـاء مرضـاة الله، وطمعًـا في ثوابه ورغبة فـي جنته، وخوفًا من عقابه وشفقة من ناره.

نعىٰ الله (تعالىٰ) في كتابه العزيز علىٰ أهل الكتاب عدم بيانهم لأحكام الله للناس، وكتمانها مقابل ثمن قليل من متاع الدنيا.

فقال (تعالىٰ): ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴾ [آل عمران: ١٨٧].

وهكذا يا أخي الكريم نجد القرآن الكريم في تربيتـه للدعاة إليه يرغبهم ويرهبهم، فتنطلق القلوب تسعىٰ للمـثوبة والدرجات العلىٰ؛ لأن ما عند الله

خير وأبقى.

كما نجد الأحاديث النبوية التي تربى عليها ابن ياسين وتلاميذه مشجعة لهم في السعي الدؤوب من أجل إكمال مرحلة التعريف بنجاح.

فإن السنة النبوية المطهرة شارحة القرآن قد فاضت بالأحاديث في هذا المجال.

روى الإمام البخاري بسنده، عن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما)، في باب: تعريف النبي (ﷺ) وفد عبد قيس على أن يحفظوا الإيمان، والعلم، ويخبروا من وراءهم، قال مالك بن الحويرث ـ وهو من بني عبد القيس: قال لنا النبي (ﷺ): «ارجعوا إلى أهليكم فعلِّموهم».

عن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال النبي (ﷺ) لما قدم إليه، وفد عبد القيس: «من الوفد،- أو من القوم؟» قالوا: ربيعة، قال: «مرحبًا بالقوم- أو الوفد- غير خزايًا ولا ندامى»، قالوا: إنا نأتيك من شقة بعيدة، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضر، ولا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام، فمُرنَا بأمر نخبر به من وراءنا ندخل به الجنة، فأمرهم بأربع ونهاهم عن أربع: أمرهم بالإيمان بالله (عز وجل) وحده، قال: «هل تدرون ما الإيمان بالله وحده؟» قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وتعطوا الخمس من المغنم».

ونهاهم عن الدباء والحنتم والمزفت، قال شعبة: ربما قال: «النقير» وربما قال: «المقير» قال: «احفظوه وأخبروه مَن وراءكم»[1].

وهذا الحديث النبوي الشريف نهج للقوم لمعرفة أصول الدعوة في

---

(١) مسلم: كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله(تعالى) ورسوله، (١/٤٦) رقم (١٧).

مرحلة التعريف ومعالجة الأمراض بالمجتمع، حيث كانت عادة شرب الخمر قد انتشرت في ربوع هؤلاء القوم انتشار النار في الهشيم، ولذلك نهاهم رسول الله (ﷺ) عن الدباء والحنتم والمزفت ،التي كانت عبارة عن أوانٍ لشرب الخمر، ومن مثل هذا الحديث يستلهم الدعاة أولويات مرحلة التعريف في الدعوة إلى الله (تعالى)، وغيره من الأحاديث الكثيرة والإرشادات النبوية الكريمة.

استمرّ الفقيه ابن ياسين في تعريف الناس بأصول دينهم وأحكامه والأخلاق التي تطلبها شريعتهم ،وحارب التقاليد والأعراف السيئة بكل شجاعة وجرأة.

إلا أن الله (تعالى) ابتلاه بقوم غلاظ الأكباد قساة القلوب ،فاصطدمت دعوة المصلح الفقيه بأطماعهم؛ فتعرَّض للتضييق والشدة والعسف من بعض وجهاء قبائل صنهاجة من قبيلة جدالة، وحاولوا قتله إلا أن الله نجاه مهنم.

فأشار الأمير المخلص والتلميذ الوفي يَحْيَى بن إبراهيم على ابن ياسين أن يذهبوا إلى جزيرة في حوض السنغال ليتربى الأتباع فيها ابتغاء مرضاة الله والدار الآخرة.

وقال له: إن الجزيرة إذا حسر البحر دخلنا إليها على أقدامنا، وإذا ملأ دخلنا في الزوارق، وفيها الحلال المحض الذي لا تشك فيه من الشجر البرية وصيد البر والبحر من أصناف الطير والوحوش والحوت[1].

وبذلك يكون ابن ياسين (رحمه الله) ترك ديار المُلثَّمين واختار جزيرة في حوض نهر السنغال للمرابطة وتربية المريدين على كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ)، بعد أن ترك صدىً ودويًا لدعوته في ديار الملثمين، وبذلك قرر ابن

(١) انظر: دولة المرابطين، ص (٢٣).

ياسين أن ينتقل إلى مرحلة التكوين مختارًا مكانًا مناسبًا لهذه المرحلة المهمة في تاريخ دولة المرابطين ،بعد أن نجح في مرحلة التعريف في إبلاغ الدعوة والتعريف بها لهم.

ب- مرحلة اختيار العناصر التي تحمل الدعوة عند الفقيه ابن ياسين:

تمهيد:

اشتهر في تاريخ المرابطين ما يسمى برباط ابن ياسين، وقبل أن نتعرض لرباط ابن ياسين الذي اتخذه في مرحلة التكوين أرى من باب الفائدة للقارئ الكريم أن يأخذ فكرة مختصرة عن معنى الرباط في الإسلام.

الرباط:

الرباط حصن حربي يقام في الثغور المواجهة للعدو للذود عن ديار المسلمين، وهذه التسمية مقتبسة من القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة.

أما القرآن الكريم فمن قوله (تعالى): ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ**﴾ [الأنفال: ٦٠] ومن قوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**﴾ [آل عمران: ٢٠٠].

وفي الحديث النبوي في البخاري جاء فضل الرباط في سبيل الله (تعالى) عن سهل بن سعد الساعدي (رضي الله عنه)، أن رسول الله (ﷺ) قال: «**رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، وموضع سوط أحدكم من الجنة خير من الدنيا وما عليها، والروحة يروحها العبد في سبيل الله أو الغدوة خير من الدنيا وما عليها**»[(١)].

وأصبحت كلمة مرابط تطلق على الشخص الذي خرج إلى الثغور للدفاع عن المسلمين من أعدائهم ، وأطلق المسلمون على الثغر -أي المحل

---

(١) رواه البخاري في كتاب الجهاد والسير (ج٣/ ٢٩٥)، حديث رقم (٢٨٩٢).

الذي يقيمون فيه- اسم الرباط .

ويحتوي الرباط على برج مراقبة وحصن صغير، وقد أقام ولاة الثغور كثيراً من هذه الرُّبُط لحماية حدود الدولة الإسلامية على مر التاريخ، فكان في بلاد ما وراء النهر عشرة آلاف رباط، وكذلك في ثغور الجزيرة الفراتية، وكانت سواحل المغرب المطلة على البحر المتوسط عرضة لغارات البيزنطيين أكثر من غيرها فأقيمت فيها الرُّبُط وشحنت بالمجاهدين للدفاع عنها، حتى إن الصحابي الجليل عقبة بن نافع الفهري عندما أراد بناء مدينة القيروان بلغت الحماسة برجاله فاقترحوا عليه إقامتها على الساحل للمرابطة فيها، وقالوا له: قرِّبها من البحر ليكون أهلها من المرابطين»[1] .

وقد توسعت الرُّبُط في عهد العباسيين، وبنى الوالي العباسي هرثمة بن أعين أول رباط في إفريقية عام (١٧٩ هـ/ ٧٩٥ م)[2] وتوسع الأغالبة في المجال توسعًا عظيمًا، وأقام الوالي زيادة الله الأغلبي رباط سوسة عام (٢٠٦هـ/ ٨٢٢ م).

وكان الأغالبة يسمون هذه الرُّبُط بالقصور والمحاريس، وقد انتشرت من الإسكندرية إلى المحيط الأطلسي، وكان أهالي الشمال الإفريقي يلجؤون إليها إذا داهمهم الغزاة، وقد قاومت هذه الثغور أساطيل وجيوش البيزنطيين الذين عجزوا رغم تفوقهم البحري عن احتلال الساحل الإفريقي، وقد التزم المقيمون في هذه الثغور بالاهتمام بالفروسية والتدريب عليها خاصة، بالإضافة إلى كل التدريبات الجهادية الأخرى التي أهَّلتهم للقيام بمهماتهم على أكمل وجه من الذود عن حياض المسلمين والجهاد في سبيل الله.

(١) انظر: المالكي، رياض النفوس، ص (٦).
(٢) دائرة المعارف الإسلامية مادة رباط، ص (١٩).

وإلى جانب المهمات الجهادية التي قامت بها الثغور فقد اهتمت بالناحية العلمية، فمع انتشارها أخذت التعاليم الإسلامية تنتشر من خلالها، وقد قام فقهاء أهل السنة والجماعة في تلك الثغور من فقهاء المالكية بدور ريادي عظيم في وجه التيارات الفكرية والمذهبية التي عصفت بالمشرق، وكانت الرُّبُط والثغور والقلاع والحصون هي المنطلق لنشر ما كان عليه رسول الله (ﷺ) وأصحابه من عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملة، وأصبحت الثغور في الشمال الإفريقي مدارس علمية تدرس أمور الدين من فقه وحديث وتفسير وأصول وغيرها، وكانت حياة أهل الثغور تقوم على أساس من التعاون بين أفرادها لتحقيق حياة إسلامية مثالية، وكان الأفراد يجمعون المؤن بأنفسهم عن طريق الصيد البري والبحري حسب موقع الرباط، وكذلك يقومون بإعداد الطعام، وكل ما تتطلبه عمليات التموين من زراعة وصناعة آلاتها بالإضافة إلى صناعة الأسلحة[1].

(ﷺ) وأصحابه من عقيدة وعبادة وأخلاق ومعاملة، وأصبحت الثغور في الشمال الإفريقي مدارس علمية تدرس أمور الدين من فقه وحديث وتفسير وأصول وغيرها، وكانت حياة أهل الثغور تقوم على أساس من التعاون بين أفرادها لتحقيق حياة إسلامية مثالية، وكان الأفراد يجمعون المؤن بأنفسهم عن طريق الصيد البري والبحري حسب موقع الرباط، وكذلك يقومون بإعداد الطعام، وكل ما تتطلبه عمليات التموين من زراعة وصناعة آلاتها بالإضافة إلى صناعة الأسلحة[1].

وأما من ناحية العبادة، فالجماعة التي التزمت بالرباط مؤمنة بربها وبرسالة الإسلام، فكانت العبادة تقتصر على الصلوات الخمس جماعة، وقد وضعت عقوبات لمن تأخر عنها.

وفي أوقات السلم كانوا يحفظون القرآن وتفسيره وكل ما يمت إلى الدين بصلة، ويقومون بالمهمات التي تتعلق بحياة الرباط، وبما إن التبشير بهذا الدين والدعوة إليه من أهم واجباتهم؛ فكانوا يخرجون إلى القبائل لهدايتها وترغيبها في الإسلام وتربيتها عليه، وقد أدت الثغور في الشمال الإفريقي خدمات جليلة للإسلام وللمسلمين، فقد عصمت أهل المغرب إلى حد كبير من الفتن التي سادت المشرق، وكان لمنهج أهل السنة والجماعة شوكة وحماة وعلماء وفقهاء في تلك الربوع من عالمنا الإسلامي، وتميَّز أهل الثغور عن غيرهم بالزهد والتقشف والتفاني في سبيل الله، ولا يبتغي أهلها من الناس من وراء ذلك جزاء ولا شكورًا، وإنما لسان حالهم: ﴿إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا﴾[2].

---

(١) انظر: دولة المرابطين، ص (٢٤، ٢٥).

(٢) انظر: دولة المرابطين، ص (٢٧).

١ - رباط عبد الله بن ياسين:

أقام الفقيه العالم الربَّاني المربي المجاهد ابن ياسين رباطه في الحوض الأدنى لنهر السنغال، وموقعه يدل على أهداف ابن ياسين التي أعد لها، فهو يقع قريبًا من مملكة غانة الوثنية، لذلك فهو مهدد دائمًا بالأعداء، ولا بد للجماعة المقيمة فيه من الجهاد، وهو غير بعيد عن ديار الملثمين، فيستند إليهم في حالات الخطر، وتشكل تلك الديار موردًا بشريًا لا ينضب لمن يريد الانضمام إليه، وهذا يفسر كثرة عدد رجاله.

دخل ابن ياسين الجزيرة التي في الحوض الأدنى لنهر السنغال عام (٤٣٣ هـ/ ١٠٤٠ م) ومعه أتباعه المخلصون، ثم بدأ الانضمام إلى جماعته من أبناء الملثمين، وتكاثر عدده حتى بلغ الألف رجل، ولما كثر أتباعه، وضع ابن ياسين شروطًا رآها لازمة لكي لا يتأثر تنظيم رباطه الجديد ومرحلته التي بدأ الشروع فيها، فكان ينتقي أطهر الملثمين نفسًا وأوفرهم قوة وأقدرهم على تحمل المشاق، كان يطلب منهم أن يتخلوا عن تقاليدهم وأعرافهم وتصوراتهم التي تخالف الإسلام، ويدخلوا الإسلام بقلوب صافية ونفوس طاهرة وهمم عالية تسعى لتحكيم شرع الله على وجه المعمورة[1].

وعمل جاهدًا على تحكيم شرع الله على الأفراد وفي مجتمعه الجديد، وكان يرى : إن من فاتته صلاة من عمره عليه أن يقضيها، وهي مسألة فقهية اختلف علماء الأمة فيها، فمنهم من يكتفي بالتوبة النصوح، ومنهم من يطلب قضاء ما فات.

وكان ابن ياسين يهتم اهتمامًا بالغًا بالفقهاء والعلماء ويرفعهم إلى مراتب عالية، حيث التف حوله مجموعة من الفقهاء والعلماء ليساعدوه

---

(١) انظر: دولة المرابطين، ص (٢٧، ٢٨).

على تربية الناس وتعليمهم وتأهيلهم للمرحلة القادمة.

وكان لا يمنعه الحياء من طرد من لا يراه مناسبًا لهدفه المنشود.

وكان أهل الرباط في قمة من الصفاء الروحي، ويعيشون حياة مثالية في رباطهم، فيتعاونون على قوتهم اليومي معتمدين على ما توفره لهم جزيرتهم من الصيد البحري، يقنعون بالقليل من الطعام، ويرتدون الخشن من الثياب[1].

كان رباط السنغال الذي أسسه الداعية الرباني ابن ياسين منارة يشع نورُها وخيرها وعلمها في تلك الصحاري القاحلة، فأصبح قطبًا جذابًا عاملاً على جذب أبناء قبائل صنهاجة إليه، ووفر الأمن والاستقرار في تلك الديار الصحراوية البعيدة، فأصبحت القوافل تمر بأمن وسلام دون أن يتعرض لها أحد بسوء، وقد أدى ذلك إلى ازدهار التجارة.

وتميز ذلك الرباط بحسن إدارته وتنظيمه وتشكيله مما ساعد على قوة النواة الأولى لدولة المرابطين ،حيث تشكل مجلس الشورى، وجماعة للحل والعقد تطورت مع مرور الأيام، وأصبحت مرجعية عليا للملثمين.

٢ ـ أصول المنهجية العلمية والفقهية عند الفقيه ابن ياسين التي ربى عليها أتباعه:

يُعتبر الفقيه ابن ياسين من علماء أهل السنة والجماعة، مالكي المذهب، واستمد أصول فهمه من أصول المالكية التي كانت ـ ولا زالت ـ ضاربة بجذورها في قلوب أهالي الشمال الإفريقي، إلا أنه كانت له اجتهاداته الحركية والتنظيمية التي أملتها عليه طبيعة دعوته التي عاشها وتحرك بها، وبذلك نستطيع أن نقول عنه بأنه فقيه مالكي حركي، ويرى علماء

(١) المصدر السابق نفسه.

المالكيــة الذين تتلمذ ابن ياسين على كـتبهــم وفقههــم أن المذهب المالكي له أصول في الاستنباط واستخراج الأدلة الشرعية ومن هذه الأصول:

القرآن الكريم:

كان الإمام مالك يرى أن القرآن قد اشـتمل على كليات الشريعة، وأنَّه عمدة الدين، وآية الرسالة، ولم تكن نظرته إليه كنظرة الجدليين، فابتعد عن نظر المتكلمين: هل القـرآن لفظ ومعـنى، أو معنى فـقط، وهو عنده اللفظ والمعنى، كما هـو إجماع من يعتدُّ بهم من المسلـمين، ورُوي أنه كان يقول: إن من يقـول بإن القرآن مـخلوق فـهو زنديق يجب قـتله، ولذا لم يعـتبـر الترجمة قرآنا يُتلى تجوز به الصـلاة، بل هي تفسير أو وجه من وجوه المعنى المعقول، وهو يأخذ بنص القرآن، وظاهره ومفـهومه، ويعتبر العلة التي يأتي التنبيه عليها[1] .

إن القرآن الكريم هو المرجعية العليا لابن ياسين وأتـباعه وكان موقفهم الإذعان والتـسليم لكل مـا جاء فـيه، وما يتـعلق بالعـقائد أو العـبادات أو الأخلاق أو المعاملات، فالقرآن الكريم لم يفرق بينها، فكلها تتضمن كلمات الله الهادية إلى أقوم سبيل، الداعـية إلى كل هدى ورشد، والمحذرة من كل ضـلالة وغي، فكان وأتباعـه على بينة من ربهم وبـصيـرة من دينهم؛ فلم تتحير عقولهم أو ترتاب قلوبهم، أو يتردد عزمهم في أي تصور أو معتقد أو خُلُق أرشد إليه القرآن، لإيمانهم العميق بقوله (تعالى): ﴿لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وكان تدبر ابن ياسـين وفقهـاء المرابطين للقرآن الكريم معـينًا لهم على استنباط الأحكام الشرعية.

---

(١) انظر: تاريخ التشريع، مناع القطان، ص (٢٩١).

قال (تعالى): ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ [ص: ٢٩] وقال (تعالى): ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [النساء: ٨٢].

وقال (عز وجل): ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [محمد: ٢٤].

لقد فهم المرابطون أن القرآن الكريم لم ينزل ليُتلى على الأموات، بل نزل ليحكم الأحياء، وأنه لم ينزله الله (تعالى) إلا من أجل اتباعه والعمل به، وبذلك ينال المُتبع والعامل به رحمة الله (تعالى): ﴿وَهَٰذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥].

إن الله (تعالى) حدد في كتابه أهداف القرآن الكريم في الحياة والمجتمع في عبارات أبين من الشمس في رابعة النهار، فقال (تعالى): ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ [النساء: ١٠٥]، وقال (تعالى): ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَن كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ * يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [المائدة: ١٥، ١٦].

وقال (تعالى): ﴿إِنَّ هَٰذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا * وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإسراء: ٩، ١٠].

إن من أسباب قوة المرابطين وتوفيق الله لهم تمسكهم بكتاب الله.

المصدر الثاني: السنة النبوية:

اعتمد المرابطون وخصوصًا فقيههم الأكبر ابن ياسين على السنة النبوية في استنباط الأحكام الشرعية وألزموا أنفسهم وغيرهم بمنهج الله (تعالى).

والسنة عند المرابطين:

هي المنهج النبوي المفصل في تعاليم الإسلام وتطبيقه وتربية الأمة عليه، والذي يتجسد فيه قوله (تعالى): ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

ويتمثل ذلك في أقواله (ﷺ) وأفعاله وتقريراته.

فالقرآن:

هو الدستور الذي يحوي الأصول والقواعد الأساسية للإسلام وعقائده وعباداته، وأخلاقه، ومعاملاته، وآدابه.

والسنة: هي البيان النظري والتطبيق العملي للقرآن في ذلك كله.

ورأى علماء المرابطين وجوب اتباع الرسول (ﷺ) في أقواله وأفعاله وتقريراته مستندين بقوله (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ [النساء: ٥٩].

وجعل طاعته طاعة الله (تعالى): ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وجعل (سبحانه وتعالى) طاعته الاهتداء: ﴿وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور: ٥٤].

وجعل (سبحانه وتعالى) اتباع النبي دليلاً على محبة الله ومغفرته: ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾ [آل عمران: ٣١].

وأمرهم باتباعه فيما أمر ونهى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا﴾ [الحشر: ٧].

وأمرهم بالاستجابة لدعوته، واعتبر ما يدعوهم إليه هو الحياة: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ [الأنفال: ٢٤].

ولم يجعل لمؤمن ولا مؤمنة خيارًا في قبول حُكمه: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِينًا﴾ [الأحزاب: ٣٦].

وأقسم على نفي الإيمان عمَّن أعرض عن تحكيمه، أو لم يقبل حكمه راضيًا مسلمًا: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وجعل (سبحانه وتعالى) قبول حُكمه أو التولي عنه المحك الذي يميز الإيمان من النفاق؛ قال (تعالى): ﴿وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَمَا أُولَٰئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ ۞ وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ﴾ [النور: ٤٧، ٤٨].

﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٥١].

وحث على الاقتداء بالنبي (ﷺ): ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٢١].

ودلت أحاديث كثيرة على وجوب اتباع النبي (ﷺ)، ولذلك سعى المرابطون لتحقيقها في حياتهم، ومن ذلك ما رواه أبو هريرة أن النبي (ﷺ) قال: «كلُّ أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى»، قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة، ومن عصاني فقد أبى»(١).

من ذلك ما رواه العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله (ﷺ)

(١) أخرجه البخاري (٧٢٨٠).

موعظة وجلت منها القلوب، وذرفت منها العيون، فقلنا: يا رسول الله، كأنها موعظة مودع، فأوصنا، قال: «**أوصيكم بتقوى الله، والسمع والطاعة، وإن تأمَّر عليكم عبد، وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين عضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومُحدثات الأمر، فإن كل بدعة ضلالة**»[1].

إن قبائل صنهاجة الذين عرفوا بالملثمين ثم أُطلق عليهم اسم المرابطين ظهرت آثار التزامهم بسنة النبي (ﷺ) في كل مناشط حياتهم في التعلم والتزكية والجهاد والسياسة وغيرها من الأمور التي كوَّنوا بها دولتهم المعروفة.

المصدر الثالث: عمل أهل المدينة:

الذي اهتمت به المدرسة المالكية المغربية السنية عمومًا عمل أهل المدينة حيث إنها دار الهجرة، وبها تنزل القرآن، وأقام رسول الله (ﷺ) ومعه أصحابه بها، وأهل المدينة أعرف الناس بالتنزيل، وبما كان من بيان رسول الله (ﷺ)، على هذا رأى المالكيُّون إن عملهم بالاقتداء بعلماء أهل المدينة في أقوالهم وأفعالهم حجة، وقدَّموا ذلك على القياس، وعلى خبر الواحد، وفي كتاب الإمام مالك إلى الليث بن سعد الفقيه المصري: «إن الناس تبع لأهل المدينة، التي إليها كانت الهجرة، وبها تنزَّل القرآن»[2].

وسار فقاء الدولة المرابطية وعلى رأسهم الفقيه عبد الله بن ياسين على هذا الطريق ولم يُغيِّروا أويُبدِّلُوا أو يرضوا بغيره حولاً.

---

(١) أخرجه أبو داود (٤٦٠٧)، والترمذي (٢٦٧٦).

(٢) انظر: تاريخ التشريع الإسلامي، ص (٢٩١، ٢٩٢).

المصدر الرابع: قول الصحابي:

جعل المالكية قول الصحابي الذي لا يُعرف له مخالف حجة، واعتمدوا في ذلك على ما ذكر الإمام مالك في «الموطأ» حيث اعتمد في كثير من فتاويه على العديد من أقوال الصحّابة الذين هم أعلم بالتأويل وأعرف بالمقاصد.

وحين تتعدد أقوال الصحابة في المسألة الواحدة يختار علماء المالكية من أقوالهم ما يتفق مع عمل أهل المدينة.

المصدر الخامس: المصالح المرسلة:

اعتبر المالكية المصالح المرسلة دليلاً شرعيًا ومارسوها ممارسة عملية في الحياة، وأصّلوا لها أصولاً في جلب المنفعة، ودفع المفسدة، وقاسوا بهذه القواعد الأمور التي لم يشهد لها الشرع بإبطال ولا باعتبار مُعين، لأن تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق، والمقاصد إما ضرورية أو حاجية، أو تحسينية.

والضرورية: هي التي لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا في الضروريات الخمس في الملل جميعًا وهي: حفظ الدين، والنفس، والنسل، والمال، والعقل.

والحاجية: هي التي تؤدي إلى رفع الضيق والحرج والمشقة.

والتحسينية: هي المتعلقة بمكارم الأخلاق ،وكون هذه المعاني مقصودة عرُف بأدلة كثيرة لا حصر لها من الكتاب والسنة، مما يدل على مقاصد الشرع، ولذا ذهب المالكية إلى المصلحة تكون حجة، ويعتبر بعض الباحثين القول بالمصلحة من خصوصيات مذهب المالكية.

المصدر السادس: القياس:

وهو من أصول المنهجية العلمية التي سار عليها ابن ياسين وربى عليها أتباعه.

المصدر السابع: سد الذرائع:

سار عليه ابن ياسين في منهجه العلمي في تأصـيل أصول فقه مذهبه، وسار على نهج فـقهاء المالكية في الاقـتداء بالإمام مالك (رحـمه الله) الذي أكثر إكثارًا شديدًا من العمل بسـد الذرائع، حتى اعتبر بعض العلماء العمل بها من خصوصيات مذهبه ،حتى وصفه الشاطبي بأنه كان شديد المبالغة في سد الذرائع[1].

ج- مرحلة المغالبة التي قام بها ابن ياسين:

بعـد أن قطع ابن ياسين بأصحـابه وأتبـاعه مـرحلة التكوين العقـدي والفقهي والحركي والتنظيمي والتربوي، وأصبح مـعه رجال يُعتمد عليهم في تبليغ دعوة الله ،على فهم صحيح لكتاب الله، وفقه واسع لسنة نبيه (ﷺ)، ورغّبـهم في ثواب الله (تعـالى)، وطلب مرضـاته، وخوّفـهم من عقـابه، وتمكن حُب الاتباع من قائدهم العالم الفقـيه، بدأ ابن ياسين بإرسال البعوث إلى القـبائل، لتـرغـيب الناس في الإسـلام، فلبّى مجـمـوعة من أشـراف صنهاجة هذه الدعوة المحكمة والتفوا حوله.

ثم أمر ابن ياسين أتبـاعه وتلاميـذه أن يذهب كل منهم إلى قبـيلته أو عشيرته يدعـوهم إلى العمل بأحكام الله وسنة نبيه (ﷺ)، فلما لـم يجدوا استجابة من أقـوامهم، خرج إليهم بنفسه، فجمع أشـياخ القبائل، ووعظهم وحذرهم عقـاب الله، واستمر في ذلك سـبعة أيام، فلم يزدادوا إلا فـسقًا، فلما يئس منهم أعلن الجهاد عليهم[2].

تحركت جموع المرابطين أولاً صوب قبيلة جدالة، حيث اشتبكوا معهم

---

(١) انظر التشريع والفقه في الإسلام، مناع القطان، ص (٢٩٤).

(٢) انظر: ابن أبي زرع، روض القرطاس، ص (٨٥).

في معـركة شرسـة وأوقعوا بهم الهـزيمة، وقتلوا منهم خلقًـا كثيـرًا، وانقاد البـاقون لأحكام الإسـلام، ثم سـار ابن ياسين إلى قبـيلة لمتـونة ،فقـاتلهم وانتصـر عليهم، ودخلوا في طاعة ابـن ياسين، وبايعوه على إقامـة الكتاب والسنة، ثم مضى إلى قبيلة مسـوفة التي دخلت تحت لوائه ،وبايعوه على ما بايعته قبائل جدالة ولمتونة، فلما شهدت قبائل صنهاجة هذه الأحداث بادرت إلى مـبايعـة ابن ياسين على بذل الطاعـة له، وقلَّدتهـا كثـيـر من القبـائل الصحراوية في ذلك[1].

ووضع ابن ياسين خطة شاملة تركزت عـلى توزيع النابغين من تلاميذه على القبائل التي دخلت في دعوته ليـعلموها القرآن وشرائع الإسلام، وبدأ ابن ياسين في تخطيط الدَولَة التي شرع لتأسيسـها على أسس شرعية ربَّانية، وفي ظني أن الذي أسس الدولة المرابطيـة فعليًا ونفذ أحـكامها الشرعـية هو يوسف بن تاشفين، وهذا ما يتضح من خلال دراسة هذه الدولة البهية، ولما تُوفي الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي، قـدَّم ابن ياسين مكانه يحيى بن عمر اللمتـوني وكان من أهل الدين والفضل، كمـا كان منقادًا في جمـيع أموره لإمامه ابن ياسين[2].

وبذلك أصبحت القبائل الصنهاجيـة في المغرب الأقصى لها قيادة دينية وسياسـية ومجالس شورى تُدبِّر دفـتها وحركتـها، فتطلعت لتوحـيد المغرب الأقصى كله وإزالة كل عائق يمنعها من تحكيم شرع ربها.

الوضع السياسي في المغرب الأقصى عند ظهور المرابطين:

كان المغرب الأقصى في أوائل القرن الخامس الهجري في محنة سياسية

(١) انظر: تاريخ المغرب والأندلس، د. حمدي عبد المنعم، ص (٤١).

(٢) انظر: دولة المرابطين، ص (٣١).

ودينية، حيث ظهرت دعوات منحرفة عن الإسلام وحقيقته وجوهره الأصيل، واستطاعت بعض الدعوات البدعية الكفرية أن تُشكل كيانًا سياسيًا تحتمي به، وأصبح المغرب الأقصى شبيهًا بالأندلس في زمن ملوك الطوائف، وكانت الطوائف التي سادت المغرب قبيل وصول المرابطين تتكون من أربع شوكات قوية لها وزنها في المغرب الأقصى:

أولاً: قبائل غمارة في الشمال.

ثانيًا: قبائل برغواطة في المغرب.

ثالثًا: قبائل زناتة وكانت تكون نطاقًا حول الطوائف السابقة لا سيما برغواطة.

رابعًا: طوائف الشيعة والرافضة والوثنيين في الجنوب.

١ـ الطائفة الأولى: قبائل غمارة:

كانت تسكن جبال الرِّيف الممتدة من ناحية البحر المتوسط ،من سبتة وطنجة غربًا، إلى وادي نكور بالقرب من المزمة أو الحُسَيّمة الحالية شرقًا، وتمتد بلادهم جنوبًا إلى قرب فاس، وكانت غمارة بطنًا من بطون مصمودة وظهر فيها مشعوذون، وقصدتهم الخوارج للمنعة في جبالهم، ووصفهم المؤرخون من أمثال ابن خلدون وغيره بأنهم: «عريقون في الجاهلية؛ بل الجهالة، والبعد عن الشرائع بالبداوة والانتباذ عن مواطن الخير، وتَنَبَّأ فيهم إنسان يعرف حاميم بن من الله، ولقب بالمفتري، وفي رواية بالمقتدي ـ ولعلها هي الأصل ثم حُرفت إلى المفتري ـ والجبل الذي تنبأ فيه يُنسب إليه، وهو جبل على مقربة من تطوان، وأجابه بشر كثير من غمارة وأقروا بنبوته، ووضع لهم شريعة استهواهم برخصها، فرد لهم الصلاة صلاتين عند طلوع الشمس وعند غروبها، ووضع لهم قرآنًا بلسانهم «أي البربري»، ومن

تعـاليـمـه :أنه أحلَّ لـهم أكل أنثى الخنزير، وأسـقط عنـهم الحج والطهـر والوضـوء، وحرم عـليهم الحـوت حـتى يُذكى، وحـرم بيض كل طائر.. إلخ»[١].

وقـد قـتل هذا المشـعوذ الزنـديق في النصف الأول من القـرن الرابع الهجري في طنـجة في حروبه مع قبائل مـصمودة الساحليـة على حد قول البكري وابن خلدون، أو في حروبه مع جيوش الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر على حد قول صاحب «الاستبصار»، وصاحب «مفاخر البربر»[٢].

واستمرت البدع الكفرية بالرغم مـن موت المتنبي المشعوذ، وظهر أحد أبنائه ويُدعى عيسى وكان مُـبجَّلاً في قومه، وكانت قبائل غـمارة غارقة في الإباحـية بين النسـاء والرجـال، وكان رجـالهم يربون شـعـورهم كالنسـاء ويتخذونها ضفائر ويطيبونها ويتعممون بها... إلخ[٣].

٢ـ الطائفة البرغواطية:

كونت هذه الطائفة الكافرة دولة لها فـي القرن الثاني للهجرة في إقليم تامسنا أو ما يُسمى اليوم بالشاوية[٤]، وكانت دولتهم تمتدُ من الرباط الحالية وتمتد إلى ثغـر فضالة الذي كان قـاعدة لأسطولها، وتنتـهي عند بلدة أزمور عند مصب وادي أم الربيع.

ونجد أن المؤرخين اختلفـوا حول اسم برغواطة، فبـعضهم يرى بأنه لم يكن اسمًـا لقبيلة مُعـينة يجمعهـا أصل واحد أو أب واحد ،بل كان اسـمًا

---

(١) انظر: الاستبصار في عجائب الأمصار، لمؤلف مجهول، ص (١٩٠).

(٢) انظر: الاستبصار، ص (١٩١، ١٩٢)، ومفاخر البربر، ص (٧٧).

(٣) انظر: في تاريخ المغرب والأندلس،د. العبادي، ص (٢٧٨).

(٤) المصدر السابق، ص (٢٧٩).

لأخلاط من البربر اجتمعوا على شخص يهودي الأصل، ادَّعى النبوة، اسمه صالح بن طريف بن شمعون البرباطي، نسبة إلى وادي البرباط في جنوب الأندلس؛ فصارت كلمة برباطي تُطلق على كل من اعتنق ديانته، ثم حُرِّفت إلى برغواطي[١].

ويرى ابن خلدون بأن برغواطة قبيلة من المصامدة وأن ملوكها كانوا من مصامدة المغرب[٢].

ومن عقائد هذه الطائفة الضالة: اعتقادهم بأن صالح بن طريف هو المقصود بقوله (تعالى) في سورة التحريم: ﴿وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ﴾ [التحريم: ٤]، وزعم زعيمهم أنه المهدي الأكبر الذي يخرج في آخر الزمان لقتال المسيح الدجال، وأن عيسى ابن مريم يكون من أصحابه ويُصلي خلفه.

وشرع لأتباعه صوم رجب، والأكل في رمضان، وفي الوضوء غسل السرة والخاصرتين بالإضافة إلى طريقة الوضوء عند المسلمين، وفرض عليهم خمس صلوات في النهار وخمس صلوات في الليل، وبعض صلواتهم إيماء بلا سجود، وبعضها على كيفية صلاة المسلمين، وعند ابتداء الصلاة يضع الفرد إحدى يديه على الأخرى، ويقول بالبربرية: ابسمن ياكش، وتفسيره باسم الله، ثم مقر ياكش، أي، الله أكبر، ويقولون في تسليمهم بالبربرية: أيحن ياكش، ووردام ياكش الله أحد لا مثيل له.

وضع صالح بن طريف قرآنًا باللغة البربرية في ثمانين سورة أكثرها منسوب إلى أسماء النبيين، أولها سورة أيوب وآخرها سورة يونس.

وأباح لهم تزوج النساء فوق الأربع، وأباح لهم الطلاق، وحرم عليهم

---

(١) انظر: في تاريخ المغرب والأندلس، د. العبادي، ص (٢٧٩).

(٢) ابن خلدون، العبر، (ج٢/ ٢١٠).

زواج بنت العم، وزواج المسلمات، كذلك شرع قتل السارق، ورجم الزاني، ونفي الكاذب، وحرم رأس كل حيوان، وحرم ذبح الديك، والحوت -أي السمك- ولا يؤكل إلا أن يُذكى «أي يذبح» والبيض عندهم حرام، وليس عندهم أذان ولا إقامة ،وهم يكتفون في معرفة الأوقات بصياح الديوك، ولذلك حرَّموها ،إلى غير ذلك من التعاليم الشيطانية ، وإلى حد كبير تشبه ديانة حاميت المفتري في غمارة[1].

لقد كانت تعاليم هذه الدولة الكفرية متأثرة بتعاليم اليهود المنحرفة، وكذلك ببعض التعاليم الإسلامية ،حيث يمكننا أن نقول :إنها ديانة مشوِّهة للإسلام تعمل للقضاء عليه، وكانت هذه الدولة عند أهل السنة والجماعة مجوسًا منحرفين مارقين عن الدين الحنيف، ولهذا فرضوا قتالهم واستحلوا دماءهم.

واستمرت هذه الدعوة الكفرية منذ سنة ١٢٥ هـ في خلافة هشام بن عبد الملك إلى ظهور أهل السنة المرابطين الملثمين الذين قضوا عليهم قضاءً مبرمًا، وقد ذكرت كتب التاريخ أن حكام المغرب قبل مجيء المرابطين، كالأدارسة والأمويين والزناتيين قد قاتلوا برغواطة وأنزلوا بها هزائم منكرة وخسائر فادحة.

لقد قاسى المغرب الأقصى محنة كبيرة بسبب هذه الدولة الكفرية والطائفية البدعية وكان خطرها أشد وأقوى مما تُصوِّره كتب التاريخ[2].

٣- الطائفة الثالثة: وهي الدولة الزناتية:

وهي تتكون من قبائل منكاسة ومغراوة وبني يفرن وغيرها من القبائل

---

(١) نص على ذلك التشابه صاحب كتاب مفاخر البربر، ص (٧٧)، انظر: في تاريخ المغرب والأندلس، ص (٢٨١).

(٢) في تاريخ المغرب والأندلس، ص (٢٧٨).

الزناتية التي حكمت المغرب سنين بعد زوال نفوذ الأدارسة، حيث قامت بدور إيجابي في حرب الدولة البرغواطية، إلا إن حكام هذه الدولة اشتهروا بالجور والظلم والتعسف في آخر زمانهم[١].

٤ ـ الطائفة الرابعة: طوائف الشيعة والوثنيين:

كان محلهم جنوب المغرب في أقصى بلاد السوس، وكانوا عبارة عن أقليات مُبعثرة.

أما الشيعة فقد انتشروا في مدينة تارودانت ونواحيها ،وكانوا دعاة للفكر الشيعي الرافضي، وبعضهم يرجع جذورهم وأصول فكرتهم للدولة العبيدية الرافضية التي جاء ذكرها في صفحات من التاريخ الإسلامي في الشمال الإفريقي «الدولة العبيدية الرافضية»، لقد كان الصراع عنيفًا بين الشيعة وبين أهل السنة في كل ناحية وضاحية ومكان في المغرب كله، وتُوِّج جهاد أهل السنة بالقضاء على الدولة العبيدية ،إلا أن بقايا جذورهم أزالها المرابطون بقوتهم السنية الميمونة، أما الوثنيون فكانوا يسكنون الأطلس الكبير في جبل وعر، وكان الوثنيون يعبدون الكبش، ويبدو أنهم تأثروا بديانات مصرية قديمة كانت تعبد الكبش في زمن الفراعنة ويسمونه الإله خنوم، فكأن طقوس هؤلاء الوثنيين وعباداتهم من رواسب مؤثرات مصرية قديمة[٢].

لقد اتضح لي في دراستي التاريخية لبلاد المغرب أنها كانت تعاني من تفكُّك سياسي، وتكونت دول طائفية منحرفة عن منهج رب البرية، وكانت شعوب تلك الديار قد غرقت في وحل الجهل، ومستنقعات الانحراف وفساد التصور، وضياع الأخلاق، وكثرة الظلم، وانتشار العسف والجور. وكان

---

(١) المصدر السابق، ص (٢٨٩).

(٢) في تاريخ المغرب والأندلس، ص (٢٩١).

علماء وفقـهاء المرابطين على علم ودراية، وقد وضعوا في خطتـهم الجهادية توحيد المغرب الأقصى والقضـاء على الدولة الطائفية الكفرية، وإزالة الظلم والجور والتعسف.

وعملوا على توحيـد الديار المغربية وتربيتهـا على منهج سني مالكي، ومحاربة المناهج الكفرية، والقضاء على المذاهب البدعية من خوارج ومعتزلة وروافض ،ومنعها من الانتشار أو أن يكون لها وجود.

د ـ الشروع في توحيد المغرب الأقصى:

في عام ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م اجتمع فقهاء سـجلماسة ودرعة وكتبوا إلى ابن ياسين ،يُرغِّبونه في الوصول إليـهم ليخلص بلادهم مما تعانيه من الحكام الطغاة الظلمة زناتة المغراويين وأميرهم مسعود بن واندين، فجمع ابن ياسين شيوخ قومه وقرأ عليهم رسالة فقهاء سجلماسة، فأشاروا عليه بمد يد المعونة لهم، قالوا له: «أيها الشيخ الفقيه، هذا ما يلزمنا فسر بنا على بركة الله»[١].

فخرجت جموع المرابطين في شهر صفر سنة ٤٤٧ هـ إلى بلاد درعة، فتـصدى لهم الأمـير مسـعود بن واندين بالقـتال، وانتـهت المعركـة بهزيمة المغـراويين ومصـرع مسـعود وتشـتت جـيشـه، وأسرع ابن ياسين بدخـول سجلماسة، وأصلح أحـوالها، وقدم عليها عاملاً من لمتونة وحـامية مرابطية ثم عاد إلى الصحراء[٢].

وفي عام٤٤٨ هـ/ ١٠٥٦ م تُوفي الأمير يحيى بن عمر اللمتوني فعين عبـد الله بن ياسين أخاه أبا بكر بن عـمر مكانه للقيـادة، ثم تأهب أبو بكر لغزو بلاد السوس؛ ففي ربيع الثاني سنة ٤٤٨ هـ سار المرابطون صَوْب بلاد

(١) موسوعة المغرب العربي (٢/ ١٢٨).

(٢) المصدر السابق (٢/ ١٨٢).

السوس، واختار أبو بكر بن عمر ابن عمه يوسف بن تاشفين ليتولى القيادة على مقدمة الجيش المرابطي، وكان ذلك أول ظهور ليوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين وقائد مرحلة التمكين، وتمكنوا من احتلال أردوانت وقضوا على الروافض والوثنيين، كما قاتلوا اليهود المنتشرين في تلك النواحي ،فأعادوا بذلك تلك المناطق إلى مذهب أهل السنة والجماعة[1] .

وسار المرابطون إلى مدينة أغمات، وكان أميرها يومئذ لقوط بن يوسف ابن علي المغراوي ،وحاصروها، واضطر لقوط إلى الفرار عندما أيقن عبث المقاومة، فخرج يتلمس النجاة في أهله وحشمه تحت جناح الظلام، ودخل المرابطون أغمات عام ٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م وأقاموا فيها ما يقارب الشهرين، وتحركوا حركات حربية محكمة للقضاء على فلول المغراويين، واستطاعوا قتل أمير أغمات وتزوج أبو بكر بن عمر من زينب النفراوية زوجة لقوط المغراوي.

ثم سار أبو بكر بن عمر في جموع المرابطين إلى أرض برغواطة وكان أميرهم يومئذ أبا حفص بن عبد الله بن أبي غفير بن محمد بن معاذ، ونشبت بين المرابطين والبرغواطيين وقائع ومعارك حامية الوطيس،أصيب فيها العالم الرباني والمقاتل الميداني والفقيه الموجِّه ابن ياسين بجراح أودت بحياته إلى الشهادة -نحسبه كذلك، ولا نزكي على الله أحدًا- حمل على إثر تلك الجراح إلى مقر القيادة في معسكر المرابطين، وقبل خروج روحه جمع رؤساء وشيوخ المرابطين وحثهم على الثبات في القتال وحذرهم من عواقب التفرقة والتحاسد في طلب الرياسة، ولم يلبث أن فارق الحياة[2]، فعلى

(١) في تاريخ المغرب والأندلس، ص (٢٩٣).

(٢) في تاريخ المغرب والأندلس، ص(٤٤).

أمثال هؤلاء الرحمة والمغفرة والرضوان من الرحيم الواحد المنان. واتفق رأي المرابطين على اختيار أبي بكر بن عمر للرياسة مكان ابن ياسين، وأجمع شيوخ المرابطين على مبايعة أبي بكر، فجمع بين الزعامتين الدينية والسياسية، بينما يؤكد كل من القاضي عياض وابن خلدون أن المرابطين اتفقوا فيما بينهم على تقديم الشيخ سليمان بن حدو، ليرجعوا إليه في مشاكلهم وقضايا دينهم، وتولى القائد الجديد الزعامة بهمة عالية وشجاعة فائقة، واستعداد للتضحية والفداء من أجل إحياء دين الله على منهج النبوة، وطمس المعالم الكفرية للدولة البرغواطية، فأمر بتعبئة جيوشه المجاهدة وخرج لقتال واستئصال الكفر من بلاد المغرب، فأثخن في جنود الدولة البرغواطية، وفرق جموعهم، وكسر شوكتهم، وأعلنوا الطاعة والولاء للدولة المجاهدة الجديدة. ثم قصد أبو بكر مدينة أغمات، فمكث بها حتى شهر صفر سنة (٤٥٢هـ / ١٠٦٠ م) ثم تابع سيره في بلاد المغرب يفتح البلدان والقرى وحصون الجبال، ففتح سائر بلاد زناتة، وفتح مكناسة، وحاصر مدينة لواتة ودخلها عنوة في شهر ربيع الثاني ٤٥٢ هـ، ثم عاد إلى أغمات التي اتخذها قاعدة عسكرية للمرابطين، ومقرًا للأمير وإخوته، وعندما امتلأت المدينة اتجه أبو بكر إلى اختيار عاصمة جديدة، فوقع على موضع مدينة مراكش الحالية، وشرع في بنائها، فأتاه رسول من الصحراء يخبره بإغارة قبيلة جدالة على قبيلة لمتونة، فعيَّن ابن عمه يوسف، وأسرع من أجل الإصلاح بين القبائل المتنازعة، وقسَّم الجيش إلى فريقين، نصفه مع يوسف الذي شرع في تأديب القبائل المغربية المتمردة من مغراوة وزناتة وبني يفرن وغيرهم، ووقع اختياره على أربعة من القوَّاد هم: محمد بن تميم الجدالي، وعمر بن سليمان المسوفي، ومدرك التلكاني، وسير بن أبي بكر

اللمتوني، وعقد لكل منهم على خمسة آلاف من قبيلته، وسيرهم لتأديب تلك القبائل المتمردة، وسار في أثرهم ،فغزوا قبائل المغرب قبيلة بعد قبيلة، وبلدًا بعد بلد، وكان بعضهم يفرون وبعضهم يقاتلونه، والبعض الآخر يدخلون في طاعته.

واستمر في توحيد بلاد المغرب -وسنرى جهوده الجهادية في سيرته الميمونة.

أما أبو بكر فقد استطاع تأمين الأمن في الصحراء، وأزال الخلاف القائم بين لمتونة وجدالة، وتوسع في جهاد قبائل السود الوثنية لتدخل في دين الله؛ حيث صاول وجاول وقاتل الزنوج لتأمين حدود دولة المرابطين الجديدة بعد دعوة الزنوج للدخول في الإسلام.

وبعد أن حقق أبو بكر بن عمر نجاحات هائلة في مهمته الدعوية؛ رجع إلى المغرب الأقصى بجيوشه؛ فأكرمهم يوسف بن تاشفين إكرامًا يليق بالقائد الرباني أبي بكر بن عمر، واختار أبو بكر يوسف نائبًا عنه على حكم المغرب الأقصى، وأمره بالعدل والرفق بالمسلمين، ثم ودَّعه وعاد إلى الصحراء وقد زوَّده يوسف بطائفة عظيمة من الهدايا الجليلة، من المال والخيل والبغال والأسلحة المحلاة بالذهب، والجواري والثياب الفاخرة والمؤن والدواب، وهناك استأنف الجهاد والغزو، حتى قُتل في إحدى غزواته في سنة (٤٨٠ هـ/ ١٠٨٧ م)[١].

قال ابن كثير في «البداية والنهاية» عنه، أي عن أبي بكر بن عمر: «اتفق له من الناموس ما لم يتفق لغيره من ملوك، كان يركب معه إذا سار لقتال عدو خمسمائة ألف مقاتل، كان يعتقد طاعته، وكان مع هذا يقيم

(١) البداية والنهاية، (١٢/١٤٣).

الحدود ويحفظ محارم الإسلام، ويحوط الدين ويسير في الناس سيرة شرعية، مع صحة اعتقاده ودينه، وموالاة الدولة العباسية، أصابته نشابة في بعض غزواته في حلقه فقتلته»[١].

لقد كان أبو بكر بن عمر من أعظم قادة المرابطين، وأتقاهم وأكثرهم ورعًا ودينًا وحبًا للشهادة في سبيل الله، وساهم في توحيد بلاد المغرب، ونشر الإسلام في الصحاري القاحلة وحدود السنغال والنيجر، وجاهد القبائل الوثنية حتى خضعت وانقادت للإسلام والمسلمين، ودخل من الزنوج أعداد كبيرة في الإسلام، وساهموا في بناء دولة المرابطين الفتية، وشاركوا في الجهاد في بلاد الأندلس، وصنعوا مع إخوانهم المسلمين في دولة المرابطين حضارة متميزة.

هـ - تأملات في مسيرة ابن ياسين الجهادية:

لقد سار ابن ياسين في دعوته لقبائل الملثمين الصنهاجية سيرة حسنة نقية، وتدرج بهم من مرحلة التعريف إلى التكوين ثم التنفيذ ،حيث شرع في قتال القبائل التي لم تحترم أو تقدس حرمات الله، وأزال المنكرات، واعتبر ذلك جهادًا في سبيل الله.

وقد لاحظت أن إعلان الجهاد على القبائل التي تفشت فيها المنكرات جاء بعد إعداد وشورى من أهل الحل والعقد، وبعد أن أصبحت لهم شوكة قوية وإمام مطاع، ومجلس من العلماء والفقهاء يقلبون أمور السلم والحرب.

ويكفي هؤلاء الأبطال على صحة جهادهم ما رواه مسلم في «صحيحه» عن النبي (ﷺ): «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من

(١) البداية والنهاية، (١٢/ ١٤٣).

أمَّته حواريون، وأصحاب يأخـذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خُلوف، يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهـو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فـهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبـه فهو مؤمن، وليس وراء ذلك من الإيمان حبةُ خردل»(١) .

إن حركـة المرابطين كانت موفـقة حيث استطـاعت أن تنسق مع علماء وفقـهاء سجلمـاسة لإسقـاط الدولة الزناتية التي تفـشى فيهـا الظلم والجور والعسف، فـعندما رأوا من أنفسـهم الاستطاعة والمقـدرة على إزالة الظلم، ورأوا أن تحقق المصلحـة كان أرجح، سارع الفقـهاء والعلماء بالموافـقة على مقـترح ابن ياسين، وتدفقت جـيوش المرابطين، وتعـاونت مع المستضـعفين وطهَّرت البـلاد من هيمنة العـابثين، ونشرت العدل بين المـسلمين، ورفعت الضرائب والمكوس عن المظلومين، وفي نظري :إن نجاح حركة المرابطين كان بتوفيق الله، ثم إن القيـادة الفعلية للعلماء والفقهـاء ومجلس الشورى الذي يُمثل أهل الحلّ والعـقد ،ممن شهدت لهم جـموع المرابطين بأنهم أهل لذلك كانت حساباتهم دقيقة، وفتاويهم موزونة، ومعاركهم مدروسة.

أما قتالهم لبـرغواطة، وغمارة، ذات المعتقـدات الكفرية والانحرافات العقـدية فهذا يعتـبر من أعظم أعمالـهم الجهادية عندما وقـفوا لإزالة الدولة الشركية واقتلعوها من جذورها، وبُدلت بأصول سنية زكية بهية.

كما لاحظتُ أن للعلماء شبكة عملية للاتصال والتشاور ووضع الخطط اللازمة لإحياء الإسلام في الشمال الإفريقي، حيث نجد أن الإمام أبا عمران الفـاسي هو الـذي وضع الخطوط العـريضـة والإرشـادات النـافـعـة لدولة المرابطين، ثم وجَّـه الأمـير يحـيى بن إبراهيم إلـى موقع من مـواقع حلقـة

---

(١) صحيح مسلم رقم (٥٠، ج١/ ٧٠).

الاتصال الواسـعة بين العلمـاء ليرسل قـائد تلك الجهة وهـو ابن وجاج مع الأميـر يحيى أحد الأفراد الذي يتـوسم فيهم ذكـاءً ونجابة وصلاحًا وتفـوقًا للدعوة في قبائل صنهـاجة، وكان اختيار ابن وجاج في مـحله الذي استمر علىٰ اتصاله بشيوخه.

كما أن علمـاء سجلماسة كـانوا ضمن شبكة من شبكـات التعاون بين فقهاء أهل السنة، فهم الذين شجَّعوا جـيوش المرابطين لتوحيد الديار المغربية تحت لواء دولة سنية.





المبحث السادس

مرحلة التمكين والتوسع لدولة المرابطين القائد الرباني يوسف بن تاشفين

٤٠٠-٥٠٠هـ/ ١٠٠٩-١١٠٦م

تمهيد:

قد علمت بأهم المراحل في فقه الدعـوة إلى الله التي مر بها الإمام ابن ياسين ،حيث نجـده نجح نجاحًا عظيمًـا في تنفيذ مـرحلة التعريف واختـيار العناصر التي تحمل الدعـوة، ومرحلة المغالبة، واستُشهـد في مرحلة المغالبة وتولى القيـادة في هذه المرحلة أبو بكر بن عمر الـذي سار على نفس المنهج الذي رسمه ابن ياسين.

واستمر في فتـح مدن المغرب ،إلا أنه ترك نصف جيش المرابطين لابن عمه يوسف، ودخل بالباقـي نحو الجنوب داعيًا ومجاهدًا ومصلحًـا واستمر في فتوحاته حتى استشهد (رحمه الله) وتولى الأمر بالكلية القائد الرباني ابن تاشفين الذي أنهى مرحلة المغالبة وانتقل إلى مرحلة التمكين.

أ ـ نسبه:

يوسف بن تاشفين بن إبراهيم اللمتوني الصنهاجي، وأُمه بنت عم أبيه فاطمة بنت سير بن يحيى بن وجاج بـن وارتقين، وكانت قبيلته قد سيطرت بسيادتها وقيادتها على صنهاجـة واحتفظت بالرئاسة منذ أن جعلها الإمام ابن ياسين فيها بعـد وفاة الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي، فنـما عزيزًا كريمًا في قومه.

قال عنه المؤرخون من أمثال أشياخ: «خلق للزعامة»[1].

---

(١) الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ص (٦٥).

ملك له الشرف العلي من حمير وإن اتهموا صنهاجة فهم هم[١]

كان يوسف أسمر اللون نقيُّه، معتدل القامة، نحيف الجسم، خفيف العارضين، رقيق الصوت، أكحل العينين، أقنى الأنف، له وفرة تبلغ شحمة الأذن، مقرون الحاجبين، أجعد الشعر[٢].

كان يجمع بين جمال الطلعة وجمال الجسم، وبين أبدع المواهب، كان بطلاً شجاعًا، نجدًا حاذقًا جوادًا كريمًا، زاهدًا في زينة الدنيا، عادلاً متورعًا، متقشفًا، لباسه الصوف، وطعامه خبز الشعير، ولحوم الإبل وألبانها[٣]. كان عزيز النفس كثير الخوف من الله.

كان يجمع الصفح والعفو عن الذنوب مهما كبرت ،ما عدا الذين يرتكبون الخيانة في حق الدين فلا مجال للعفو عنهم[٤].

ربَّته الأحداث وصاغت من شخصيته قائدًا فذًا، وبرهنت الأيام على أنه له مقدرة على فهم واقعه، قادر على النهوض بقومه وشعبه وجيشه نحو حياة إسلامية حضارية أفضل.

تلقى يوسف تعاليمه الأولى في قلب الصحراء من أفواه المحَدثين والفقهاء، ونما وترعرع وتربى على تعاليم الإمام الفقيه ابن ياسين، ونبغ في فنون رجال الحرب، وفي السياسة الشرعية التي تتلمذ على الفقهاء فيها، وقام بها خير قيام، وسنرى ذلك ـ بإذن الله ـ في بحثنا هذا.

---

(١) وفيات الأعيان: (ج٧/ ١٣٠).

(٢) دولة المرابطين، ص (٣٦).

(٣) انظر: الروض القرطاس، ص (٨٧).

(٤) دولة المرابطين، ص (٣٦).

تذكر كتب التاريخ أنه تزوج زينب النفروية بعد أن طلقها ابن عمه أبو بكر بن عمر عندما عزم على السفر إلى الصحراء للجهاد والدعوة والإصلاح، فقال لها: أنت امرأة جميلة بضَّة[1]، لا طاقة لك على حرارة الصحراء، وإني مطلقك؛ فإذا انقضت عدتك فانكحي ابن عمي يوسف بن تاشفين، وتزوجها يوسف بعد تمام عدتها، وكانت زينب بنت إسحاق مشهورة بالجمال والرئاسة، بارعة الحسن، حازمة، لبيبة، ذات عقل رصين، ورأي سديد، ومعرفة بإدارة الأمور فكانت نعم الزوجة المعينة لزوجها، وقد مدحت كتب التاريخ هذه المرأة، واعتبرتها من خيرة نساء دولة المرابطين، وتوفيت عام ٤٦٤ هـ/ ١٠٧١ م.

وتزوج الأمير يوسف من سيدة أندلسية تُدعَى قمر ولا تذكر كتب التاريخ عنها شيئًا، ويقال: هي التي أنجبت الأمير علي ولي العهد، وأمير الأندلس والمغرب بعد والده.

وتزوج يوسف امرأة تسمى عائشة، وأنجبت له الأمير محمد الذي نسب إليها فصار يدعى محمد ابن عائشة، ورُزق يوسف مجموعة من الذكور والإناث بكْرُهم تميم الذي تُوفي غداة الزلاقة، وكان واليًا على سبتة، وعليٌّ الذي تولى الإمارة بعده، وإبراهيم، ومحمد الذي كان أحد القادة البارزين في جيش والده، أما بناته فهما: كونه ورقيَّة[2].

ب- المراحل العسكرية التي مر بها يوسف في جيش المرابطين:

١ - ٤٤٨ - ٤٥٢ هـ/ ١٠٥٦ - ١٠٦٠ م:

كان في هذه المرحلة مجرد قائد من قواد المرابطين يتلقى الأوامر وينفذها بكل نجاح، وكانت هذه المرحلة غنية بالتجارب والخبرات التي

(١) البضج: الرقيقة الجلد النضرة.

(٢) دولة المرابطين، ص (٣٨).

شـحذت ذهنه وأهّلـته للمـرحلة التـالية، فـكأنها كـانت ممارسـة للسلطة، والاطلاع على خفـاياها دون تحمل المسؤولـية، استطاع بعـدها تسلُّم الإمارة بكل الأوامـر التي وكلت إليه بكل همـة ونشاط ودون تردد، وقـاد المرابطين إلى النصر في ميادين الجهاد والعزة والكرامة والشرف.

وظهر نجم يوسف للمـرابطين في معركـة الواحات ٤٤٨ هـ ١٠٥٦ م التي كـان فيـها قـائدًا لمقدمـة جيش المرابـطين المهاجم، وبعـد فتح مـدينة سجلماسة عيَّنه الأمير أبو بكر واليًا عليها، فأظهر مهارة إدارية في تنظيمها، ثم غزا بلاد جزولة وفـتح ماسة ،ثم سار إلى تارودانت قـاعدة بلاد السوس وفتحها، وكـان بها طائفة من الشيعة البجليين، نسبـة إلى مؤسسها عليّ بن عبد الله البجلي، وقتل المرابطون أولئك الـشيعة، وتحوّل مَن بقي منهم على قيد الحياة إلى السنة.

ثم جاء دور أغـمات، كـانت مدينة مزدهرة حـضاريًا، إذ كـانت أحد مراكز النصرانية الـقديمة، ومقرًا للبربر المتهودين، كان يحكمـها الأمير لقوط ابن يوسف بن علي المغراوي.

تلقى يوسـف التـعليـمـات من الأمـيـر أبي بكر بـالزحف نحـوها، ومهاجمتها، ودكّها، ودخل المرابطون المدينة (٤٤٩ هـ/ ١٠٥٧ م).

وسـار المرابطون وفي جـملتـهم يوسف نحـو دولة برغـواطة «الدولة الكافرة الملـحدة» ونشبت المعـارك بين الفريقين وأُصـيب خلالهـا الإمام ابن ياسين بجراح بالغة توفي على إثرها كما علمت في ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩ م.

كان استـشهاد الإمام الفـقيه عبـد الله بن ياسين البداية الأولى في دفع يوسف إلى رئاسة الدولة الناشئة.

إذ أن جانب الإمـامة يغلـب على جانب الإمـارة في عهـد الإمام ابن

ياسين، وبعد وفاته تولىٰ أبو بكر بن عمر، فرجح جانب الإمارة علىٰ جانب الإمامة، وأخذت الدولة الناشئة تتحول إلىٰ طابع سياسي جديد، ومرَّت بها ظروف تتطلب رجالاً من طراز يوسف بن تاشفين.

وعندما دخل أبو بكر بن عمر بجيوشه إلىٰ الصحراء، وأناب ابن عمه يوسف علىٰ المغرب، ظهرت خلالها مواهب يوسف العسكرية والإدارية والتنظيمية والحركية والدعوية، وسلم الناس بزعامته، وبدأ في تأسيس دولته بالحزم والعلم والجد والمثابرة والبذل والعطاء.

وعندما رجع أبو بكر من الصحراء جمع أشياخ المرابطين من لمتونة وأعيان الدولة، والكتاب والشهود، وأشهدهم علىٰ نفسه بالتخلي ليوسف عن الإمارة، وعلل الأمير أبو بكر هذا التنازل لابن عمه يوسف لدينه وفضله وشجاعته وحزمه ونجدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته، وأوصاه الوصية التالية: «يا يوسف إني قد ولَّيتك هذا الأمر وإني مسؤول عنه؛ فاتق الله في المسلمين، وأعتقني وأعتق نفسك من النار، ولا تُضيع من أمر رعيتك شيئًا؛ فإنك مسؤول عنهم، والله (تعالىٰ) يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك، وهو خليفتي عليك وعليهم»[1].

ويحلو لبعض الكتاب من المؤرخين أن يفسر هذا الإيثار والتنازل عن المُلك بأن أبا بكر خشي من سطوة يوسف الذي أظهر له عدم استعداده عن التنازل عن الملك؛ وسيرة الرجُلين من الصلاح والتقوىٰ تنافي ادعائهم الباطل.

٢ ـ فتح المغرب الأقصىٰ الشمالي ٤٥٤هـ ـ ٤٧٧ هـ:

قام يوسف بن تاشفين نحو المغرب الشمالي لينتزعه من أيدي

---

(١) انظر: روض القرطاس، ص (٨٦).

الزناتيين، واستخدم من أجل تحقيق هذا الهدف المنشود إرسال الجيوش للقضاء على جيوش المخالفين ،مستفيدًا من الخلافات السياسية بين قادة المدن، فحالف بعضها من أجل قتال الباقي، واستطاع أن يدخل مدينة فاس صُلحًا عام ٤٥٥ هـ، ثم تمرد أهلها عليه إلا أنه استطاع إخماد جميع الثورات التي قامت ضد المرابطين بجهاده، وكفاحه المستمر، حتى تم له فتح جميع البلاد من الريف إلى طنجة عام ٤٦٠ هـ/ ١٠٦٧ م.

وأعاد فتح فاس عنوة بحصار ضربه عليها بجيش قوامه مئة ألف جندي عام ٤٦٢ هـ/ ١٠٦٩ م، فقضى على شوكة مغراوة وبني يقرن وسائر زناتة، ونظم المساجد والفنادق وأصلح الأسواق، وخرج من فاس عام ٤٦٣هـ إلى بلاد ملوية ،وفتحها واستولى على حصون وطاط من بلاد طنجة [1].

٣ ـ لقب الإمارة:

بعد هذه الانتصارات الناجحة استدعى شيوخ وأمراء المغرب من قبائل زناتة ومصمودة وغمارة، وأكرمهم وبذل لهم العطاء وأحسن إليهم، وبايعوه على الإمارة ،وخرج بهم يطوف في أقاليم المغرب يتابع الأمراء ويحاسب الولاة، وينشر العدل ويرفع المظالم ،فهابته النفوس، واقتنعت أنها أمام رجل دولة عبقري فذ.

وبعد أن رجع من تلك الجولة التفقدية الإصلاحية سار بجيوشه عام (٤٦٥ هـ/ ١٠٧٢ م) لغزو الدمنة من بلاد طنجة وفتح جبل علودان، وفي عام (٤٦٧ هـ/ ١٠٧٤ م) استولى على جبل غياثة وبني مكود وبني رهينة من أحواز تازا، وجعلها حدًا فاصلاً بينه وبين زناتة الهاربة إلى الشرق،

(١) المرجع السابق نفسه، ص (٩١)، العبر (٦/ ١٨٥).

وأبعد عن المغرب كل من ظن فيه أنه من أهل العصيان، فأصبح خالصًا له مرتاحًا إلى طاعته مطمئنًا إلى خلوده إلى السكينة والهدوء غير تواق للثورة عليه.

وأصبحت منطقة تازا ثغرًا منيعًا بينه وبين زناتة؛ ولذلك اعتبر المؤرخون عام ٤٦٧ هـ/ ١٠٧٤ م فاصلاً في تاريخ الدولة المرابطية،إذ بسط يوسف نفوذه على سائر المغرب الأقصى الشمالي باستثناء طنجة وسبتة.

وسير يوسف بن تاشفين إلى طنجة جيشًا من اثنى عشر ألف فارس مرابطي وعشرين ألفًا من سائر القبائل، وأسند قيادته إلى صالح بن عمران عام ٤٧٠ هـ، وعندما اقتربت جيوش المرابطين من طنجة برز إليهم الحاجب ابن سكوت على رأس جيش وهو شيخ يناهز التسعين، وانتصر المرابطون وفتحوا طنجة وقُتل في تلك المعارك الحاجب بن سكوت [(١)]. وبعد فتح طنجة استأنف الأمير يوسف توسُّعَهَ نحو الشرق لمطاردة زناتة التي لجأت إلى تلمسان، وكان هدفه القضاء على أي مقاومة تهدد دولة المرابطين في المستقبل، وبدأت عمليات الهجوم الوقائي التي استطاعت أن تحقق أهدافها وتهزم جيش تلمسان المعادي وتأسر قائده معلى بن يعلي المغراوي الذي قُتل على الفور، ورجعت كتائب المرابطين إلى مراكش، ثم عاد يوسف نحو الريف، وغزا تلك الأراضي وضم مدينة تكرور ولم تعمر بعد ذلك.

ثم رجع بجيوشه نحو وهران وتنس وجبال وانشريش ووادي الشلف حتى دخل مدينة الجزائر، وتوقف عند حدود مملكة بجاية التي حكمها بنو حماد فرع من صنهاجة.

وبنى يوسف في مدينة الجزائر جامعًا لا يزال إلى اليوم ويُعرف بالجامع

---

(١) انظر دولة المرابطين، ص (٥٠).

الكبير.

وعـاد إلى مراكـش عام (٤٧٥هـ/ ١٠٨١ م) وبذلك تـوحد المغـرب الأقصى بعد جهاد استمـر ثلاثين عامًا، وأصبحت دولة المرابطين في مرحلة التمكين الفعلية، وفي عام (٤٧٦ هـ/ ١٠٨٣ م)وجَّه الأمير يوسف ابنه المعز في جيش إلى سـبتة لفتحـها ،إذ كانت المدينة الوحيـدة التي لم تخضع له، كـان يحكمـها بعـد وفـاة الحاجب بن سـكوت ابنه ضيـاء الدولة يحـيى، فحاصرهـا المعز برًا وبحرًا، ودارت معركة بحـرية كانت طاحنة، وفي نهاية المطاف استطاع المرابطون أن يفـتحوا سبـتة، وقتل ضيـاء الدولة بعد أن ألقى القبض عليه ، وكان ذلك عام ٤٧٧ هـ/ ١٠٨٤ م[١].

بعد هذه الجـولة الجهـادية الموفقة تم تـوحيد المغـرب الأقصى بجـميع نواحيه بعد عمـل جاد ومستمر ، وأصبحت الدولة المرابطيـة قُوة لا يستهان بها ،تُشكل خطرًا على النصارى في الأندلس، وملجأً وحصنًا للمسلمين في الأندلس، حيث إن النصـارى استفحل خطرهم في الأندلس، حـيث قامت دويلات في كل مدينة وصلت إلى ثلاث وعشرين دويلة تناحرت فيما بينها، وعُرف حكامها بملوك الطوائف وتلـقبوا بالألقاب الخلافية كالمأمـون والمعتمد والمستـعين والمعتـصم والمتوكل، إلى غـير ذلك من الألقـاب، ووصف هذه الحالة المشينة الشاعر أبو علي الحسن بن رشيق:

مما يـزهـدنـي فـي أرض أنـدلـس ... سـمـاع مقـتـدر فـيـها ومعـتـضـد
ألقـاب مملكة في غـيـر مـوضـعـهـا ... كالهـرِّ يحكي انتفاضًا صـولة الأسد

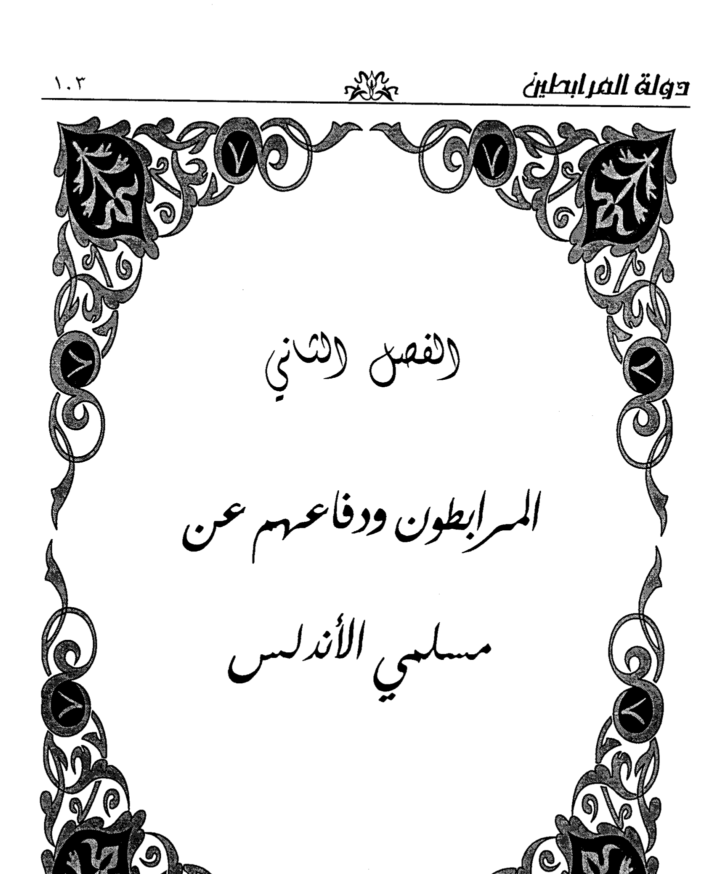
(١) انظر الاستقصار (١/ ١١١)، وانظر: دولة المرابطين، ص (٥٣).

لقد آلت أوضاع الأندلس إلى السوء، وأصبحت لا حول لها ولا قوة، مما شجع النصارى على توجيه ضربات إلى المسلمين، وقد شنوا حربًا لا هوادة فيها، نابعة من شعورهم العدائي للعرب والمسلمين، تهدف إلى طردهم من إسبانيا، وبدأت هذه الحرب بدافع الحقد الصليبي، وأضافوا إليها مع مرور الأيام عامل القومية وأطلقوا عليها حرب الاسترداد [١].

ولم تكن للمقاومة الإسلامية في الأندلس القدرة على إيقاف المد الصليبي الزاحف للخلاص من المسلمين، فاضطر أهل الأندلس إلى طلب العون من المرابطين.



(١) انظر: دولة المرابطين، ص (٥٩).



الفصل الثاني

المرابطون ودفاعهم عن مسلمي الأندلس

تمهيد:

استطاع عبد الرحمن الداخل أن يؤسس إمارة أموية في الأندلس سنة ١٣٨ هـ، وبدأ عصر الخلافة الأموية في الأندلس سنة (٣١٦ هـ/ ٩٢٩ م) عندما أعلنها عبد الرحمن الناصر، الذي اشتهر بالحزم والذكاء والعدل، والعقل والشجاعة وحبه للإصلاح وحرصه عليه.

ووحَّد الأندلس بالقوة والسياسة وأعاد وحدتها وقوتها ومكانتها.

حارب المتمردين من حكام الشمال الإسباني وأخضعهم لشروطه.

وكان سبب إعلانه الخلافة في الأندلس ضعف الخلافة العباسية، وظهور الدولة العبيدية في الشمال الإفريقي، فأعلن الخلافة، وتلقب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله[1]. وفي عام ٤٠٠ هـ/ ١٠٠٩ م بدأ ظهور عصر الطوائف في الأندلس، والذي دام حتى عام ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م.

وكان ذلك بسبب سقوط الخلافة الأموية التي نخرتها الأطماع والأحقاد والصراعات الداخلية على الحكم، وسعي بعض الشخصيات للمجد الشخصي متناسيًا في ذلك مصالح الأمة وضرورة وحدتها لتقف صفًا واحدًا أمام أعدائها.

لقد انقسمت الأندلس إلى دويلات، واتخذ حكامها ألقابهم تبعًا لحجم دويلاتهم، فأحدهم: ملك أو أمير، أو والٍ أو قاض.

ونظرًا لاختلاف القوى والرياسات، فقد أخذ القوي يبطش بالأضعف،

---

(١) انظر: في تاريخ المغرب والأندلس، د. أحمد العبادي، ص (١٦٨ ـ ١٧٠).

والأضعف يدرأ الخطر بالتحالف مع جاره القوي، وأحيانًا يستنجد بأمراء النصارى مقابل ثمن باهظ.

وتكونت من هذه الدويلات العديدة أربع دول رئيسية:

١ - في جنوب الأندلس، حكم الأدارسة الإفريقيون أو بنو حمود أصحاب مالقة، وحالفهم أمير غرناطة وقرمونة، وألبيرة وجيان وأستجة، فضلاً عن حكمهم مليلة وطنجة وسبتة في شمال المغرب.

٢ - بنو عباد أمراء إشبيلية، أقوى ملوك الطوائف، ومن حلفائهم بنو جهور في قرطبة، وبنو الأفطس أصحاب بطليوس في جنوب وغرب الأندلس.

٣ - بنو ذي النون أمراء طليطلة، الذين حكموا أواسط إسبانية، والذين وقفوا في وجه بني عباد، وكلفهم ذلك دفع جزية لملك قشتالة النصراني التماسًا لعونه ضد خصومهم.

٤ - بنو عامر في بلنسية ومرسية الذين حكموا في شرقي إسبانية، وطبقًا لظروفهم، فقد كانوا يحالفون الأدارسة تارة أو بني عباد، أو بني ذي النون تارة أخرى... بسط بنو عامر نفوذهم على الثغور الممتدة من مرية حتى مصب نهر أبرة سنة ١٠٥١ م[١].



(١) انظر: الزلاقة، شوقي أبو خليل، ص (١٢).



المبحث الأول

الصراع بين طليطلة وقرطبة

عندما تولى المأمون يحيى بن ذي النون عام ١٠٤٣ م، إمارة طليطلة اغتنم عون حليفه القوي عبد العزيز بن أبي عامر، واستأجر الفرسان النَّصارى من القشتاليين ليبطش بمحمد بن جهور أمير قرطبة، فتدخل بنو عباد أصحاب إشبيلية، وبنو الأفطس أصحاب بطليوس للوقوف ضد صاحب طُلَيطلَة الذي كان يهددهم جميعًا، وسار أمراء لبلة وولبة وجزيرة شلطيش إلى الانضمام إلى الحلف الذي تزعمه صاحب لبلة عبد العزيز اليحصبي ليعقد محالفة مع قُرطُبة.

تحرك الجميع تطبيقًا لهذا التحالف لإنجاد قرطبة، فانتهز ابن عباد أمير إشبيلية هذه الفرصة، واكتفى بإرسال خمسمائة فارس إلى ابن جهور، وزحف في جيش قوي على لبلة، وولبة وجزيرة شلطيش وأكسونية واستولى عليها، ثم فتح قرمونة سنة ١٠٥٣ م، طالت الحرب بين طُلَيطلة وقرطبة، ودامت أعوامًا، وكانت سجالاً، وأراد المأمون صاحب طليطلة حسم الموقف، فأوقع بقوات قرطبة وحليفاتها هزيمة شديدة، واستطاع الوصول إلى قرطبة فحاصرها، فبادرت إشبيلية إلى إغاثتها، فأرسل ابن عباد ابنه محمدًا على رأس جيش قوي فيه وزيره أبو بكر محمد بن عمار الموصوف برجاحة عقله، وشدة ذكائه، وزوَّدهما بخطة وأوامر سرية خاصة.

واستطاع جيش ابن عباد أن يفك الحصار عن قُرطبة، واضطرَّ الطليطليون لرفع الحصار، وارتدوا عنها، وخرج القرطبيون ليطاردوا أعداءهم

فأتموا بذلك هزيمة الطليطليين[١].

ونُفذت خُطة ابن عباد السرية وكان محتواها دخول قرطبة عندما يخرج منها أهلها خلف الطليطليين، ودخلتها قوات ابن عباد دون معارضة، واحتلت مراكزها الحصينة قبل أن يفطن القرطبيون إلى أن من جاء لنُصرتهم غدرَ بهم، وبذلك سقطت دولة بني جهور في قرطبة ولم يمض على قيامها ثلاثون عامًا في محنة محزنة وخيانة فظيعة، وأصبح ابن عباد أمير إشبيلية أقوى أمراء الأندلس المسلمة، تخوَّف المأمون أمير طُليطلة من قوة ابن عباد أمير إشبيلية التي نمت نموًا سريعًا، وبخاصة بعد أن حالفه العامريون أمراء قسطلون ومربيطر وشاطبة المرية ودانية، فحاول التحالف مع صهره -زوج ابنته- عبد الملك المظفر حاكم بلنسية الذي رفض ذلك ،مُحتجًا بأن وقوف العامريين إلى جانب إشبيلية يجعل إقدامه على هذا التحالف خطرًا على بلنسية، فما كان من المأمون إلا أن عقد حلفًا مع فرديناند الأول صاحب قشتالة.

وهجمت القوات المشتركة المتحالفة «قوات المأمون وفرديناند الأول» على بلنسية، فسقطت ولاية بلنسية كلها في يد المأمون في تشرين الأول سنة ١٠٦٥ م، عاد بعدها إلى طليطلة ليجهز قواته لقتال ابن عباد، وحال بينه وبين ما أراد وفاة فرديناند الأول، ونشوب حرب ضروس بين أولاده، فنقض المأمون عهده مع قشتالة، وامتنع عن دفع الجزية، مما أدى إلى حرمانه من معونة النصارى، وهي المعونة التي لم يستطع أن يحارب أمير إشبيلية بدونها، فلما تمَّ أمر الحكم لسانشو بن فرديناند سنة ١٠٧٠ م، هرب أخوه ألفونسو إلى المأمون صاحب طليطلة والتجأ أخوه الثاني جارسية إلى المعتمد ابن عباد صاحب إشبيلية، وفي سنة ٤٦١ هـ/ ١٠٦٩ م توفي المعتضد بن

(١) انظر: الزلاقة، ص (١٤).

عباد أمير إشبيلية، فخلفه ابنه الملقب بالمعتمد على الله، ولم يكن أمام الأمير الجديد ما يخشاه إلا أمير طليطلة الذي ملك بلنسية في الوقت نفسه، أما بقية ملوك الطوائف فقد انكسرت شوكتها وتزعزع كيانها في حروبها الداخلية من غزوات النصارى المتتابعة عليها.

واستطاع المأمون حاكم طليطلة أن يتوسع ويحقق انتصارات واسعة سنة ١٠٧٣ م على مرسية وأريولة وعدة مدن أخرى، وبهذا أصبح الأمير الأقوى الذي يسيطر على أواسط إسبانية كلها، وبخاصة بعد أن فاز ألفونسو بحكم قشتالة بعد وفاة «شانجة» وتحالف مع المأمون الذي رعاه وحماه عند محنته، وتعاهد الأميران على أن يرتبطا معًا برباط الصداقة الوثيق.

وأصبح أمير إشبيلية في خوف من توسع أمير طليطلة ،الذي فاجأ المعتمد بتحالفه مع بني هود أصحاب سرقسطة وبني الأفطس أصحاب بطليوس، وهاجم خصمه من ثلاث جهات لكي يُحكم تسديد الضربة إلى قرطبة؛ فسقطت دون مقاومة تذكر سنة ٤٦٨ هـ، ولكن المأمون توفي بعد دخولها بأيام قلائل؛ فرجع جنده عنها إلى طليطلة، واسترد ابن عباد قرطبة، وبقيت إشبيلية تحت ابن عباد حتى استولى عليها المرابطون سنة ٤٧٤هـ.

وأرسل ابن عباد سفيره ووزيره البارع ابن عمار إلى عاصمة قشتالة يومئذ، وتحالف مع ألفونسو، وتعهد بها ملك قشتالة بمعاونة أمير إشبيلية بالجند والمرتزقة ضد جميع المسلمين، ويتعهد ابن عباد مقابل ذلك أن يدفع إلى ملك قشتالة جزية كبيرة، وتعهد بألا يتعرض مشروع ألفونسو في افتتاح طليطلة، وهكذا ضحَّى ابن عباد بمعقل المسلمين إسبانية المسلمة، لكي يفوز ببسط سيادته على الإمارات التي لم تخضع له بعد، وهي إمارات غرناطة

وبطليوس وسرقسطة[١].

واستفـاد ألفونسو من هذه الاتفاقـية وأعلنها حربًا لا هوادة فـيها على طليطلة التي حمتـه من مطاردة أخيه سانشو، ونسي الأميـر الطموح للتوسع كل عهوده ومواثيقه ، وشرع في غدره بمن أحسن إليه.

وتحرك المعتمد بن عباد بجيشـه نحو غرناطة ليضمها إلى سلطانه وكان حاكمها عبد الله بلـكين بن باديس، وكان ابن هود أمير سرقسطة يرى الخطر يشتـد عليه يومًـا فيومًـا من سانشـو الأول ملك أرجون، فلم يسـتطع إنجاد طليطلة سوى أمير بطليوس يحيى بن الأفطس الملقب بالمنصور، فجمع قواته وسـار إلى لقاء ألفـونسـو،ولكن ألفـونسو الذي كـان قـد أثخن في ولاية طليطلة، حتى صيَّرها قفرًا بلقعًـا، شعر باقتراب المنصور، فانسحب، ولكنه كرر الرجعة في العام التالي؛ فعـاث في بسائط طليطلة وخربها مرة أخرى، وزحف المعتـمد على بطليـوس، وبهذا اسـتطاع أن يحُول دون معـاونة بني الأفطس لطليطلة ،حيث القادر بن ذي النون، ولم يستطع أمير سرقسطة من بني هود «المؤتمن» معـاونة القادر معاونة قـوية خشية أن تقع سرقـسطة ذاتها فـريسة لابن عـبـاد أو النصارى، وهو في جـهـاد ضد أرجـون وبرشلونة، واستمرت الحرب أعوامًا، وألفـونسو يفسد في بلاد المسلمين -«طليطلة» وما حولها- فسادًا.

وفي السابع والعشرين من المحرم سنة ٤٧٨ هـ ـ الخامس والعشرين من أيار «مايو» سنة ١٠٨٥ م استطاع أن يدخل طليطلة «عاصـمة القوط القديمة» ودخلت طليطلة بـذلك إلى حظيرة الـنصرانيـة بعـد أن حكمهـا المسلمـون ثلاثمائة واثنين وسبعين عامًا، واتخـذها ملك قشتالة حاضرة ملكه من ذلك الحين، وأصبحت بذلك عاصمة إسبانية النصرانية.

---

(١) انظر: الزلاقة، ص (١٧).

وهكذا انتهت دولة ذي النون في طليطلة لتستمر في بلنسية[١].

تأثر المسلمون بسقوط طليطلة تأثرًا عميقًا على مختلف الساحة الإسلامية في الأندلس، وتفجرت قريحة الشعراء في استثارة الهمم والتحريض على الجهاد، والتحذير من تفاقم الخطر، ومما قيل في ذلك: قول عبد الله بن فرج اليحصبي المشهور بابن عسال الطليطلي:

يا أهل أندلس حثوا مطيتكم   فما المقام بها إلا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وأرى   ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط

ونحن بين عدو لا يفارقنا   كيف الحياة مع الحيات في سفط[٢]

ومن ذلك أيضًا:

يا أهل أندلس ردُّوا المعار فما   في العرف عارية إلى مردات

ألم تروا بيدق الكفار فرزنه   وشاهنا آخر الأبيات شهمات[٣]

لقد كانت روما تقف بكل ما تملك من قوة معنوية ومادية خلف ألفونسو وجنوده للقضاء على المسلمين، وأسبغوا على قتال المسلمين صفة الحروب الصليبية المقدسة ،وأصبح البابوات لهم دور في توجيهها.

وندم المعتمد بن عباد على فعلته ،خصوصًا عندما رأى ألفونسو يتوسع في ضم ممالك المسلمين إليه، وأيقن أن الدائرة عليه قادمة، واجتمع أمراء المسلمين عندما رأوا أن شبح السقوط ماثلاً أمام أعينهم، فاتحدوا لأول مرة

---

(١) انظر: الزلاقة، ص (١٨).

(٢) وفيات الأعيان (ج٥/٢٨).

(٣) انظر: الزلاقة، ص (١٩).

واجتمعت كلمـتهم على أن يضعوا حدًا لفتوح ألفـونسو، وإذا كانت قواتهم مُجتمعة لا تكفي لرد عدوانه، فقد اتفقت كلمتهم على الاستنجاد بالمرابطين في إفريقية واستدعائهم إلى الأندلس، علمًا بأن ملوك الأندلس كانت تُرْهِب الفرنج بـإظهار موالاتهم لـملك المغرب يوسف بن تاشـفين، وكان له شـهرة تطايرت في الآفاق لما حققه من ضم دول إلى دولته وقـضائه عليها، واشتهر بين الناس أن لأبطال الملثـمين في معـارك ضربات بالسـيوف تقـد الفارس، وطعنات تنظم الكلى، فكـان لهم بذلك ناموس ورعب في قلوب المنتـدبين لقتالهم[1].



(١) وفيات الأعيان (ج ١٧/ ١١٤).



المبحث الثاني

أسباب ضعف المسلمين في الأندلس وقوة النصارى

أولا: ضعف العقيدة الإسلامية، والانحراف عن المنهج الربّاني ،وهذا السبب هو الأساس.

ثانيًا: موالاة النصارى، والثقة بهم، والتحالف معهم؛ حيث نجد أن تاريخ الأندلس مليء بالتحالف مع النصارى إلى أن بلغ ذروة رهيبة، واضطرب بسبب ذلك مفهوم الولاء والبراء، والحب في الله والبغض في الله، بل هذه المعاني كادت تندثر.

إن الأمة حين تخالف أمر ربها، وتنحرف عن طريقه، فلا بد أن يحل بها سخطه، وتستوفي أسباب نقمته، قال (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

وقوله (عز وجل): ﴿لا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ﴾ [آل عمران: ٢٨].

قوله (تعالى): ﴿لا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقد أبان رسول الله (ﷺ) طريق الأمة في الولاء والبراء، فقال: «أوثق عرى الإيمان الموالاة في الله، والمعاداة في الله، والحب في الله، والبغض في الله»[1].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (ج ٤/ ٢٨٦).

ويقول (ﷺ): فيما يرويه عن ربه (عز وجل): «**من عادى لي وليًا فقد آذنته بالحرب**»[١].

فإذا كان هذا كله مُسطَّرًا في كتاب ربها وسنة نبيها وتخالفه، فلا بد أن تُرى فيها سنة الله التي لا تتغير ولا تتبدل.

فحين تجد أن المعتمد بن عباد يذهب إلى ملك قشتالة ويطلب منه الصلح ويدفع له المال، نراه جاهدًا في حرب أمراء الطوائف واستئصالهم، أمَا كان الأفضل له أن يتحد مع إخوانه أمراء الطوائف ،وفي ذلك مصلحة له ولهم وللأندلس عامة، وللإسلام وأهله، ولكنك لا تجني من الشوك العنب[٢].

بل ضعف مفهوم الولاء والبراء ،حتى إن بعض حُكام المسلمين استوزروا وزراء نصارى ويهود يصرفون أمور دولة الإسلام، فهل يؤمن الذئب على الغنم!![٣].

ثالثًا: السبب الثالث :الانغماس في الشهوات والركون إلى الدعة والترف وعدم إعداد الأمة للجهاد، إن الأمة التي تركن إلى الدعة والترف واللهو، وهي غالبة قاهرة ،يجب أن تُعد غير مستحقة للريادة والقيادة، فما بالك بأمة تغرق في اللهو والدعة والترف، وهي لا تدري إن كان العدو قد كسر حصنها واجتاحها، أم أنه لا يزال ينتظر تلك اللحظات؟!.

يقول المؤرخ النصراني كوندي: «العرب هُزموا عندما نسوا فضائلهم التي جاؤوا بها، وأصبحوا على قلب متقلب يميل إلى الخفة والمرح،

---

(١) البخاري، فتح الباري، كتاب الرقائق، باب (٣٨ رقم ٦٥٠١).

(٢) انظر: تاريخ الأندلس، ص (٣٩٠)، د. عبد الرحمن الحجي.

(٣) سقوط الأندلس: د: ناصر العمر، ص (٢٤).

والاسترسال بالشهوات»[1].

إن المؤرخين رأوا: «إن الأندلسيين ألقوا بأنفسهم في أحضان النعيم، ناموا في ظل ظليل من الغنى الواسع والحياة العابثة والمجون، وما يرضى الأهواء من ألوان الترف الفاجر، فذهبت أخلاقهم كما ماتت فيهم حمية آبائهم البواسل، وغدا التهتك والخلاعة والإغراق في المجون، واهتمام النساء بمظاهر التبرج والزينة بالذهب واللآلي من أبرز المميزات أيام الاضمحلال التي استناموا للشهوات والسهرات الماجنة، والجواري الشاديات، وإن شعبًا يهوي إلى هذا الدرك من الانحلال والميوعة لا يستطيع أن يصمد رجاله لحرب أو جهاد»[2].

دخل المسلمون الأندلس وأصبحوا ساداتها عندما كان كان نشيد طارق في العبور «الله أكبر» وبقوا فيها زمنًا، حين كان يحكمها أمثال عبد الرحمن الداخل عندما قُدم إليه الخمر ليشرب قال: «إني محتاج لما يزيد في عقلي لا ما ينقصه»[3].

يقول الدكتور عبد الرحمن الحجي عن الفاتحين الأوائل للأندلس: «كانت غيرة هؤلاء المجاهدين شديدة على إسلامهم، فدوه بالنفس وهي عندهم له رخيصة، فهو أغلى من حياتهم، أشربت نفوسهم حبّه، غدا تصورهم وفكرهم ونورهم وربيع حياتهم»[4].

وضاعت ممالك الأندلس من يدي المسلمين عندما كان نشيد أحفاد الفاتحين:

---

(١) مصرع غرناطة، ص (٩٣).

(٢) المصدر السابق، ص (١٢٠).

(٣) سقوط الأندلس، ص (٢٧).

(٤) انظر: تاريخ الأندلس، ص (٢١١).

ووزن العود وهات القدحا راقت الخمرة والورد صحا

وعندما قصد الإفرنج بلنسية لغزوها عام ٤٥٦هـ خرج أهلها للقائهم بثياب الزينة؛ فكانت وقعة بطرنة التي قال فيها الشاعر أبو إسحاق بن معلى:

لبسوا الحديد إلى الوغى ولبستم حُلل الحرير عليكم ألوانًا

ما كان أقبحهم وأحسنكم بها لو لم يكن ببطرنة ما كانا[1]

ضعف المسلمون في الأندلس وسلب كثير من ديارهم لما تنافس الولاة والحكام من أجل إسعاد زوجاتهم وجواريهم بالباطل.

وإليك ما فعله المعتمد مع إحدى زوجاته: اشتهت زوجة المعتمد بن عباد أن تمشي في الطين وتحمل القرب، فأمر المعتمد بن عباد أن ينشر المسك على الكافور والزعفران وتحمل قربًا من طيب المسك وتخوض فيها تحقيقًا لشهواتها!!

ولكن الله المعز المذل أراد أن تنقلب الأمور على المعتمد، فيؤخذ أسيرًا في أغمات وتبقى بناته يغزلن للناس يتكسبن، وفي ذلك يقول المعتمد وهو شاعر مجيد:

فيما مضى كنت بالأعياد مسرورًا فساءك العيد في أغمات مأسورًا

ترى بناتك في الأطمار جائعة يغزلن للناس ما يملكن قطميرًا

برزن نحوك للتسليم خاشعة أبصارهن حسيرات مكاسيرا

يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكًا وكافورًا

من بات بعدك في مُلك يُسَرُّ به فإنما بات بالأحلام مغرورًا[2]

(١) انظر: النصر والهزيمة، ص (١٢٢).

(٢) نفح الطيب، (ج ٤/ ٢٧٣ ، ٢٧٤).

وصدق الحبيب (ﷺ)، المؤتى جوامع الكلم إذ يقول: «إذا تبايعتم بالعينة، وأخذتم أذناب البقر، ورضيتم بالزرع، وتركتم الجهاد، سلط الله عليكم الله ذلاً، لا ينزعه عنكم حتى ترجعوا إلى دينكم»[١].

رابعًا: إلغاء الخلافة الأموية وبداية عهد الطوائف:

لا شك أن بداية الانهيار الفعلي في الأندلس بزوال الخلافة الأموية، ونشأ على أثر ذلك عهد السنوات الصعاب، كانت كلمة الأمة واحدة وخليفتهم واحدًا فأصبحت الأمة كما قال الشاعر:

مما يزهدني في أرض أندلس ... أسماء معتمد فيها ومعتضد
ألقاب مملكة في غير موضعها ... كالهر يحكي انتفاخًا صولة الأسد[٢]

وكما قال الآخر:

وتفرقوا شيعًا فكل محلة ... فيها أمير المؤمنين ومنبر

ولم يكن حُكام الأندلس أهلاً لقيادة الأمة في عمومهم، واسمع إلى ابن حزم وهو يقول عن هؤلاء الحكام: «والله لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية أمورهم لبادروا إليها، فنحن نراهم يستمدون النصارى فيمكنونهم من حرب المسلمين، لعن الله جميعهم وسلط عليهم سيفًا من سيوفه»[٣].

ويقول الدكتور عبد الرحمن الحجي عن هؤلاء الحكام: «وهكذا وُجدت في الأندلس أوضاع يحكمها أمراء اتصف عدد منهم بصفات الأثرة والغدر، هانت لديهم معه مصالح الأمة، وتركت دون مصالحهم الذاتية،

---

(١) أخرجه أبو داود، كتاب البيوع، (باب ٥٦، ت/ ٥٤ م).

(٢) سقوط الأندلس، ص (٣١).

(٣) التاريخ الأندلسي، د: عبد الرحمن الحجي، ص (٣٢٥).

باعوا أمتهم للعدو المتربص ثمنًا لـبقائهم في السلطة، ولقد أصاب الأمة من الضيـاع بقدر ما ضيـعوا من الحظ الخُلقي المسلم، انحـرف هؤلاء المسؤولون عن النهج الحنيف، الذي به كانت الأندلس وحضارته».

خامسًا: الاختلاف والتفرق بين المسلمين:

كان الاختلاف والتفرق سمـة من سمات عصر ملوك الطوائف، وكان بعضــهم يستـعدي النصـارىٰ علىٰ إخوانـه ،ويعقدون مـع النصارىٰ عـهودًا وأحلافًا ضد إخوانهم في العـقيدة، ومن أجل شهوة سلطة تُراق علىٰ أرض الأندلس دماء المصلين، حتىٰ قال ابن المرابط واصفًا حال المسلمين:

مـــا بال شـــمل المســمـين مـبـدّد	فـيـهـا وشـمل الضـد غـيـر مـبـدد
مـــاذا اعـــتـــذاركم غـــدًا لنبـــيكم	وطريق هـذا الغـــدر غـــيــــر ممهـــد
إن قـــال لـم فـــرَّطـتم في أمَّـــتي	وتركـــتـمـــوهم للعـــدو المعـتـــدي
تالله لـو أن العـــــقـــــوبـة لم تُـخف	لكفىٰ الحـيـا من وجه ذاك الـسيـد[1]

ولما سقطت طليطلة كـان من العجيب أن بعض ملوك الطوائف وقـفوا جامدين لا يتحركون لنجدة طليطلـة، وكأن الأمر لا يعنيهم فاغرين أفواههم جبنًا وغفلة وتفاهة، بل إن عددًا منهم كـان يرتمي علىٰ أعتاب ألفونسو ملك النصارىٰ طالبًا عـونه، أو عارضًا له الخضوع، بذلة تأبـاها النفوس المسلمة، تغافلوا عند أن ألفونسو لا يفرِّق بين طليطلة وغـيرها من القواعد الأندلسية، لكن العجب يزول إذا تذكَّرنا نزعتهم الأنانية والعصبية[2].

(١) سقوط الأندلس، د: ناصر العمر ص (٣٣).

(٢) المصدر السابق، ص (٣٤).

سادسًا: تخلي بعض العلماء عن القيام بواجبهم:

لا شك أن حياة الأمة في حياة علمائها فهم تاجها ومنارتها وهم روحها ومادة حياتها، فكلما كان علماء الأمة ربَّانيين كان أمر الأمة في طريقه نحو العزة والرفعة والكرامة، وكلما ابتعد العلماء عن الربانية وتثاقلت نفوسهم إلى الأرض، وحرصوا على مصالحهم الذاتية، خبا نور الأمة، ودب في الأمة الضعف والجهالة.

«فحين كانت الأمة تغرق في الأندلس بسبب الاجتياح النصراني المتلاطم، انصرف عدد من العلماء إلى العناية المبالغة بالفقه المذهبي وفروعه ونسوا وتناسوا واقع الأمة وآلامها»[1].

وبعض هؤلاء هم ممن قال فيهم ابن حزم (رحمه الله): «ولا يغرَّنك الفساق والمتسبون إلى الفقه، اللابسون جلود الضأن على قلوب السباع، المزينون لأهل الشرِّ شرهم، الناصرون لهم على فسقهم»[2].

ولا ننسى دور العلماء الربَّانيين الذين قاموا بجمع شتات الأمة الممزق، وبذلوا وسعهم في ذلك من أمثال أبي الوليد الباجي، وأبي محمد بن حزم، وأبي إسحاق الإلبيري وغيرهم، (عليهم رحمة الله وبركاته).

سابعًا: عدم سماع ملوك الطوائف لنصح العلماء:

لقد بذل مجموعة من العلماء جهدًا مشكورًا لتوحيد صفوف المسلمين، وتصدى أبو الوليد الباجي لهذه المهمة بنفسه بعد عودته من المشرق الإسلامي، «فرفع صوته بالاحتساب، ومشى بين ملوك أهل الجزيرة لصلة ما انبتَّ من تلك الأسباب، فقام مقام مؤمن آل فرعون، ولكنه لم يصادف

(١) سقوط الأندلس، د: ناصر العمر، ص (٣٥).

(٢) مجموع رسائل ابن حزم (ج ٣/ ١٧٣).

أسماعًا واعية، لأنه نفخ في عظام ناخرة، وعطف على أطلال دائرة، بَيْد أنه كلما وفد على مـلك منهم في ظاهر أمره لقيه بالتـرحيب، وأجزل حظه في التنافس والتقريب، وهو في باطن يستجهل نزعتـه ويستثقل طلعته، وما كان أفطن الفقيه (رحـمه الله) بأمورهم وأعلمه بتدبيرهم، لـكنه كان يرجو حالاً تثوب، ومذنبًا يتوب»[١].

ولم يكن حُكام الأندلس أهلا لقيادة الأمة، ولم تنفعهم نصائح العلماء حتى حلَّت بهم مصيبة وكارثة ،ألا وهي سقوط طليطلة.

ثامنًا: مؤتمرات النصارى ومخططاتهم:

اسـتطاع النصـارى أن يضـعوا برامج مُـحكمـة للقـضـاء على ملوك الطوائف، ومن ثم على المسلمين عمومًا، وكان من أكبر المجرمين من ملوك النصارى الذي أشرف على هذه المخططات وسهر على تنفيذها فرناندو ملك قشتالة.

تاسعًا: وحدة كلمة النصارى:

في الوقت الذي كـــان المسلمـون في الأندلس يعـانـون من التـفـرق والشـتات، كـان النصارى في وحـدة كلمـة وتراص صف في مواجـهة أمـة الإسلام في الأندلس.

عاشراً: غدر النصارى ونقضهم العهود:

لم يكن النصارى عـباد الصليب محلاً للعهـود وأهلاً للوفاء إلا القليل النادر؛ فهم تبع لمصالحهم وأهوائهم، وهي التي تحكم وفاءهم ونقضهم[٢].

قال (تعالى): ﴿ومن [illegible] [illegible]ـارى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا [illegible] بينهم العداوة والبغـ[illegible] [illegible]ـة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون﴾

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، الشنتريني، القسم الثاني، ص (٩٥).
(٢) سقوط الأندلس، ص (٤٠).

[المائدة: ١٤].

لقد سطر النصارى في الأندلس تاريخًا مليئًا بالدماء وهتك الأعراض، وقتل النفوس وسبي النساء.

قال (تعالى): ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠]. وقال (تعالى): ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ [البقرة: ١٢٠].

لقد استمات النصارى في حربهم للمسلمين فمارسوا كل الأساليب المعوجة من أجل تحقيق أهدافهم الشيطانية.

الحادي عشر: التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى نصرة:

لقد كانت أحاديث الرسول (ﷺ) في تلك المرحلة مُعطلة ،كأنهم لم يسمعوا قول رسول الله (ﷺ): «**المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه**»[1].

وقوله ﷺ: «**المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا**»[2].

لقد تخاذل ملوك الطوائف عن نصرة من يستحق النصرة، وإليك ما حدث في طليطلة، يقول الدكتور عبد الرحمن الحجي عن سقوط طليطلة وموقف حكام الطوائف: «قام حاكم بطليوس عمر بن محمد الأفطس الملقب بالمتوكل على الله ببعض واجبه تجاه طليطلة في محنتها، التي لو أدى بقية ملوك الطوائف ما يجب عليهم لما لاقت هذا المصير، ولحموها وحموا أنفسهم، كان بعضهم لا همٌ له إلا تحقيق مصلحته وإشباع أنانيته، وكأن الأندلس وجدت لمنفعته وليتربع على كرسي حكم، مهما كان قصير العمر ذليل المكان مهزوز القواعد»[3].

(١) أخرجه البخاري، كتاب المظالم، رقم (٢٤٤٢)، مع الفتح (ج ٥/ ١١٦).
(٢) البخاري مع الفتح كتاب المظالم رقم (٢٤٤٦ ج ٥/ ١١٧).
(٣) انظر: التاريخ الأندلسي.

فهذه مجموعة من الأسباب التي أدت إلى الحالة التعيسة التي آلت إليها الأندلس، وعندي أن من أعظم الأسباب في خذلان الأمة ابتعادها عن منهج ربها وضياع عقيدتها ،وتربيتها على الترف والدعة، وترك الجهاد في سبيل الله، ولذلك عندما تربى المرابطون على معاني الجهاد في سبيل الله، ومنهج أهل السنة، وفَّقهم الله لإقامة دينه وإعزاز سنة نبيه ونصرة إخوانهم في الدين.

إن الجهاد من أعظم الدروس فلما وُجد في الأندلس بَقِيَتْ الأمة في عزة ومنعة ومهابة، ولما فُقِد أصبحت الأمة مطمعًا لكل جبار عنيد أو متكبر لا يؤمن بيوم الحساب. قال رسول الله (ﷺ): «**رأس الأمر الإسلام وعموده الصلاة وذروة سنامه الجهاد**»[1]. وقال (ﷺ): «**الغدوة في سبيل الله أو روحة خير من الدنيا وما فيها**»[2].



(١) الترمذي، باب الإيمان، باب (٨) رقم (٢٦١٦).

(٢) البخاري مع الفتح رقم (٢٧٩٢ ج٦/ ١٧).



المبحث الثالث

العالم في زمن ظهور دولة المرابطين

كانت أوروبا يتحكم فيها الإقطاعيون في حالة همجية بعيدة عن التحضر ومعالم الحضارة والمدنية.

وكان العالم الإسلامي مجزأ عند قيام دولة المرابطين، فظهر ملوك الطوائف في بلاد الأندلس، واستطاع السلاجقة أن يطهروا العراق من بني بويه، والعبيديون حكموا مصر، وبنو حماد في المغرب الأوسط، والمعز بن باديس وأحفاده في المهدية.

وتوسع المرابطون وشملت دولتهم أجزاء شاسعة من شمالي إفريقية «جزء من الجزائر والريف في المغرب»، وضربت جذورها في الصحراء حتى نهر النيجر والسنغال، فرفعوا راية الإسلام في تلك الأماكن البعيدة.

وكان المشرق الإسلامي في ظروف سياسية حرجة وصعبة قاسية ،حيث أمرُ الخلافة في بغداد مهتز، والخليفة معرض للخطر، ولا يملك من أمر الخلافة شيئًا وإنما هو رمز تحكم فيه البويهيون، ومن بعدهم السلاجقة، أما العبيديون في مصر فتحالفوا مع الإفرنج من أجل مصالحهم وأطماعهم، فكان أمر المسلمين في غاية الخطورة حتى قيض الله لأهل المشرق نور الدين محمود وصلاح الدين الأيوبي اللذين قاما بدور عظيم في القضاء على النصارى والعبيديين ودحرهم، وفي هذه الظروف الصعبة والعصيبة أرادت حكمة الله وقدرته أن تخرج دولة المرابطين السنية لتكون سدًا منيعًا ضد أطماع النصارى في الأندلس، ولتحمي الشمال الإفريقي من غاراتهم وأطماعهم، إنه تدبير العزيز العليم.

لقد أكرم الله (تعالىٰ) المرابطين وجنودهم بالدفاع والذود عن الإسلام والمسلمين وعن أعراضهم وأموالهم وعقائدهم التي لا تقدر بثمن.

وأعز الله الأمة بهم في زمن عصيب ورفع الله بهم لواء الإسلام في المغرب والأندلس.

واستطاعوا بجهودهم الجهادية أن ينقذوا إخوانهم في الدين من ظلم النصارىٰ وحقدهم الدفين، ويكبدوهم هزائم عسكرية أصبحت نبراسًا للأمة علىٰ مر العصور ومر الدهور.

أولا: تكالب النصارى على المسلمين وأطماع ألفونسو التوسعية:

بعد سقوط طليطلة بيد ألفونسو، بدا له أن كل شيء ممكن، وعمل علىٰ توحيد جهود النصارىٰ، واتفقوا علىٰ سحق دولة الإسلام في الأندلس، معتقدين أن قدرتهم تكفيهم لأداء هذه المهمة المقدسة لديهم.

وترك النصارىٰ خصوماتهم الداخلية، وتوحَّدت مدنهم، وكونوا جيشًا ضخمًا، واحتلوا مدينة «قورية» من بني الأفطس، ووصلوا إلىٰ ضواحي إشبيلية، وأحرقوا قراها وحقولها، وسارت فرقة من الفرسان إلىٰ شذونة، ثم اخترقت جزيرة طريف قرب مضيق جبل طارق، كما حاصر القشتاليون بمعاونة جند من الأرجونيين والقطلونيين الذي وضعهم ألفونسو السادس تحت قيادته قلعة سرقسطة الحصينة التي يضع سقوطها منطقة الأبير «إبرة» في يد النصارىٰ حتمًا، وتصبح الشواطئ الإسبانية المطلة علىٰ البحر الأبيض المتوسط عرضة لغاراتهم، يقول المؤرخ يوسف أشباخ: «وأثخن النصارىٰ في ولاية سرقسطة كلها بالنار والسيف، ولم يكن يردهم في الحرب أي اعتبار إنساني ما دام الأمر متعلقًا بأعداء الدين، كما يعتقدون، ولكن الحصون الإسلامية قاومتهم مقاومة شديدة ،وتلقىٰ المؤتمن بن هود وعدًا لوصول المدد

السـريع من إخوانه المسلمين فـي جنوب الجزيرة، بَيْـد أن النصارىٰ شـدَّدوا الضغط علىٰ سرقسطة يومًا بعد يوم، وخـشي المسلمون سقوط المعقل المنيع، بعد أن أصبحت قواتهم وأحوالهم في حالة يُرثىٰ لهـا، فقد كانت حتمًا دون قوىٰ النصـارىٰ، فتطلعوا إلىٰ عـون من الخارج، فاتجهت أبصـارهم إلىٰ قوة المرابطين المجاهدة في المغرب الأقصىٰ[١].

وأصبح ألفـونسو اللعين يضغط علىٰ ممالك المسلمين الكبـرىٰ المجاورة له، أي مملكتي بطلموس وإشبيليـة؛ فأرسل إلىٰ المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس يطلب منه أن يسلم إليه القلاع والحـصون المجاورة لحدوده مع تأدية الجزية، وضعف مسلمو الأندلس أمام هذه الضربات الماكرة، وأصبح سقوط الممـالك قـاب قـوسين أو أدنىٰ، وظل حكام الممـالك منغـمـسين بملذاتهم وفسادهم، يحاربون أنفسهم ويحالفون النصارىٰ ضد إخوانهم، ويؤدون لهم الجزية مقابل تركهم علىٰ عروشهم الـتي تزعزعت أمام ضرباتهم، واستخدم ملوك الطوائف المرتزقة من النصارىٰ لحماية أنفسهم ،بعد أن فقدوا الأمل في شعوبهم ورعاياهم بسبب ظلمهم وجـورهم وتعسفهم، وجعل الله بين أمراء الطوائف من التنافس والتدابر والتـقاطع والتحاسد والغيـرة ما لم يجعله بين الضرائر المترفـات والعشائر المتغـايرات، فلم تصل لهم في الله يد، ولا نشأ علىٰ التعاضد عزم[٢]، لذلك انهارت الروح المعنوية للشعب الأندلسي بعدما رأىٰ من أمرائه التـخاذل والخيانة حتىٰ كـاد هذا الشعب الصابر يفـقد القدرة علىٰ القتال ،بما كان يرهقه حُكامه من الضرائب للتنعم بالعيش الرغيد ودفع الجزية للنصارىٰ، وأصبح بـين حاكم مبتز وعدو متـربص، فقد ارتقىٰ عرش

---

(١) انظر: الزلاقة، ص (٣٢).

(٢) انظر: أعلام الأعلام، تحقيق د: عبادي، ص (٢٤١١).

إسبانيا النصرانية ألفونسو السادس بن فرديناند الذي كان يرغب في احتلال الجزيرة الإيبرية، وعادت حرب الاسترداد قوية على يده، وقد بدأ أعماله الحربية بمدينة طليطلة فحاصرها سبع سنوات حتى سقطت بيده في ٢٥ أيار ١٠٨٥ م مستهل صفر ٤٧٨ هـ، وقد أحدث سقوطها دويًا هائلاً في العالم الإسلامي الغربي، وبات المسلمون في حال من الضياع التام[١] ،لا يعرفون كيف يتصرفون، وبدؤوا بمغادرة المناطق المتاخمة لألفونسو، وأصبحت مملكة طليطلة خالية من السكان الذين هجروها إلى بطليوس هربًا من الاضطهاد وحفاظًا على دينهم، ورأى ألفونسو أن زمام الأندلس أصبح في يده، فضاعف غاراته على جميع البلاد؛ وتساقطت المدن والقرى بين يدي اللعين الحقود ،وأرسل إلى المتوكل بن الأفطس وصاحب بطليوس يطلب إليه تسليم بعض الحصون والقلاع المتاخمة لحدوده مع تأدية الجزية، ويتوعده بشر العواقب إذا رفض، فردَّ المتوكل بشجاعة ونبل معلنًا تحديه، وفي هذه الرسالة معان عميقه وفهم دقيق للموقف الحرج الذي أصبح فيه المسلمون، حيث قال المتوكل: «... ولو علم - أي ألفونسو - أن لله جنودًا أعز بهم كلمة الإسلام، وأظهر بهم دين نبينا محمد (ﷺ) وأعزه على الكافرين .. وأما تعييرك للمسلمين فيما وَهيَ من أحوالهم فبالذنوب المركوبة، ولو اتفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك أيَّ مُصاب أذقناك كما كان أبوك يتجرعه ... وبالأمس كانت قطيعة المنصور على سلفك أهدى ابنته إليه مع الذخائر التي كانت تفد كل عام عليه»[٢].

وأرسل المتوكل قاضيه العالم الفقيه أبا الوليد الباجي ليطوف على

---

(١) دولة المرابطين، ص (٦١).

(٢) دولة المرابطين، ص(٦٢).

حواضر الأندلس يدعو إلى لمّ الشعث وتوحيد الكلمة، ومدافعة العدو، ولكن مهمة القاضي لم تُكلل بالنجاح لأن ضعف الأمراء، وانهيار مقومات الدولة، وتخاذل الشعب فرفضت على الحكام استرضاء العدو، عندئذ كتب المتوكل إلى الأمير يوسف بن تاشفين[1]، يصور له محنة الأندلس ويستنصره[2]، «لما كان نور الهدى -أيدك الله- دليلك، وسبيل الخير سبيلك، ووضحت في الصلاح معالمك، ووقفت على الجهاد عزائمك، وصح العلم بأنك لدعوة الإسلام أعز ناصر، وعلى غزو الشرك أقدر قادر، وجب أن تُستدعى لما عضل الداء، وتُستغاث لما أحاط بالجزيرة من البلاء، فقد كانت طوائف العدو المطيف بأنحائها عند إفراط تسلطها واعتدائها ،وشدة كلفها واستشرائها تلاطف بالاحتيال، وتستنزل بالأموال، ويخرج لها عن كل ذخيرة، وتسترضى بكل خطيرة، ولم يزل دأبها التشكك والعناد، ودأبها الإذعان والانقياد ،حتى نفذ المطارف والتلاد، وأتى على الظاهر والباطن النفاد، وأيقنوا الآن بضعف المنن، وقويت أطماعهم في افتتاح المدن، واضطرمت في كل جهة نارهم، ورويت من دماء المسلمين أسنتهم وشفارهم، ومن أخطئ القتل منهم فإنما هم بأيديهم أسارى وسبايا، يمتحنونهم بأنواع المحن والبلايا، وقد هموا بما أرادوه من التوثب، وأشرفوا على ما أملوه من التغلب، فيا الله ويا للمسلمين أيَسْطُو هكذا بالحق الإفك، ويغلب التوحيد الشرك، ويظهر على الإيمان الكفر، ولا يكشف هذه البلية النصر، ألا ناصر لهذا المهتضم؟ ألا حامي لما استُبيح من الحرم؟، وإنا لله على ما لحق عرشه من ثل، وعزه من ذل، فإنها الرزية التي ليس فيها عزاء،

---

(١) تاريخ ابن الكردبوس ص (٨٨)، عن كتاب دولة المرابطين، ص (٦٢).

(٢) د: عدنان، دولة الإسلام في الأندلس ودول الطوائف، ص (٩١، ٩٢).

والبلية التي ليس مثلها بلاء، ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك - أعزَّك الله - بالنازلة في مدينة قورية -أعادها الله- وإنها مؤيدة للجزيرة بالخلاء، ومن فيها من المسلمين بالجلاء، ثم ما زال التخاذل يتزايد، والتدابر يتّساند حتى تخلصت القضية وتضاعفت البلية وتحصلت في يد العدو مدينة سرية، وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع في الحصانة والامتناع.

وهي من المدينة كنقطة دائرية تدركها من جميع نواحيها، ويستوي في الأرض بها قاصيها ودانيها، وما هو إلا نفس خافت وزمر داهق استولى عليها عدو مشترك وطاغية منافق، إن لم تبادروا بجماعتكم عجالاً، وتتداركها ركبانًا ورجالاً، وتنفروا نحوها خفافًا وثقالاً، وما أحضكم على الجهاد بما في كتاب الله فإنكم له أتلى، ولا بما في حديث رسول الله (ﷺ) فإنكم إلى معرفته أهدى، وكتابي إليكم هذا يحمله الشيخ الفقيه الواعظ يفصلها ويشرحها، ومشتمل على نكتة وهو يبينها ويوضحها، فإنه لما توجه نحوك احتسابًا، وتكلف المشقة إليك طالبًا ثوابًا، عوَّلت على بيانه، ووثقت بفصاحة لسانه، والسلام»[1].

ثانيًا: ألفونسو والمعتمد بن عباد:

لقد وقع المعتمد بن عباد في أخطاء كثيرة؛ حيث تعاهد مع ألفونسو ضد إخوانه المسلمين في طليطلة مقابل أن يسمح له ألفونسو أن يأخذ ممالك ممن حوله إلا أن النصارى - كما علمت - لا عهود لهم ولا مواثيق، فأراد ألفونسو أن يجد مبررًا لضرب الحصار على إشبيلية، واحتلال قرطبة، فطلب من المعتمد حصونًا وقرى ،الموتُ أحب إليه من تسليمها، ومارس ألفونسو مع المعتمد أنواعًا من الإذلال والتجني لتخرج المعتمد عن طوره ويلغي

---

(١) دولة المرابطين، ص (٦٣، ٦٤).

الاتفاقـية الهـزيلة بين الطرفين ،ويجد ألفـونسو والنصارىٰ مـا يبرر أفـعاله الانتقامية والوحشية.

فطلب ألفونســو من المعتمـد أن يسمح لزوجـته القمطجـية أن تلد في جامع قرطبة بناء علىٰ نصيحة الأساقفة، لأن الطرف الغربي كان موقع كنيسة قرطبة القديمة، وسأله أن تنزل بالزهراء مدينة الخليفة الناصر، لتكون ولادتها بين طيب نسيم الزهراء وفضيلة موضع الكنيسة المزعوم[1]، وأرسل إليه بعثة من خمسمائة فارس برئاسة اليهـودي ابن ساليب لأخذ الجزية، وتجرأ السفير وقل أدبه -إن كـان له أدب- وخرج علىٰ العـرف الدبلومـاسي، وأغلظ في القول للمعتمد وقال: «لا تعتقدوني بسيطًا لأقبل مثل هذه العملة المزيفة، لا آخذ إلا الذهب الصافي، السنة القـادمة ستكون مدنًا»[2]. فأخذت المعـتمد النخوة الإسلامية وصلب اليهودي، وقـتل البعثة، وبذلك يكون ألفونسو قد تحصَّل علىٰ ما يريده، وكان ألفونسو متجـهًا لحصار قرطبة ،فلما وصل خبر البعثـة أقسم بآلهته ليغـزون المعتمد في إشبـيلية، وحرَّك جيوشـه نحو غرب الأندلس ،فدمر كل القرىٰ والتخوم التي في طريقه نحو إشبيلية، وخرج في جيش من طريـق آخر يدمر ويخـرب ويقتل ويحـرق ويسفك ويسـبي،حتىٰ وصل إلىٰ جزيرة طريف أقصىٰ جنوب الأندلس علىٰ المضيق، وأدخل قوائم فرسه في البحر قائلاً: «هذا آخر بلاد الأندلس قد وطئته»[3].

ومن هنا أرسل إلىٰ الأميـر يوسف بن تاشفين: «أما بعد. . فـلا خفاء علىٰ ذي عينين أنـك أمير المسلمين ،بل الملة الإسـلاميـة، كما أنا أمـير الملة

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢، ٣) دولة المرابطين، ص (٦٦).

النصـرانيـة، ولم يخف عليك مـا عليـه رؤساؤكم بالأندلس مـن التخـاذل والتواكل، والإهمـال للرعية والإخـلاد إلى الراحة، وأنا أسومـهم الخسف، فأخرب الديار، وأهتك الأستار، وأقـتل الشبان وآسر الولدان، ولا عذر لك في التـخلف عن نصرتهم إن أمـكنك معـرفة هذا، وأنتم تعـتقـدون أن الله (تعالى) فرض على واحد منكم عشرة منا، وأن قتلاكم في الجنة وقتلانا في النار، ونحن نعتقد أن الله أظفرنا بكم وأعاننا عليكم، ولا تقدرون دفاعًا ولا تستطيعـون امتناعًا، وبلغنا عنك وأنك في الاحتـفال عن نية الاستقـبال فلا يدرى أكـان الجبن بك أم التـكذيب بما أنزل عليك، فـإن كنـت لا تسـتطيع الجواز فابعث إليَّ ما عندك من المراكـب نجوز إليك، أناظرك في أحب البقاع إليك؛ فإن غلبتني فتلك نعمـة جلبت إليك، ونعمة شملت بين يديك، وإن غلبـتك كـانت لي اليـد العليـا عليك، واسـتكملـت الإمـارة، والله يتم الإرادة»[١].

فكان رد يوسف بن تاشفين (رحمـه الله) «على ظهر الكتاب ذاته: «ما ترى لا ما تسمع إن شاء الله (تعالى)» وأردف:

ولا كـتب إلا المشـرفـيـة والقنا ولا رسل إلا الخـمـيـس العـرمـوم[٢]

وعاد ألفونسو المغرور المتكبر إلى إشبيلية حيث التقى بجيشه الآخر أمام قصـر المعتَمد بن عـباد بضفـة النهر، وحاصر المـدينة ثلاثة أيام، وكتب إلى المعتمد يسـأله أن يرسل إليه مروحة لطرد الذباب، ولم يتحـمل المعتمد هذه الإهانة فردَّ: «قرأت كـتابك وفهمت خيلاءك وإعـجابك، وسأنظر إليك في

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) تاريخ ابن الكردبوس، ص (٩١).

مراوح من الجلود اللمطية تروح منك ولا تروح عليك»[١].

ترك ألفونسو إشبيلية وسار نحو سرقسطة وحاصرها، كانت شبه ضائعة تنتظر مصيرها المؤلم، وصاحبها ابن هود لا يستطيع الدفاع كثيرًا، ثم أخذ بلنسية، وأعطاها القادر بن ذي النون صاحب طليطلة السابق، وهاجم مملكة المرية، ووصل القشتاليون إلى نابار قرب غرناطة، كان الخطر على الأندلس شديدًا، وقلة الشجاعة وانهيار الروح المعنوية تثبط العزائم، إذ أن ثمانين قشتاليًا هزموا أربعمائة من المرية[٢].

ثالثًا: اجتماع علماء قرطبة:

أمام هذا الضياع المفزع الذي وصلت إليه ممالك الأندلس؛ اجتمع علماء وفقهاء وزعماء قرطبة للتشاور فيما يجب عمله لإنقاذ مدينتهم، ووصل رأيهم بعد تبادل الآراء والأفكار إلى استدعاء المرابطين.

ورأى المعتمد أن هذا الرأي فيه صواب ونفاذ بصيرة؛ فجد في تقوية جيشه ورمم الحصون والقلاع، وقرر أن يطلب النجدة من إخوانه المسلمين، وتشاور في الأمر مع ابنه الرشيد وزعماء إشبيلية الذين أشاروا عليه بمهادنة ألفونسو والخضوع لشروطه، ولكن هذا الرأي لم يجد هوى في نفس المعتمد الذي خلا بابنه الرشيد وكان ولي عهده وقال له: «أنا في هذه الأندلس غريب بين بحر مظلم وعدو مجرم، وليس لنا ولي ولا ناصر إلا الله، وإن إخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ليس فيهم نفع، ولا يُرجى منهم نصرة، ولا حيلة إن نزل بنا مصاب أو نالنا عدو ثقيل وهو اللعين أذفونش، فقد أخذ طليطلة وعادت دار كفر وها هو قد رفع رأسه إلينا.

---

(١) الرياض المعطار، ص (٨٠) للحميري.

(٢) تاريخ ابن الكردبوس ص (٨٩)، نقلاً عن دولة المرابطين، ص (٦٦).

وإن نزل علينا طليطلة ما يرفع عنا حتى يأخذ إشبيلية، ونرى من الرأي أن نبعث إلى هذه الصحراء وملك العدوة نستدعيه للجواز إلينا ليدافع عنّا الكلب اللعين، إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا، فقد تلف لجاؤنا وتدبرت بل تبردت أجنادنا، وبغضتنا العامة والخاصة[١]. فأجابه الرشيد: يا أبت أتدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا؟ فقال: أي بني والله لا يسمع عني أبدًا أني أعدت الأندلس دار كفر ولا تركتها للنصارى، فتقوم عليّ اللعنة من على منابر المسلمين مثل ما قامت على غيري، والله خُرز الجمال عندي خير من خرز الخنازير»[٢].

ولما انتشر رأي المعتمد بن عباد في الأندلس حذره ملوك الطوائف من ذلك وقالوا له: «الملك عقيم والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد»، وعارض بشدة طلب العون من المرابطين عبد الله بن سكوت والي مالقة الذي كان يرى أن المرابطين أشد خطرًا من النصارى، ويجب الاعتماد على القوة الذاتية للأندلسيين[٣]، فأجابهم المعتمد: «رعي الجمال خير من رعي الخنازير»[٤] وأضاف: «إن دهينا من مداخلة الأضداد لنا فأهون الشرين أمر الملثمين»[٥].

وقال للذين لاموه على هذا الرأي: يا قوم إني في أمري على حالين: حالة يقين وحالة شك، ولا بد لي من أحدهما، أمَّا حالة الشك فإني إن

(١) دولة المرابطين، ص (٦٨).

(٢) المصدر السابق، ص (١٦٨).

(٣) المصدر السابق، ص (٦٩).

(٤) وفيات الأعيان (٧/ ١١٥).

(٥) المصدر السابق.

استندت إلى ابـن تاشفين أو إلى الأذفونش فـفي الممكن أنْ يفِيـا لي ويبقـيا عليَّ، ويمكن ألا يفعلا، فهذه حالة شك.

وأمَّا حـالة اليقين فـإني إن استندت إلى ابن تاشـفين فإني أُرضي الله، وإن استندت إلى الأذفـونش أسخطت الله (تعالى)، فإذا كـانت حالة الشك فيـها عارضة فـلأي شيء أدع ما يُرضي الله وآتي ما يسـخطه؟ حينئذٍ قـصر أصحابه عن لومه[1].

ولما عزم على طلب النصـرة من المرابطين؛ اتصل المعتمـد بالمتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس، وعبد الله بن بلقين الصنهاجي صاحب غرناطة، وطلب منهـما أن يرسل كـل منهمـا قاضي مـدينتـه حتى يكونوا وفـدًا إلى المرابطين لمقابلة الأمير يوسف بن تاشفين، وتشكلت البـعثة من قاضي قرطبة ابن أدهم، وقاضي بطليوس ابن مقانا، وقاضي غرناطة ابن القليعي، ومعهم وزير المعتـمد أبو بكر بن زيدون، وأسند المعـتمد إلـى القضاة وعظ الأمـير يوسف وترغيبـه في الجهاد، وأسند إلى وزيره إبرام العقود، وحملت الـبعثة معـها رسالة مكتـوبة من المعتمـد إلى الأمير يوسف مـؤرخة ٤٧٩هـ، وهذا نصها: «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلَّى الله على سـيدنا محمد وعلى آله وصحـبه وسلم تسليـمًا. . إلى حـضرة الإمام أمـير المسلمين ونـاصر الدين ومحيي دعوة الخليفة، الإمـام أبي يعقوب يوسف بن تاشفين، القائم بعظيم أكبـارها، الشاكـر لأجلالها المعـظم لما عظم الله من كريم مقـدارها، اللائذ بحرامها، المنقطع إلى سمو مجدها، المستجير بالله وبطولها محمد عباد سلام كريم يخص الحضرة المعظمة السامية ورحمة الله (تعالى) وبركاته.

كتب المنقطع إلى كـريم سلطانها من إشبـيلية في غرة جـمادي الأولى

---

(١) نفح الطيب (٦/ ٩١).

٤٧٩هـ/ ١٠٨٦ م وإنه أيَّد الله أميـر المسلمين ونصر به الديـن، فإنا ـ نحن العرب ـ في هذه الأندلس قد تَلفت قبائلنا، وتفـرق جمعنا، وتغيرت أنسابنا بقطع المادة عنا من ضيـعتنا؛ فصرنا شـعوبًا لا قبائل، وأشـتاتًا لا قرابة ولا عشـائر، فقلَّ نصرنا، وكثـر شُمَّاتُنا، وتولَّى علينا هذا العـدو المجرم اللعين ألفونسو وأناخ علينا بـطليطلة ووطئها بقدمه، وأسـر المسلمين، وأخذ البلاد والقلاع والحصون، ونحن أهل هذه الأندلس ليس لأحد منا طاقة على نصرة جاره ولا أخيه، ولو شاؤوا لفعلوا إلا إن الهواء والماء منعهم من ذلك، وقد ساءت الأحوال، وانقطعت الآمال، وأنت -أيدك الله- سيد حمير، ومليكها الأكبر، وأمـيرها وزعيمـها، نزعت بهمتي إليك واسـتنصرت بالله ثم بك، واستغثت بحرمكم لتجوز بجهاد هذا العدو الكافر ،وتُحيون شريعة الإسلام وتدينون على دين مـحمـد (ﷺ)، ولكم عنـد الله الثـواب الـكريم ،على حضـرتكم الساميـة السلام ورحـمة الله وبركاته ولا حـول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[١].

وأرسلت وفود شـعبية من الشـيوخ والعلماء رسائل تحث الأمـير على إنقاذ الأندلس.

وتأثر المرابطون لُمصـاب إخوانهم في الدين، وعـرض أميـرهم قضـية مسلمي الأندلس على أهل الحلِّ والعـقد عنده، وأجمعـوا على نصرة دينهم وإعزاز كلمة التـوحيد، وكان وزير يوسف ومستشـاره أندلسي الأصل اسمه عبد الرحمن بن أسبط أو أسباط، فنصحه المستشار بأن يطلب من المعتمد بن عـباد الجـزيرة الخـضراء لكي تكون آمنـة لعبـور الجيـش، ولحمـاية خطوط التمـوين، وقال له: إن الأمـر لله (تعالى) ولكم، وواجب على كـل مسلم

(١) دولة المرابطين ص (٧١).

إغاثة أخيه المسلم والانتصار له، واقتنع الأمير يوسف برأي وزيره في طلب الجزيرة الخضراء ،ليجعل فيها أثقال جيشه وأجناده ويكون الجواز بيده متى شاء، وقال الأمير يوسف لعبد الرحمن: صدقت يا عبد الرحمن، لقد نبهتني على شيء لم يخطر ببالي، اكتب إليه بذلك.

وكتب ابن أسبط إلى المعتمد بن عباد الكتاب التالي نصه: «بسم الله الرحمن الرحيم، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

من أمير المسلمين وناصر الدين معين دعوة أمير المؤمنين، إلى الأمير أكرم المؤيد بنصرة الله (تعالى) المعتمد على الله أبي القاسم محمد بن عباد أدام الله كرامته بتقواه، ووفقه لما يرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

فإنه وصل خطابك الكريم، فوقفنا على ما تضمنه من استدعائنا لنصرتك، وما ذكرته من كربتك، وما كان من قلة حماية جيرانك، فنحن يمين لشمالك ومبادرون لنصرتك وحمايتك، وواجب علينا في الشرع، وفي كتاب الله (تعالى)، وإنه لا يمكننا الجواز إلا أن تسلم لنا الجزيرة الخضراء؛ تكون لنا لكي يكون جوازنا إليك على أيدينا متى شئنا، فإن رأيت ذلك فأشهد على نفسك بذلك، وابعث إلينا بعقودها ونحن في أثر خطابك إن شاء الله (تعالى)».

أطلع المعتمد ابنه الرشيد على خطاب الأمير يوسف فقال له: يا أبت ألا تنظر إلى ما طلب؟ فقال له المعتمد: يا بني هذا قليل في حق نصرة المسلمين، ثم جمع المعتمد القاضي والفقهاء، وكتب عقد هبة الجزيرة الخضراء للأمير يوسف، وتسليمها له بحضورهم، وكان يحكمها يزيد الراضي بن المعتمد، فبعث إليه أمره بإخلائها وتسليمها للمرابطين لتكون

رهنًا بتصرف الأمير يوسف[1]. وبعد موافقة المعتمد تجهَّز يوسف لتلبية نداء إخوانه في العقيدة ،راغبًا في الأجر والمثوبة من الله بتأدية فريضة الجهاد، وكتب أمانًا لأهل الأندلس ألا يتعرض لأحد منهم في بلده وقال: «أنا أول مُنتدب لنصرة هذا الدِّين، لا يتولى الأمر أحد إلا أنا بنفسي» وأعلن النفير العام في قوات المرابطين، فأقبلت من مراكش، ومن الصحراء وبلاد الزاب، ومن مختلف نواحي المغرب يتوافدون على قيادتهم الربانية، وجهزت السفن لتحمل هذه القوات، وكان أول من نفَّذ أمر العبور قائد المرابطين النابغ داود ابن عائشة، وتمركز في الجزيرة الخضراء، وتتابعت كتائب المرابطين، وكانت معهم الجمال الكثيرة، وقد أثار وجودها دهشة الأندلسيين، لأنهم لم يكونوا يعرفونها من قبل، وقد أثر وجودها على الخيل فأخذت تجمح لدى رؤيتها.

ولما تكامل الجيش المرابطي بساحل الجزيرة الخضراء، ركب الأمير يوسف ومعه قادة من خيرة قادة المرابطين وصلحائهم، ولما ركب واستوى على السفينة رفع يديه نحو السماء مناجيًا: «اللهم إن كنت تعلم أن جوازنا هذا إصلاحًا للمسلمين فسهِّل علينا هذا البحر حتى نعبره، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نجوزه»[2]. وسهَّل الله عبورهم، وكان ذلك يوم الخميس بعد الزوال منتصف ربيع الأول ٤٧٩ هـ حزيران ١٠٨٦ م، وصلى الأمير يوسف بالجزيرة الخضراء صلاة الظهر، وقام أهل الجزيرة بضيافة المرابطين، وظهر فرحهم وسرورهم على وجوههم، وبدأ الأمير يوسف في تحصين الجزيرة الخضراء، ورمَّم أسوارها وما تصدَّع من أبراجها، وشحنها بالأسلحة

---

(١) دولة المرابطين، ص (٧٤)، مذكرات الأمير عبد الله صاحب غرناطة ص (١٠٢، ١٠٣).
(٢) الأندلس في عهد المرابطين، ص (٧٩).

والأطعمة وكلف مجموعة من جنوده بحراستها ،ثم ساروا نحو إشبيلية[١].

سارع المعتمد مع قادة قومه وشيوخ مدينته وفقهاء بلاده لاستقبال أمير المرابطين، ولما التقى بيوسف تعانقا طويلاً بمودة وحب وإخلاص وأخوة في الدِّين، وتذاكرا نعم الله عليهما، وتواصيا بالصبر والجهاد في سبيل نصرة دين المسلمين، وكان المعتمد مُحمَّلاً بالهدايا، وأصدر أوامره لعمال البلاد بجلب الأرزاق لضيافة الجيش المرابطي، وكان المعتمد كريمًا جوادًا باذلاً للخير.

واستعرض المعتمد الجيش المرابطي فرأى «عسكرًا نقيًا ومنظرًا بهيًا»[٢].

وواصل الأمير يوسف سيره نحو إشبيلية حيث كان يُستقبل بالترحاب مع جيشه المرابطي على امتداد الطريق حتى وصل حاضرة المعتمد، فأقام بها ثلاثة أيام للاستراحة، ثم قال للمعتمد: «إنما جئت ناويًا جهاد العدو حيثما كان توجهت»[٣].

وأثناء مقام الأمير يوسف في إشبيلية بعث الأمير يوسف إلى ملوك الأندلس يستنفرهم للجهاد[٤]، فكان أول من لبى الدعوة عبد الله بن بلقين الصنهاجي صاحب غرناطة الذي خرج إليه بأمواله ورجاله، وأخوه تميم صاحب مالقة، وأرسل ابن صمادح ابنه معز الدولة في فرقة من جيشه، وسار الأمير الرَّباني والقائد الميداني نحو بطليوس، فاستقبلهم صاحبها

---

(١) دولة المرابطين، ص (٧٥).

(٢) انظر: الحلل، ص (٧٩).

(٣) دولة المرابطين، ص (٧٩).

(٤) مذكرات الأمير عبد الله بن رير، ص (١٠٤).

المتـوكل بن الأفطس علـى ثلاث مـراحل من المدينة[١]، وقـدَّم لهم الـهـدايا والضيافة وعلف الدواب وظهر منه جود وكـرم، وأقام الأمير أيامًا عدة حتى يصل باقي المتطوعين ،إلا أن أكثرهم لم يصل لانشغـالهم بمدافعة النصارى، فتابع سيره الجهـادي حتى حطَّ رحاله عند سهل الزَّلاقة[٢]، وكان يبـعد عن بطليوس ثمانية أميال.

ونظم يوسف بن تاشفين جيشه، فجعل الأندلسيين جيشًا مستقلاً بذاته وأسند قيادته إلى المعـتمد بن عباد الذي تولى المقـدمة، وأُسندت الميمنة إلى المتوكل بن الأفطس، وجـعل أهل شرق الأندلس على الميـسرة، وباقي أهل الأندلس في الساقة.

أما الجيش المرابطي فتـولى داود بن عائشة قيادة فرسـانه، وأما سير بن أبي بكر فتـولى قيـادة الحشم، وبقيـة المرابطين مع حرس الأمـير يوسف بن تاشـفين إلى جـانب قـيـادته الجـيش الإسلامـي، وعسكـر المرابطون خلف الأندلسيين تـفصل بينهم ربوة بقـصد التمـويه، وكان تعداد جـيش المرابطين والأندلسيين أكثر من ٢٤ ألف جندي[٣] وتضاربت الروايات في ذلك.

وكان ألفونسـو مشغولاً بمحاصـرة سرقسطة، ولما وصله الخبر السـعيد ارتبك وجزع، وطلب من المستعين بن هود حـاكم سرقسطة أن يدفع له مالاً مقابل فك الحصار، فـامتنع ابن هود لما عَلِمَه من وصول المرابطين ،وقرر ألا يساعد ألفونسو بأي مال يستعين به على قتال المسلمين.

واضطر ألفونسـو لرفع الحصـار، ورجع مسرعًـا إلى طليطلة، وأعلن

---

(١) دولة المرابطين، ص (٨٠).

(٢) وفيات الأعيان، (ج٥/ ٢٩).

(٣) دولة الرابطين، ص (٨١).

الاستنفار العام، وحل نزاعه وخلافه مع بعض أمراء النصارى، وأرسل إلى من وراء جبال ألبرتات ،فأتته أفواج عديدة من النصارى متطوعة من أجل الحرب المقدسة، وجنَّد ألفونسو كل من يستطيع حمل السلاح صغيرًا أو كبيرًا، ونظم جيشه وقسمه إلى قسمين كبيرين: أسند قيادة الجيش الأول إلى ابن عمه الكونت غرسيا ورودريك، وما لبث غرسيا أن انسحب قبل بدء المعركة إثر خلاف مع ألفونسو الذي أبقى روديك في القيادة، واحتفظ بقيادة الجيش الثاني وعيَّن على جناحيه سانتشور أميرز والكونت برنجار ريموند، وتولى هو القلب[1]، وكان جيش ألفونسو يعتمد على الفرسان كمجموعة، وكان الفارس يلبس الزرد والدروع التي تغطيه من الرأس إلى القدم كأنه حصن من الحديد يتحرك لتزداد شجاعته وجرأته.

ولما استعرض جيشه نفخ فيه الشيطان غروره وكبرياءه، وقال قولة تدل على تجذُّر كفره وعتوه وفساد معتقده حيث قال: «بهذا الجيش ألقى مُحمدًا وآل محمد والإنس والجن والملائكة»[2].

«وكانت جموع الرهبان والقسيسين أمام جيش ألفونسو الملعون يرفعون الإنجيل والصلبان لإذكاء الحماس الديني في نفوس الجنود الذين بلغ عددهم أكثر من ستين ألفًا»[3].

وخرج ألفونسو بجيشه نحو بطليوس، وكتب إلى المعتمد بن عباد كتابًا جاء فيه: **«إن صاحبكم يوسف قد تعنَّى من بلاده وخاض البحار، وأنا أكفيه العناء فيما فيما بقى، ولا أكلفكم تعبًا، وأمضى إليكم وألقاكم في بلادكم**

---

(١) انظر: الحلل، ص (٣٤).

(٢) انظر: الأندلس في عهد المرابطين، ص (٨٣).

(٣) انظر: الكامل، (ج٦/ ٣٠٣).

رفقًا بكم وتوفيرًا عليكم»[١].

وقصد ألفونسو بذلك أن تكون المعركة خارج بلاده فإذا انهزم ولحقوا به يكون مسيرهم في أرضهم ولا بد من الاستعداد لاكتساح بلاده، وبذلك تنجو من التدمير، وإذا انتصر حدث ذلك في أرض أعدائه.

وصل ألفونسو إلى بطحاء الزلاقة وخيم على بعد ثلاثة أميال من الجيش المسلم يفصل بينهما نهر بطليوس يشرب منه المتحاربون[٢].

لقد انزعج ألفونسو من مجيء المرابطين انزعاجًا كبيرًا، حيث شعر بعودة الروح المعنوية إلى أهالي الأندلس الذين كان يسومهم سوء العذاب، يقتل رجالهم ويسبي نساءهم، ويأخذ منهم الجزية، ويحتقرهم ويزدريهم، ويتلاعب بمصيرهم، وينتظر الفرصة لاستئصالهم من الأندلس، لتعم النصرانية في سائر البلاد، ويرتفع الصليب على أعناق العباد، وإذا بالمرابطين يربكون مخططاته ويبددون أحلامه.

لذلك أراد ألفونسو أن يوجه ضربة قاصمة لمن كان السبب في استدعاء المرابطين وخصوصًا للفارس المغوار المعتمد بن عباد وقرينه المتوكل بن الأفطس، وكان يرى أن نصره يعتمد على تكبيل القوة الداخلية في الأندلس بالهزائم المتتالية والمتلاحقة.

أما المرابطون بعد ذلك سيرجعون إلى وطنهم الأصلي المغرب، وبالقضاء على الأندلس يسهل القضاء على المرابطين بسبب جهلهم بالطبيعة الجغرافية للبلاد.

ومما ساعد ألفونسو على أن يعيش في تلك الأحلام فتور معظم أهل

(١) الروض المعطار، ص (٨٨)، نفح الطيب (٦/ ٩٦).

(٢) ابن الكردبوس ص (٩٣)، روض القرطاس ص (٩٤)، نقلاً عن دولة المرابطين، ص (٨٤).

الأندلس بسبب ترفهم ونعيمهم وجبنهم وحبهم للحياة وهروبهم من الشهادة، كما أن أسباب الهزيمة نخرت في ذلك المجتمع المتهالك.

أما المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية والمتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس فقد قررا امتشاق الحسام، فمن ظفر عاش سعيدًا ومن مات كان شهيدًا [١].

وأما المرابطون الذين تربوا على تعاليم الإسلام وأصول أهل السنة والجماعة ما وصلوا إلى ما وصلوا إليه إلا بعد تربية عميقة، وتكوين فريد وإيمان راسخ ساهم علماء وفقهاء المالكية في ذلك، وعلى رأسهم الفقيد الشهيد ابن ياسين ،فقد مروا بمراحل صقلتهم وحروب زكتهم، وأصبحوا متشوقين إلى الاستشهاد معتمدين على رب العباد، آخذين بأسباب النصر المعنوية والمادية.

وكان رأي المرابطين أن المعركة في الأندلس مصيرية للأمة الإسلامية وبذلك لا يمكن الاعتماد على شعب مهزوم وقع في أسر المعاصي والذنوب.

كما أن انتصارهم في الأندلس يرعب أعداءهم وخصومهم في المغرب ويتم بنصرهم إنقاذ الإسلام والحضارة في ذلك البلد البعيد عن العالم الإسلامي.

كان ألفونسو يقود حربًا صليبية شرسة ضد المسلمين، ودعمته الكنيسة في روما بالجنود والعتاد والأموال، ورغَّبت بلدان الإفرنجة بالوقوف مع ألفونسو في حربه المقدسة ضد المسلمين.

إن الجانب المادي عند النصارى كان أعلى بكثير مما عند المرابطين، ولكن الجانب المعنوي عند المرابطين لا حدود له.

---

(١) انظر: دولة المرابطين، د. سعدون عباس، ص (٨٥).

وأرسل يوسف بن تاشفين إلىٰ ألفونسو كتابًا يعرض عليه الدخول في الإسلام أو دفع الجزية أو الحرب، ومما جاء في كتاب الأمير: «بلغنا يا أذفونش أنك نحوت الاجتماع بنا، وتمنيت أن تكون لك فُلك تعبر البحر عليها إلينا، فقد جزناه إليك، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك، وترىٰ عاقبة ادعائك (وما دعاء الكافرين إلا في ضلال)»[١].

ولما قرأ ألفونسو الكتاب زاد غضبه وذهب بعقله وقال: «أبمثل هذه المخاطبة يخاطبني وأنا وأبي نغرم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين سنة؟»[٢] وقال لرسول الأمير يوسف: «قل للأمير: لا تتعب نفسك أنا أصل إليك»[٣]، وإننا سنلتقي في ساحة المعركة[٤]، ومعنىٰ ذلك أن ألفونسو اختار الحرب، وحاول ألفونسو حامي حمىٰ النصرانية في إسبانيا أن يخدع المسلمين ويمكر بهم، فكتب إلىٰ الأمير يوسف في تحديد يوم المعركة فكتب إليه: «إن بعد غد الجمعة لا نحب مقابلتكم فيه لأنه عيدكم، وبعده السبت يوم عيد اليهود، وهم كثير في محلتنا، وبعده الأحد عيدنا، فنحترم هذه الأعياد، ويكون اللقاء يوم الاثنين» فكان جواب الأمير يوسف: «اتركوا اللعين وما أحب»[٥] فاعترض المعتمد وقال للأمير يوسف: «إنها حيلة منه وخديعة إنما يريد غدرنا فلا تطمئن إليه، وقصده الفتك بنا يوم الجمعة، فليكن الناس علىٰ استعداد

(١) وفيات الأعيان (٧/ ١١٦).
(٢) دولة المرابطين، ص (٧٨).
(٣) روض القرطاس، ص (٩٤).
(٤) الأندلس في عصر المرابطين، ص (٨٢).
(٥) الحلل الموشية، ص (٣٦).

له يوم الجمعة كل النهار»[1].

واستعد المسلمون لرصد تحركات النصارى وكان حدس المعتمد صائبًا صحيحًا، ورصدوا تحرك العدو نحوهم.

وانقض الجيش الذي يقوده رودريك بمنتهى العنف على معسكر المسلمين من الأندلسيين فتصدى فرسان المرابطين الذي يقودهم داود بن عائشة الذين أرسلهم يوسف بن تاشفين على عجل لدعم الأندلسيين، وصمد المرابطون أمام هجوم النصارى، واضطر النصارى إلى الارتداد إلى خط دفاعهم الثاني ،وظهرت من داود بن عائشة وجنوده كفاءة قتالية لم يعرف لها مثيل، واختار الله من المرابطين شهداء، واحتدم الصراع، وزحف ألفونسو ببقية جيشه، وأقرن زحفه بصياح هائل أفزع قلوب الأندلسيين قبل خوضهم المعركة، ولاذوا بالفرار ووجدوا أنفسهم أمام أسوار بطليوس للاحتماء بها، ولم يصمد منهم إلا فارس الأندلسيين وقومه «المعتمد بن عباد وأهل إشبيلية» وأبلى بلاءً عظيمًا وعقرت تحته ثلاثة أفراس، وأصيب بجروح بليغة، واستمرت المعركة الرهيبة، وصمد المعتمد مع داود بن عائشة حتى فلَّت السيوف، وتكسرت الرماح، وصبر المسلمون في المعركة صبرًا عظيمًا سُجِّل في صفحات المجد والعزة والكرامة في تاريخنا المجيد.

وبدأت قوة المسلمين تضعف وتتقهقر أمام ضربات النصارى الحاقدة، وأيقن ألفونسو ببلوغ النصر معتقدًا أن هذه هي قوة المسلمين المقاتلة التي ظهر الإعياء عليها، وأخذت موقف المدافعة، ولم يستغرق ألفونسو طويلاً في أحلامه حتى وثب جيش من المرابطين إلى ميدان المعركة أرسله الأمير يوسف بقيادة سير بن أبي بكر على رأس الحشم لمساندة القوات الإسلامية، فتقوَّت

---

(١) أعمال الأعلام، تحقيق العبادي، ص (٢٤٣).

بذلك معنوياتهم في معركة مالت إلى هزيمتهم، وزحف الأمير يوسف بحرسه المرابطي، وقام بعملية التفاف سريعة باغت فيها معسكر العدو من الخلف، ووصل إلى خيامه وأحرقها وأباد حرسها، ولم ينجُ منهم إلا القليل، وكانت طبول المرابطين تدق بعنف فترتج منها الأرض. ورغاء الجمال يتصاعد إلى السماء فبث الذعر في نفوس الأعداء وهلعت قلوبهم[١].

وذهل ألفونسو عندما رأى بعض حرس معسكره فارّين، وأتته الأخبار من داخل المعسكر باستيلاء المرابطين عليه، وأنه خسر حوالي عشرة آلاف قتيل[٢]، ووجد ألفونسو نفسه محاصرًا من المسلمين فاضطر للقتال متقهقرًا نحو معسكره المحروق، ولكن يوسف لم يترك له الفرصة لالتقاط الأنفاس، فانقضَّ عليه كالسيل، وقاتل ألفونسو عند ذلك قتال المستميت، وكان الأمير يوسف يبث الحماس في نفوس المسلمين قائلاً: «يا معشر المسلمين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين، ومن رُزق منكم الشهادة فله الجنة، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة»، وكان (رحمه الله) يقاتل في مقدمة الصفوف وهو ابن التاسعة والسبعين، وكأن العناية الإلهية كانت تحميه[٣]، وكان فقهاء المسلمين وصالحوهم يعظون الجنود ويشجعونهم على مصابرة أعداء الدّين، وفي هذا الجو الرهيب من القتال الذي دام بضع ساعات وسقط فيه آلاف القتلى، وغمر الدم ساحة المعركة عندما دفع الأمير حرسه الخاص من السودان إلى القتال، فترجل منهم أربعة آلاف كانوا مسلحين بدروق اللمط

(١) الحلل الموشية، ص (٤٢).

(٢) ابن الكردبوس، ص (٩٣).

(٣) الأندلس في عهد المرابطين، ص (٨٥).

وسيوف الهند ونزاريق الزان[١].

اندفعوا إلى المعركة اندفاع الأسود فحطموا مقاومة النصرانية، وتكسرت شوكتهم، وانقض أسد من أسود المسلمين على ألفونسو وطعنه في فخذه، ولاذ النصارى بالفرار، وتمنى ألفونسو الموت على العيش، ولجأ مع خمسمائة فارس من فرسانه إلى تل قريب ينتظر الظلام لينجو من سيوف المرابطين[٢].

ومنع يوسف جنوده من اللحاق بهم، وكانت مناسبة لألفونسو الذي تابع سيره مع الظلام إلى طليطلة، وصل إليها مغمومًا حزينًا كسيرًا جريحًا بعد أن فقد خيرة رجاله وجنوده وقادة جيشه.

وفقد ألفونسو في الزلاقة القسم الأعظم من جيشه، وأمر يوسف بضم رؤوس القتلى من النصارى، فعمل المسلمون منها مآذن يؤذنون عليها، واستشهد في تلك المعركة الخالدة جماعة من العلماء والفقهاء، قلَّما يجود الزمان بمثلهم منهم قاضي مراكش عبد الملك المصمودي، والفقيه الناسك أبو العباس بن رميلة القرطبي[٣]. وجمع المسلمون الأسلاب والغنائم التي تركها النصارى وراءهم في ساحة المعركة، وآثر الأمير يوسف بها ملوك الأندلس، وقد عرَّفهم أن هدفه الجهاد في سبيل الله ونصرة الإسلام[٤].

وأرسل الأمير يوسف إلى المغرب أخبار النصر المبين وهذا نص خطابه: «أما بعد، حمدًا لله المتكفل بنصر أهل دينه الذي ارتضاه، والصلاة والسلام على سيدنا محمد أفضل وأكرم خلقه، فإن العدو الطاغية لما قربنا من حماه

---

(١) الروض المعطار، ص (٩٢).

(٢) ملوك الطوائف، ص (٣١٤).

(٣، ٤) الروض المعطار، ص (٩٥).

وتوافقنا بإزائه بلغناه الدعوة، وخيرناه بين الإسلام والجزية والحرب، فاختار الحرب، فوقع الاتفاق بيننا وبينه على الملاقاة يوم الاثنين ١٥ رجب وقال: الجمعة عيد المسلمين، والسبت عيد اليهود، وفي عسكرنا منهم خلق كثير، والأحد عيدنا نحن، فافترقنا على ذلك، وأضمر اللعين خلاف ما شرطناه وعلمناه أنهم أهل خدع ونقض عهود فأخذنا أُهبة الحرب لهم، وجعلنا عليهم العيون ليرفعوا إلينا أحوالهم، فأتتنا الأنباء في سَحَر يوم الجمعة ١٢ رجب أن العدو قد قصد بجيوشه نحو المسلمين، يرى أنه قد اغتنم فرصته في ذلك الحين، فنبذت إليه أبطال المسلمين، وفرسان المجاهدين، فتغشَّته قبل أن يتغشاها، وتعدَّته قبل أن يتعداها، وانقضت جيوش المسلمين على جيوشهم كانقضاض العقاب على عقيرته، ووثبت عليهم وثوب الأسد على فريسته، وقصدنا برايته السعيدة المنصورة في سائر المشاهد مشتهرة ونظروا إلى جيوش لمتونة نحو ألفونسو، فلما أبصر النصارى راياتنا المشتهرة المنتشرة، ونظروا إلى مراكبنا المنتظمة المظفرة، وأغشتهم بروق الصفاح وأظلتهم سحائب الرماح، ونزلت بحوافر خيولهم رعود الطبول بذلك الفياح، فالتحم النصارى بطاغيتهم ألفونسو، وحملوا على المسلمين حملة منكرة؛ فتلقاهم المرابطون بنيات خالصة وهمم عالية، فعصفت ريح الحرب وركبت دائم السيوف والرماح، بالطعن والضرب، وطاحت المُهج وأقبلت سيل الدماء في هرج، ونزل من سماء الله على أوليائه النصر العزيز والفرج.

وولَّى ألفونسو مطعونًا في إحدى ركبتيه طعنة أفقدته إحدى ساقيه في ٥٠٠ فارس من ثمانين ألف فارس ومائتي ألف راجل قادهم الله على المصارع والحتف العاجل، وتخلَّص إلى جبل هنالك، ونظر النهب والنيران في محلته من كل جانب ،وهو من أعلى الجبل ينظرها شذرًا، ويحيد عنها

صبرًا، ولا يستطيع عنها دفعًا ولا لها نصرًا، فأخذ يدعو بالثبور والويل، ويرجو النجاة في ظلال الليل، وأمير المسلمين يحمد الله؛ قد ثبتت في وسط المعركة مراكبه المظفرة، تحت ظلال بنوده المنتشرة منصور الجهاد مرفوع الأعداء، ويشكر الله (تعالى) على ما منحه من نيل السؤال والمراد، فقد سرح الغارات في محلاتهم تهدم بناءها، وتصطلم ذخائرها وأسبابها، وتريه رأى العين دمارها ونهبها، وألفونسو ينظر إليها نظر المغشي عليه، ويعض غيظًا وأسفًا على أنامل كفَّيه، فتتابعت البهرجة الفرار، رؤساء الأندلس المهزومين نحو بطليوس والفار، فتراجعوا حذرًا من العار، ولم يثبت منهم غير زعيم الرؤساء والقوَّاد، أبو القاسم المعتمد بن عباس، فأتى أمير المسلمين وهو مهيض الجناح، مريض عنه وجراح، فهنأه بالفتح الجليل، وتسلل ألفنش تحت الظلام فارًا لا يهدى ولا ينام ،ومات من الخمسمائة فارس الذين كانوا معه بالطريق أربعمائة فلم يدخل طليطلة إلا مائة فارس، والحمد لله على ذلك كثيرًا.

وكانت هذه النعمة العظيمة والمنة الجسيمة يوم الجمعة ١٢ رجب ٤٧٩ هـ/ ٢٣ شهر أكتوبر ١٠٨٦ م .. العجمي[١].

وأرسل المعتمد إلى ابنه الرشيد في إشبيلية يزفُّ إليه البشرى بالنصر، وكان الناس بانتظار الأنباء على أحر من الجمر، وقد حمل الرسالة الحمام الزاجل وهي مقتضبة إذ لا تتعدى السطرين، هذا نصها: «اعلم أنه التقت جموع المسلمين بالطاغية ألفونسو اللعين ففتح الله للمسلمين وهزم على أيديهم المشركين والحمد لله رب العالمين، فأعلم بذلك من قبلك إخواننا المسلمين والسلام»، وقرئت الرسالة بمسجد إشبيلية فعمها السرور، ثم توالت

(١) انظر: الحلل الموشية، ص (٤٥ - ٤٧).

الكتب تفيض بأخبار النصر منها إنشاء الكاتب ابن عبد الله بن عبد البر النمري وفيه يحدد تاريخ المعركة وسيرها وما أظهره ألفونسو من الغدر والآخرة للصالحين[1].

وأصبح يوم الزلاقة عند المغاربة والأندلسيين مثل يوم القادسية واليرموك: «يوم لم يسمع بمثله من القادسية واليرموك، فياله من فتح ما كان أعظمه، يوم كبير ما كان أكرمه، فيوم الزلاقة قد ثبتت قدم الدِّين بعد زلاقها وعادت ظلمة الحق إلى إشراقها».

نتائج معركة الزلاقة:

كانت لمعركة الزلاقة نتائج مهمة من أهمها:

١ ـ رفع الروح المعنوية لأهل الأندلس ،وخصوصًا بعد أن أنقذ الله بها سقوط سرقسطة من سقوط محتم، وأزاح عن ملوك الطوائف وأمرائها كابوس النصارئ ومتطلباتهم التي لا تنتهي من الجزية وغيرها.

٢ ـ سقوط هيبة ملوك الطوائف أمام رعاياهم ،خاصة أنهم قد هزموا في بدء المعركة ولولا أن أكرمهم الله بالمرابطين لضاعت الأندلس.

٣ ـ امتناع الرعية عن دفع الضرائب المخالفة لتعاليم الإسلام وتعلقهم بالمرابطين.

٤ ـ مهدت الزلاقة إلى إسقاط دول الطوائف فيما بعد على يد منقذيهم.

٥ ـ ظهور نجم يوسف بن تاشفين والمرابطين في العالم أجمع.

٦ ـ انصياع قبائل المغرب التي كانت مترددة في ولائها وتنتظر فرصة الوثوب على المرابطين، وبذلك تكون نتيجة معركة الزلاقة أن جعلت تلك

---

(١) الحلل الموشية، ص (٤٧).

القبائل تخلد إلىٰ السكينة وأعلنت ولاءها التام.

٧ ـ عمت الأفراح أرجاء العالم الإسلامي في شرقه وغربه وأعتقت الرقاب وسر العلماء والفقهاء بهذا النبأ السعيد.

٨ ـ أصيب نصارىٰ الإسبان بهزيمة تعيسة أثرت في نفوسهم، وتحطمت آمالهم في الاستيلاء علىٰ أراضي المسلمين في الأندلس وإبعادهم.

٩ ـ جعلت النصارىٰ يُرتبون أمورهم ويوحدون صفوفهم، ويتنازلون عن صراعاتهم الداخلية.

وغير ذلك من النتائج المهمة التي غيرت مجرىٰ تاريخ الأندلس وبلاد المغرب.

بعد أن رتب الأمير يوسف أموره بعد معركة الزلاقة عاد إلىٰ إشبيلية، ودعا رؤساء الأندلس إلىٰ اجتماع عام، وطلب منهم الاتفاق والاتحاد ضد عدوهم المشترك الذي نخر فيهم بسبب اختلافهم؛ فأجابه الجميع بقبول وصيته وتحقيق رغبته، وترك ثلاثة آلاف جندي مرابطي للدفاع عن ثغور الأندلس بقيادة سير بن أبي بكر[1].

رابعًا: رجوع الأمير يوسف إلى المغرب:

لقد عدد المؤرخون أسباب رجوع يوسف إلىٰ المغرب وهو لم يجنِ ثمرة الانتصار بعد إلىٰ أسباب منها:

١ ـ وفاة ابنه الأمير أبي بكر الذي استخلفه علىٰ سبتة وكان مريضًا.

٢ ـ اضطراب الحدود الشرقية بسبب تحالف بني حماد مع عرب بني هلال وحاولوا غزو المناطق الحدودية التابعة للدولة المرابطية.

٣ ـ أراد أن يتفقد الولاة والحكام الذين تركهم في المدن والقرىٰ،

---

(١) انظر: الحلل الموشية، ص (٤٥ ـ ٤٧).

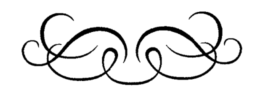
وينظر في أمور الرعية.

٤ ـ أراد أن يخرج من إلحاح مسلمي الأندلس الذين طلبوا منه تعقُّب ألفونسو وجنوده، حيث إنه رأى أن قواته لا تستطيع أن تسيطر على كل الأندلس لاتساع أراضيها.

٥ ـ خشي من إبراهيم بن أبي بكر بن عمر الذي زعم أنه له حق شرعي في استخلاف والده المجاهد الكبير.

إن نظرتي للتاريخ الإسلامي تؤكد لي معنى عظيمًا في حياة أمتنا، ألا وهو أن المعارك الفاصلة في تاريخها المجيد لا تكون إلا لقوم أقاموا الشريعة على مستوى الشعب والجيش والقادة، وهذا المعنى واضح في سيرة المرابطين الذين تدرجوا في مراحلهم وأقاموا شرع ربهم على أنفسهم.

ولهذا أرى أن من أقوى الأسباب على الإطلاق في نصر الله للمرابطين هو تمسكهم وتحكيمهم للقرآن والسنة، على مستوى شعبهم ودولتهم وجيشهم وقائدهم، ولذلك يهمنا كثيرًا أن نبين أثر تحكيم شرع الله في الأمم والشعوب والجيوش والأفراد.





المبحث الرابع

أثر الحكم بما أنزل الله على مجتمع المرابطين

تمهيد:

إن التأمل في كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) وفي حياة الأمم والشعوب يعطي العبد معرفة أصيلة بأثر سنن الله في الأنفس والكون والآفاق، وأوضح مكان لسُنن الله وقوانينه كتاب الله (تعالى)، قال (تعالى): ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء: ٢٦].

وسنن الله تتضح بالدراسة فيما صح عن رسول الله (ﷺ) بالمطالعة في سنتـه (ﷺ)، فقد كان يقتنص الفـرص والأحداث ليدل أصحابه على شيء من السنن، ومن ذلك أن ناقته (ﷺ) «العضباء» كانت لا تُسبق، فحدث مرة أن سبقها أعرابي على قعود له، فشقّ ذلك على أصحاب النبي (ﷺ)، فقال لهم (ﷺ) كاشفًا عن سنة من سنن الله: «حق على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه»[1].

وقد أرشدنا كتاب الله إلى تتبع آثار السنن في الأمكنة بالسعي والسير، وفي الأزمنة من التاريخ والسير.

قال (تعـالى): ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ۞ هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عـمـران: ١٣٧، ١٣٨].

---

(١) أخرجه البخـاري، كتاب الجهاد والسيـر، باب ناقة رسول الله (ﷺ) (ج٦/٨٦)، حديث رقم (٢٨٧٢).

وأرشدنا القرآن الكريم إلى معرفة السنن بالنظر والتفكُّر، قال (تعالى): ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ * فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلاَّ مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ﴾ [يونس: ١٠١، ١٠٢].

ومن خلال آيات القرآن يظهر لنا أن السنن الإلهية تختص بخصائص:

أولاً: أنها قَدَرٌ سابق: قال (تعالى): ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

أي أن حكم الله (تعالى) وأمره الذي يقدره كائن لا محالة، وواقع لا محيد عنه، ولا معدِّل، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن.

ثانيـاً: أنها لا تتحول ولا تتبدل: قال (تعالى): ﴿لَئِن لَّمْ يَنتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلاَّ قَلِيلاً * مَلْعُونِينَ أَيْنَمَا ثُقِفُوا أُخِذُوا وَقُتِّلُوا تَقْتِيلاً * سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٦٠ ـ ٦٢].

وقال: ﴿وَلَوْ قَاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الأَدْبَارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا * سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً﴾ [الفتح: ٢٢، ٢٣][1].

ثالثاً: أنها ماضية لا تتوقف: قال (تعالى): ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا إِن يَنتَهُوا يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ وَإِن يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

رابعاً: أنها لا تُخالَف ولا تنفع مخالفتها: قال (تعالى): ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الأَرْضِ فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ * فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِندَهُم مِّنَ الْعِلْمِ

---

(١) لقد استفدت من كتاب الحكم والتحاكم في خطاب الوحي للشيخ عبد العزيز مصطفى كامل في بيان أثر الحكم بما أنزل الله.

وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَحْدَهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ * فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ﴾ [غافر: ٨٢ ـ ٨٥].

خامسًا: لا ينتفع بها المعاندون، ولكن يتعظ بها المتقون: قال (تعالى): ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ * هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٧، ١٣٨].

سادسًا: أنها تسري على البر والفاجر، فالمؤمنون ـ والأنبياء أعلاهم قدرًا- تسري عليهم سنن الله، ولله سنن جارية تتعلق بالآثار المترتبة على من امتثل شرع الله أو أعرض عنه وبما أن المرابطين التزموا بشرع الله في كل شؤونهم ومروا بمراحل طبيعية في حياة الدول فإن أثر حكم الله فيهم واضح وبيِّن.

وللحكم بما أنزل الله آثار دنيوية وأخرى أخروية، أما الآثار الدنيوية التي ظهرت لي في دراستي لشعوب الملثمين التي قامت بهم دولة المرابطين أمور، منها:

أولاً: الاستخلاف والتمكين:

حيث نجد أن المرابطين -منذ زعيمهم عبد الله بن ياسين -حرصوا على إقامة شرع الله في أنفسهم وأهليهم، وأخلصوا لله تحاكمهم في سرِّهم وعلانيتهم، فالله (سبحانه وتعالى) قوَّاهم وشدَّ أزرهم حتى استخلفهم في الأرض، وأقام المرابطون شريعة الله في الأرض التي حكموها، فمكن لهم المولى (عز وجل) الملك، ووطأ لهم السلطان.

وهذه سنة ربانية نافذة لا تتبدل في الشعوب والأمم التي تسعى جاهدة وجادة لإقامة شرع الله (تعالى).

والمتأمل في القرآن الكريم يجد هذه السنة ماضية في الأفراد والشعوب

والأمم، فيوسف (عليه السلام) استُخلف في الأرض بعد أن ابتُلي فأبلى وظهر منه أنه كـان من المخلصين، وعندما قـال له الملك: ﴿إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ﴾ [يوسف: ٥٤] عرف أنه قد جاء أوان الاستخلاف، فاستعد لتبعته ونهض لحمل رسالته فقال: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]، وصار بهذا من أهل التمكين: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [يوسف: ٥٦].

وقـد بين الله (تعـالى) تحـقق سنة التـمـكين في بني إسـرائيل، قـال (تعالى): ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦].

وكان بعد وراثة الأرض والاستخلاف فـيها أن منَّ الله عليهم بالتمكين إنفاذًا لمشيـئته السابقـة، قال (تعالى): ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ * وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ [القصص: ٥، ٦].

وبذلك تتضح هذه السنة في القرآن الكريم كـما هي ملموسة في واقع الأمم والشعوب.

وقد خاطب الله (تعالى) المؤمنين من هذه الأمة واعدًا إياهم بما وعد به المؤمنين قبلهم، فقال (سبحانه) في سورة النور: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ﴾ [النور: ٥٥]. أي بدلاً عن الكفـار ﴿كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ من بني إسـرائيل[1] فإذا حـقق الناس الإيمان وتحاكموا إلى شريعة الرحمن، فستأتيهم ثمرة ذلك وأثره الباقي ﴿وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ

(١) انظر: تفسير الجلالين، ص (٤٦٦).

دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ ﴾ فتحقيق التحاكم إلى الدين يتحقق به الاستخلاف، وتحقيق الحكم به يوصل إلى الدين.

وهذا ما رأيته في دراستي للدولة السنية التي أقامها المرابطون.

ثانياً: الأمن والاستقرار:

كانت بلاد المغرب قبل وصول المرابطين دويلات متنازعة فيما بينها، بل بعض هذه الدويلات لها معتقدات تخرجها عن الملة، كما أن قبائل الملثمين كانت متناحرة فيما بينها، وصراعهم مع الزنوج لم يستقر، مما ولَّد لهم الخوف والإزعاج الشديد.

وبعد أن أكرم الله المرابطين بتوحيد قبائل صنهاجة، وساروا في جهادهم المجيد سيرة حسنة، وتوحد المغرب الأقصى كله، يسَّر الله لهم الأمن والاستقرار في تلك الربوع التي حكم فيها شرع الله.

حيث نجد أن دولة المرابطين بعد أن استُخلفت ومكَّن الله لها، أعطاها دواعي الأمن وأسباب الاستقرار حتى تُحافظ على مكانتها، وهذه سنَّة جارية ماضية ،ضمِن الله لأهل الإيمان والعمل بشرعه وحكمه أن ييسر لهم الأمن الذي ينشدون في أنفسهم وواقعهم، فبيده (سبحانه) مقاليد الأمور، وتصريف الأقدار، وهو مقلب القلوب، والله يهب الأمن المطلق لمن استقام على التوحيد وتطهر من الشرك بأنواعه.

قال (تعالى): ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام: ٨٢]. فنفوسهم في أمن من المخاوف ومن العذاب والشقاء إذا خلصت لله من الشرك صغيره وكبيره، إن تحكيم شرع الله فيه راحة للنفوس لكونها تمس عدل الله ورحمته وحكمته، إن الله (تعالى) بعد أن وعد المؤمنين بالاستخلاف ثم التمكين ،لم يحرمهم بعد ذلك من الأمن

والطمأنينة والبعد عن الخوف والفزع، قال (تعالى): ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا﴾ [النور: ٥٥]. وإن تحقيق العبودية لله ونبذ الشرك بأنواعه يحقق الأمن في النفوس على مستوى الأفراد والشعوب.

وهذا ما حدث لقيادات المرابطين وشعبهم الذي انقاد لمنهج رب العالمين.

ثالثاً: النصر والفتح:

إن المرابطين حرصوا على نصرة دين الله بكل ما يملكون، وتحققت فيهم سنة الله في نصرته لمن ينصره، لأن الله ضمن لمن استقام على شرعه أن ينصره على أعدائه بعزته وقوته، قال (تعالى): ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ * الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

يقول سيد قطب (رحمه الله): «وما حدث قط في تاريخ البشرية أن استقامت جماعة على هدى الله ،إلا منحها القوة والمنعة والسيادة في نهاية المطاف ،لإعدادها لحمل أمانة الخلافة في الأرض وتصريف الحياة.. إن الكثيرين ليشفقون من اتباع شريعة الله والسير على هداه، يشفقون من عداوة أعداء الله ومكرهم، ويشفقون من تألُّب الخصوم عليهم، ويشفقون من المضايقات الاقتصادية وغير الاقتصادية، وإن هي إلا أوهام كأوهام قريش يوم قالت لرسول الله (ﷺ): ﴿إِن نَّتَّبِعِ الْهُدَىٰ مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا﴾ [القصص: ٥٧]».

فلما اتبعت هدى الله سيطرت على مشارق الأرض ومغاربها في ربع

قرن أو أقل مـن الزمان»[١]. إن الله (تعالىٰ) أيد المرابـطين علىٰ الأعداء ومنَّ عليهم بالفتح، فتح الأراضي وإخضـاعها لحكم الله (تعالىٰ)، وفتح القلوب وهدايتها لدين الإسلام.

إن المرابطين عندما اسـتجابوا وانقـادوا لشريعة الله جلـبت لهم الفتح، واستنزلت لهم نصر الله.

إن الحكام والشعوب الإسلامـية التي تبتعد عن شريعـة الله تذل نفسها في الدنيا والآخرة.

إن مسؤوليـة الحكام والقضاة والعلماء في الدعـوة إلىٰ تحكيم شرع الله مسؤوليـة عظيمة يُسألون عنها يوم القيـامة أمام الله، قال ابن تيمـية (رحمه الله): «إذا حكم ولاة الأمر بغـير ما أنزل الله، وقع بأسـهم بينهم .. وهذا من أعظم أسباب تغيـر الدول ،كما جرىٰ هذا مرة بعد مـرة في زماننا وغير زماننا ،ومن أراد الله سعادته جعله يعتبر بما أصاب غيره، فيسلك مسلك من أيده الله ونصره، ويجـتنب مسلك من خذله الله وأهانه، فـإن الله يقول في كتـابه: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ إلـىٰ ﴿وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤٠، ٤١].

فقد وعد الله بنصر من ينصره، ونصـره هو نصر كتابه ودينه ورسوله، لا نصر مَن يحكم بغير ما أنزل الله ويتكلم بما لا يعلم»[٢].

رابعًا: العز والشرف:

إن عز المرابطين وشرفهم العظيم الذي سُطر في كتب التاريخ يرجع إلىٰ تمسكهم بكتـاب الله وسنة رسوله (ﷺ)، إن مَن يعتز بالانتـساب لكتاب الله الذي به تشـرُف الأمة، وبه يعلو ذكـرها وضع رجله علىٰ الطريق الصـحيح

---

(١) في ظلال القرآن، ص (ج٤/٢٤٠٧).

(٢) مجموع الفتاوى، ص (ج ٣٥/٣٨٨).

وأصاب سنة الله الجارية في إعزاز وتشريف من يـتمسك بكتابه وسنة رسوله (ﷺ)، قال (تعالى): ﴿ لَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلا تَعْقِلُونَ ﴾ [الأنبياء: ١٠].

قال ابن عباس (رضي الله عنهما) في تفسير هذه الآية: فيه شرفكم[١]، فهذه الأمة لا تستمد الشرف والعزة إلا من استمساكها بأحكام الإسلام، كما قال عمر ابن الخطاب (رضي الله عنه): «إنا كنا أذل قوم، فأعزنا الله بالإسلام، فمهما نطلب العز بغيـر ما أعزنا الله أذلنا الله»[٢]، فعـمر (رضي الله عنه) كشف لنا بكـلماته عن حقيقة الارتباط بين حال الأمـة عزًا وذلاً، مع موقفـها من الشريعـة إقبالاً وإدبارًا، فمـا عزّت في يوم بغيـر دين الله، ولا ذلت في يوم إلا بالانحراف عنه.

قال (تعالى): ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] يعني من طلب العزة فليعتز بطاعة الله (عز وجل)[٣].

قـال (تعـالى): ﴿ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨].

إنني عندما مررت بسيرة الإمام ابـن ياسين ذكرت وصفه بأنه ذو مهابة عظيمة في نفوس أتباعه ونال شرفًا وعزة في قومه.

وعندمـا مررت بسيـرة الإمام أبي بكـر بن عمر، ذكـرتُ أنه إذا ركب للجهاد ركب معه ٥٠٠ ألف من قومه يجاهدون معه.

وعندما ذكرت سـيرة الأمير يوسف بن تاشـفين ذكرت وصف له كأنه

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير، ص (ج٣/ ١٧٠).

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك في الإيمان (ج١/ ٦٢).

(٣) ابن كثير (ج٢/ ٥٢٦).

خُلق للزعامة.

ورأيت في سيرة هؤلاء الأبطال عزًا وشرفًا نالوه بالاستعلاء على شهوة النفس وبالاستعلاء على القيد والذُّل، كان استعلاؤهم على الخضوع الخانع لغير الله واضحًا في سيرتهم العطرة، كانت حياتهم خضوعًا لله وخشوعًا، وخشية لله وتقوى ومراقبة لله في السراء والضراء، وهذا هو سر عزهم وشرفهم في تاريخنا الإسلامي المجيد.

لقد عاش المرابطون في بركة من العيش، ورغد من الحياة الطيبة التي وصلو إليها بإقامة دين الله.

قال (تعالى): ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

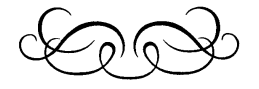
خامسًا: انتشار الفضائل وانزواء الرذائل:

لقد انتشرت الفضائل في عصر المرابطين وانحسرت الرذائل، فخرج جيل فيه نبل وكرم وشجاعة وعطاء وتضحية من أجل العقيدة والشريعة، متطلعًا إلى ما عند الله من الثواب، يخشى من عقاب الله؛ لقد استجاب ذلك المجتمع بشعبه ودولته وحُكامه إلى ما يحييه من الإيمان والقرآن وسنة سيد الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام.

إن آثار تحكيم شرع الله في الشعوب التي نفذت أوامر الله، واجتنبت نواهيه ظاهرة بينة لدارس التاريخ، وإن تلك الآثار الطيبة التي أصابت دولة المرابطين لهي سنن من سنن الله الجارية والماضية والتي لا تستبدل ولا تتغير، فأي شعب يسعى لهذا المطلب الجليل والعمل العظيم يصل إليه ولو بعد حين، ويرى آثار ذلك التحكيم على أفراده ودولته وحُكامه.

إن الغرض من الأبحاث التاريخية الإسلامية الاستفادة الجادة من أولئك

الذين سبـقونا بالإيمان في جـهادهم وعلمـهم وتربيتـهم وسعـيهم الدؤوب لتـحكيم شـرع الله، وأخذهـم بسنن التمـكين، وفقـهـه ومراعـاة التـدرج والمرحلية، والانتـقاء من الشعوب والارتقـاء بهم نحو الكمالات الإسـلامية المنشودة، إن الانتصـارات العظيمة في تاريخ أمتنا يجـريها الله (تعالى) على يدي من أخلص لربه ودينه، وأقام شرعه، وزكى نفـسه، ولهذا لم يأت فتح الزلاقة من فـراغ، لقد جـاهد المرابطون في الأندلس وحققـوا نصرًا عظيـمًا وفتحًا مبينًا في معركة الزلاقة وأنقذ الله بهم المسلمين.





المبحث الخامس

الأندلس بعد الزلاقة

بعد رجوع يوسف بن تاشفين إلى المغرب للأسباب التي ذكرتها تولى قيادة المرابطين القائد الميداني سير بن أبي بكر الذي واصل غاراته الناجحة مع أمير بطليوس على أواسط البرتغال الحالية مما يلي تاجة، وقد أثخنت قواته مع قوات المرابطين في تلك البقاع.

كما وجه المعتمد بن عباد ضربات موفقة بقيادته على عدة مدن حول طليطلة، ثم اتجه نحو أرض مرسية، حيث استقرت جموع الفرسان النصارى بقيادة الكنبيطور في أحد الحصون القريبة التي تشن غاراتها على مدن المسلمين وخاصة مدينة المرية إلا أن المعتمد انهزم واضطر أن يلتجئ إلى قلعة لورقة في كنف واليها محمد بن ليون ثم توجه نحو قرطبة تاركًا مرسية لمصيرها.

وبدأت قوات النصارى تتجمع حول ألفونسو الذي أربك مدن شرق الأندلس متخذين من حصن ليط المنيع الواقع على مسيرة يوم من لورقة مركزًا لشن الغارات على أراضي المسلمين.

فلم يمض عام واحد على هزيمة ألفونسو حتى عاد نشاطه وجيشه ونقل مقر العمليات على شرق الأندلس الذي خيمت عليه الفرقة السياسية.

بعكس غرب الأندلس الذي كانت تحكمه مملكتان قويتان هما مملكة إشبيلية وبطليوس تعضدهما فرقة من المرابطين قوامها ثلاثة آلاف رجل على

رأسها القائد العظيم سير بن أبي بكر[١].

تأذى أهل غرب الأندلس من النصارى الحاقدين فتوافدت وفودهم على الأمير يوسف وخصوصًا أهل بلنسية ومرسية ولورقة يصفون للأمير يوسف ما نزل بهم على أيدي النصارى الذين يتحكمون في حصن لييط.

وعبر المعتمد المجاز إلى المغرب وطلب من يوسف العبور، فاستجاب يوسف لرغبته، تمَّ جواز يوسف إلى الجزيرة الخضراء في ربيع الأول سنة ٤٨١ هـ (١٠٨٨م) ومن هناك كتب الأمير يوسف إلى جميع أمراء الأندلس يدعوهم إلى الجهاد، ثم تحرك الأمير يوسف على مالقة في صحبة أميرها تميم بن بلقين، كما لحق الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة، والمعتصم ابن صمادح، فضلاً إلى المعتمد بن عباد، بالإضافة إلى أمراء مرسية وشقورة وبسطة وجيان، ولم يتخلف من ملوك الطوائف سوى ابن الأفطس صاحب بطليوس، وتوجهت تلك الجموع لضرب الحصار على حصن لييط الذي كان يسكنه ألف فارس واثنا عشر ألفًا من المشاة من جنود النصارى الحاقدين أصحاب النزعة الصليبية الانتقامية، واستبسل النصارى في الدفاع عن الحصن وكانوا يخرجون ليلاً للانقضاض على المسلمين وإلحاق الخسائر بهم.

واستمرَّ الحصار بدون جدوى وظهرت صراعات ملوك الطوائف فيما بينهم ووصلت للأمير يوسف الذي ساءه ذلك كثيرًا.

وشكى المعتمد بن عباد للأمير يوسف خروج ابن رشيق صاحب مرسية عن الطاعة ودفعه الأموال لألفونسو السادس تقربًا إليه، وظهرت المشاكل بين أبناء بلكين عبد الله وتميم للأمير يوسف، وكأن لا عمل له إلا حل المشاكل والمنازعات بين الأطراف المتنازعة.

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس، ص (٦٢).

وتضايق الأمير يوسف من خيانة ابن رشيق الذي دفع أموالاً طائلة لألفونسو، وعرض الأمر على الفقهاء والعلماء الذين أفتوا بإزاحته من حكمه وتسليمه للمعتمد، واستغاث ابن رشيق بالأمير يوسف الذي أجابه بأنها أحكام الدين ولا يستطيع مخالفتها[١].

وأمر القائد سير بن أبي بكر باعتقاله وتسليمه للمعتمد مشترطًا عليه إبقاءه حيًّا[٢].

وكانت لفتوى الفقهاء عند قادة المرابطين مكانة عظيمة يضعونها فوق كل اعتبار.

وفرَّ جيش ابن رشيق من المعركة، ومنع الزاد على جيش المرابطين ومن معه من الأندلسيين الذين يحاصرون الحصن، فارتفعت الأسعار، ووقع الغلاء واضطربت الأحوال، وعندما علم ألفونسو بالخلافات التي وقعت حشد جيشًا من أجل فك الحصار على أتباعه في حصن لييط، فاضطر الأمير يوسف إلى فك الحصار خوفًا من معركة خاسرة غير مأمونة النتائج خاصة بعد الذي رآه من حُكام الأندلس وتآمرهم واتصالهم بالعدو، ورجع الأمير يوسف إلى لورقة وترك أربعة آلاف مرابطي بقيادة داود بن عائشة للمحافظة على منطقة مرسية وبعث بجنود إلى بلنسية بقيادة محمد بن تاشفين[٣].

واستطاع ألفونسو الوصول للحصن وأخرج من نجا من الموت، ورأى أن لا فائدة من الاحتفاظ بالحصن لأنه يتطلب حماية كبيرة معرضة لمصير سابقاتها فقرر إخلاءه وتدميره واسترجع ابن عباد الحصن بعد أن أصبح

(١) مذكرات الأمير عبد الله، ص (١١٢).

(٢) انظر: دولة المرابطين، ص (١٠٨).

(٣) ابن خلدون، العبر، (ج٦، ص ١٨٧).

أطلالاً.

لقد أيقن الأمير يوسف إن أمراء الأندلس لا يصلحون للحكم ولا يعتمد عليهم في جهاد، وبعد رجوع الأمير يوسف في عام ٤٨٢ هـ/ ١٨٤٩ م عرض الأمر على الفقهاء والعلماء فأفتوا له بضم الأندلس للمغرب.

وكان فقهاء وعلماء الأندلس يؤيدون ذلك، وكذلك فقهاء وعلماء المغرب والمشرق، وأرسل الإمام الغزالي وأبو بكر الطرطوشي[١] فتوى تؤيد عمله الجليل من أجل توحيد صفوف المسلمين.

يقول الغزالي في شأن أمراء الطوائف: فيجب على الأمير وأشياعه قتال هؤلاء المتمردة ولا سيما وقد استنجدوا بالنصارى [٢]، فقد أفتاه العلماء بجواز خلعهم وإزاحتهم، وبأنه في حل مما تعهد لهم به من الإبقاء عليهم في جوازه الأول، لأنهم خانوا الله بمعاهدتهم ألفونسو على محاربة المسلمين؛ وبالتالي فإن عليه أن يبادر إلى خلعهم جميعًا، فإنك إن تركتهم وأنت قادر عليهم، أعادوا بقية بلاد المسلمين إلى الروم•وكنت أنت المحاسب بين يدي الله[٣]، وكان ممن استفتى في هذا الموضوع الفقيه يوسف بن عيسى المعروف بأبي الملجوم[٤].

وطلب القضاة والفقهاء من يوسف أن يرجع ويوحد البلاد بالقوة، لتدخل تحت الخلافة الإسلامية في بغداد.

---

(١) المصدر السابق.

(٢) رسائل أبي بكر بن العربي، تحقيق د. عصمت دندش ص (١٩٨).

(٣) الاكتفاء لابن الكردبوس، ص (١٠٦).

(٤) الأثر السياسي للعلماء في عصر المرابطين، محمد بن بيّة، ص (١٥٥).

لقد كان ملوك الطوائف يهتمون بمصالحهم الخاصة لا ينظرون إلى عزة أمتهم حتى وصفهم ابن حزم بقوله: «لو وجدوا في اعتناق النصرانية وسيلة لتحقيق أهوائهم ومصالحهم لما ترددوا»[١].

وكان المسلمون في الأندلس يتمنون أن ينضموا إلى دولة المرابطين وعبَّر عن ذلك فقهاؤهم وعلماؤهم وبرز الفقيه القاضي ابن القلاعي «قاضي غرناطة» الذي توطدت العلاقة بينه وبين يوسف بن تاشفين منذ ذهاب أول بعثة إلى المغرب لطلب النجدة، إذ كان أحد أعضائها وكان يرى في الأمير يوسف صلاحًا وعدلاً وحزمًا.

حاول الأمير عبد الله ابن ملك غرناطة أن يتخلص منه فاعتقله، ثم اضطر إلى إطلاق سراحه، فهرب إلى قرطبة، ومن هناك اتصل بالأمير يوسف وأطلعه على خفايا من الأمور، وأفتى بخلع ملوك الطوائف وتفاعل مسلمو الأندلس مع هذه الفتوى الموفقة[٢].

---

(١) محمد بن عبد الله عنان: دول الطوائف، ص (٤٠٦)، نقلاً عن رسالة ابن حزم.

(٢) دولة المرابطين، ص (١١٣).





المبحث السادس

فتوى في جواز ضم الأندلس بالقوة والقضاء على ملوك الطوائف

أرسل الإمام أبو بكر بن العربي المالكي إلى الإمام الغـزالي كتابًا يشرح فيه موقف ملوك الطوائف بالأندلس من حـركة يوسف بن تاشفين الجهادية، ويطلب منه فتيا في ذلك، قال الإمـام أبو بكر بن العربي: «وكان أشهر من لقينا من الـعلماء في الآفاق، ومن سـارت بذكره الرفـاق، ولطول باعه في العلم ورحب ذراعـه، الإمـام أبو حـامـد بن مـحـمـد الطوسي الغـزالي، فاستدعـينا منه فتيا وكتابًا، واخـتصرت لفظ الفتيا لوقت ضـاق عن تقييدها لكن أنبه على مـعناها وهو: في علم الإمام مـا ذكر في وصف خلال أمـير المسلمين وناصر الدِّين أبي يعقوب يوسف بن تاشـفين أمير المغربين الأندلس والعدوة، ومـا أوضحت لديه من إعـزاز الدِّين، والذب عن المسلمين، وهو حميري النسب ومعه المرابطون، وقد وقـفوا أنفسهم على الجهاد، وقد كانت جزيرة الأندلس قـد تملكها من تاريخ ابتـداء الفتنة سنة أربعمـائة، عدة ثوار تسوروا على البلاد، فـضعف أهلها عن مدافـعتهم، وتلقَّبـوا بألقاب الخلفاء وخطبوا لأنفسهم، وضربوا النقود بأسـمائهم، وأثاروا الفتنة بينهم لرغبة كل واحـد منهم في الاستـيلاء على صـاحبـه، واستـبانوا الفُـسَّاق في الأرقـاء والصنائع الطلقاء في مـحاربة بعضهم بعـضا، واستنجدوا بالنصـارى عندما اعتقـد كل واحد منهم أنه أحق من صاحبه، وعنـد ذهاب شوكة المسلمين، وحينمـا انكشف للنصارى ضعف المسلمين، وعلمـوا المداخل والمخارج إلى بلاد المسلمين، طلبوا المعاقل وأخـذوا بالحرب كثيرًا منها من غـير مؤونة ولا

مشقة، ثم لجأ الباقي من المسلمين إلى المرابطين واستصرخوهم فلباهم أمير المسلمين ووصل إلى البحر، فاستاء بعض الرؤساء وفاءً للمشركين، وحقداً على المسلمين في استدعائهم له، ووصل الأمير إلى غرب الأندلس فمنحه الله نصرًا، وألحم الكفار السيف، ثم عادوا الجواز في العام الثالث من هذا الفتح فتهيبه العدو، وتحصن منه، ولم يخرج للقائه مع تثاقل الرؤساء عنه، وعثر لأحدهم على خطاب يشجع العدو على اللقاء، واستولى على من قدر عليه من الرؤساء من البلاد والمعاقل، وبقيت طائفة من رؤساء الثغر الشرقي من جزيرة الأندلس، حالفوا النصارى أو صاروا معه إلبًا، ودعاهم أمير المسلمين إلى الجهاد، والدخول في بيعة الجمهور، فقالوا: لا جهاد إلا مع إمام من قريش، ولست به، أو مع نائب عن الإمام، وما أنت ذلك، فقال: أنا خادم الإمام العباسي، فقالوا له: أظهر لنا تقديمه إليك، فقال: أوليست الخطبة في جميع بلادي له؟ فقالوا: ذلك احتيال. ومردوا على النفاق، فهل يجب قتالهم؟ وإذا ظفر بهم كيف الحكم في أموالهم؟ وهل على المسلم حرج في قتالهم؟ وهل على الإمام العباسي أن يبعث بمنشور يتضمن تقديمه له على جهادهم، فإنهم إنما خرجوا عليه بأن الأمير خادمه، وهو يخطب له على أكثر من ألفي منبر، وتضرب السكة باسمه إلى غير ذلك، ومتى وصف نفسه قال: لست مستبدًا وإنما خادم أمير المؤمنين المستظهر، وهذا أشهر أن يؤكد بالتحلية، وأظهر من أن يجدد بالتزكية.

فللشيخ الإمام الأجل الزاهد والأوحد أبي حامد أتم الأجر، وأعم الشكر في الإنعام بالمراجعة في هذا السؤال إن شاء الله (تعالى)[1].

---

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب، د. أحمد العبادي، ص (٤٧٩ ـ ٤٨٠).

أولا: فتوى الإمام الغزالي في موقف كل من يوسف بن تاشفين وملوك الطوائف والخلافة العباسية:

فأجاب الإمام الغزالي (رحمه الله): «لقد سمعت من لسانه وهو الموثوق به الذي يستغنى عن شهادته عن غيره وعن طبقة من ثقاة المغرب الفقهاء وغيرهم، من سيرة هذا الأمير - أكثر الله من الأمراء أمثاله - ما أوجب الدعاء لأمثاله، ولقد أصاب الحق في إظهار الشعار الإمامي المستظهري - حرس الله على المستظهرين ظلاله - وهذا هو الواجب على كل ملك استولى على قطر من أقطار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، فعليهم تزيين منابرهم بالدعاء للإمام الحق، وإن لم يكن بلغهم صريح التقليد من الإمام، أو تأخر عنهم ذلك لعائق، وإذا نادى الملك المستولى بشعار الخلافة العباسية، وجب على كل الرعايا والرؤساء الإذعان والانقياد، ولزمهم السمع والطاعة، وعليهم أن يعتقدوا أن طاعته هي طاعة الإمام، ومخالفته هي مخالفة الإمام، وكل من تمرد واستعصى وسل يده عن الطاعة، فحكمه حكم الباغي، وقد قال (تعالى): ﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَىٰ فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الحجرات: ٩]. والفيئة إلى أمر الله، الرجوع إلى السلطان العادل المتمسك بولاء الإمام الحق المنتسب إلى الخلافة العباسية، فكل متمرد على الحق فإنه مردود بالسيف إلى الحق، فيجب على الأمير وأشياعه قتال هؤلاء المتمردة عن طاعته، ولا سيما وقد استنجدوا بالنصارى المشركين وأوليائهم، وهم أعداء الله في مقابلة المسلمين الذين هم أولياء الله، فمن أعظم القربات قتالهم إلى أن يعودوا إلى طاعة الأمير العادل المتمسك بطاعة الخلافة العباسية، ويتركوا المخالفة، وجب الكف عنهم، وإذا قاتلوا لم يجز أن يُتَتَبَّعَ

مـــدبرهـــم، ولا أن يُذفف[1] على جريحــهم، بل متى ســقطت شوكــتهم وانهزموا، وجب الكفُّ عنهم، أعني عن المسلمين منهم دون النَّصارى الذين لا يبقى لهم عهد مع التشاغل بقــتال المسلمين، وأما ما يظفر به من أموالهم فمردود عليــهم أو على وريثهم، وما يؤخذ من نســائهم وذراريهم في القتال مهدرة لا ضــمان فيها وحكمــهم في الجملة في البغي على الأميــر المتمسك بطاعة الخلافة، والمستولى على المنابر والـبلاد بقوة الشوكة حكم الباغي على نائب الإمام، فإنه وإن تأخر عنه صريح التــقليد لاعتراض العوائق المانعة من وصول المنشور بالتــقليد فهو نائب بحكم قــرينة الحال، إذ يجب على الإمام المصر أن يأذن لكل إمــام عادل استــولى على قطر من أقطار الأرض، في أن يخطب عليه، وينادى بشعاره ويحمل الخلق على العدل والنصفة، ولا ينبغي أن يظن بالإمام توقف في الرضا بذلك والإذن فيه.

وإن توقف في كتبــه المنشور، فالكتب قد يعوق عن إنشائهــا وإيصالها المعاذير، وأمــا الإذن والرضا بعدمــا ظهر حال الأميــر في العدل والسيــاسة وابتغاء المصلحة للتفويض والتعيين فلا رخصة في تركه، وقد ظهر حال هذا الأميــر بالاستفــاضة ظهورًا لا شك فــيه، وإن لم يكن عن إيصــال الكتاب وإنشائه عائق، وكانت هذه الفــتنة لا تنطفئ إلا بأن يصل إليهم صرح الإذن والتقليد بمنشور مقرون بما جــرت العادة بمثله في تقليد الأمراء، فيجب على حضرة الخلافة بذلك ذلك. فـإن الإمام الحق عاقلة أهل الإسلام، ولا يحلُّ له أن يترك في أقطار الأرض فــتنة ثائرة إلا ويسعى في إطفــائها بكل ممكن، قال عمر (ﷺ): «لو تركت جرباء على ضفة الفرات، لم تطل بالهناء، فأنا المسئــول عنها يوم القيــامة» قال سلــيمان بن عــبد الملك يومًا وقــد أحدق به

(١) لا يذف: لا يجهز.

الناس: «قد كثر الناس» فقال عمر بن عبد العزيز: «خصماؤك يا أمير المؤمنين» يعني أنك مسئول عن كل واحد منهم إن ضيعت حق الله فيهم أو أقمته، فلا رخصة في التوقيف عن إطفاء الفتنة في قرئ تحوي عشرة، فكيف في أقاليم وأقاليم إلا أن يعوق عن ذلك عائق، ويمنع منه مانع، المواقف القدسية الإمامية المستظهرية حرس الله جلالها أبصر بها، ونحن نعلم أن لا نستجيز التوقف عن إطفاء هذه الفتنة إلا لعذر ظاهر وجب على أهل الغرب أن لا يعتقدوا في حضرة الخلافة إلا ذلك، فإن المسافة إذا بعدت وتخللها المارقون عن ربقة الحق، ولم يبعد أن يقتضي الرأي الشريف صيانة الأوامر الشريفة عن أن تمد إليها أعين الدولة فضلاً عن أيديهم، وأما من يستجيز التوقف فيها من غير عذر عن التقليد لأمير قد ظهرت شوكته وعرفت سياسته، وتناطقت الألسن بعدله، ولم يعرف في ذلك القطر من يجري مجراه، ويسد في هذا الحال مسده، فهذا اعتقاد فساد في حضرة الخلافة حاشاها من أن تُنسب إلى قصور، أو تقتضي في نصرة أهل العدل المتمسكين بخدمتها، والمعتصمين بعروتها، والقائمين في أقطار الأرض بإنفاذ شعائرها وأوامرها المعلومة بقرائن الأحوال، فهذا حكم كل أمير عادل في أقطار الأرض، وحكم من بغى عليه، والله أعلم[1].

يتضح لي من فتوى الإمام الغزالي أن رأيه في قتال يوسف بن تاشفين لملوك الطوائف مبني على كون أولئك الملوك من البغاة والخارجين عن سلطة الدولة المرابطية التابعة للخلافة الإسلامية.

وبهذا يتضح أن الفقهاء والعلماء رأوا ضرورة ضم الأندلس لقيادة المغرب الأقصى بعد أن فرَّط أمراء الأندلس في أمور الشرع ومصالح الرَّعية

(١) انظر: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، د. أحمد عبادي، ص (٤٨٤).

وحالفوا النصارى ضد إخوانهم المسلمين.

ولا شك في أن ما فعله الأمير يوسف ضد ملوك الطوائف صحيح من الناحية الشرعية والاستراتيجية العسكرية والمنطلقات السياسية.

بل في رأيي أن وجود ملوك الطوائف مفسدة عظيمة، والسعي لإزالتهم خطوة نحو توحيد الصفوف، ونجد كُتَّابًا من الغرب وأذيالاً لهم من أبناء المسلمين يصفون ما فعله الأمير يوسف ضد ملوك الطوائف بأنه خروج عن الإنسانية، ودليل على الهمجية، حسب وجهة نظرهم المغشوشة، وتصوُّرهم المغلوط، أما بالنسبة للمؤرخ المسلم فإن ما قام به يوسف يعتبر عملاً عظيمًا قدمه للأمة، وحفظ به الإسلام في الأندلس من انهيار محقق، وضبط الأمور بعزم وحزم بعد فوضى وضياع وخنوع واستسلام مارسه ملوك الطوائف دون اهتمام بدين أو شعب أو عقيدة.

لقد تميز يوسف بن تاشفين بوفائه التام للعهود، وابتعاده عن الأطماع الدنيوية، وحرصه على إعزاز الدِّين، وإزاحة العوائق التي تحول دون وحدة المسلمين، ولذلك أقدم على الخطوة المباركة من أجل توحيد الأندلس، وضمها تحت قبضة دولته الميمونة التابعة للخلافة العبَّاسية السُّنية.

إن كثيرًا من الحكام المعاصرين المتسترين بالدِّين، والذين يحالفون النصارى الحاقدين واليهود الماكرين وأشياعهم وأتباعهم الكافرين واجب على الدولة الإسلامية السُّنية الفتية أن تعمل على تخليص المسلمين من قبضتهم وتضمها إليها وتسعى من أجل تحقيق ذلك بكل الأمور الشرعية المعروفة.

وإذا تعذر وجود دولة سُنية لها هموم إسلامية وتطلعات شرعية فعلى الحركات الإسلامية أن توحد صفوفها للوصول إلى هذا الهدف المنشود، ومن ثم السعي لتوحيد الأمة تحت دولة إسلامية تقوم على عقيدة التوحيد،

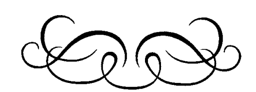
وتحكمها شريعة الرب المجيد، وإذا ما وصلت أي حركة معاصرة إلى ذلك الهدف المذكور تجد نفسها تحتاج إلى فتاوى شرعية وتجارب لتستأنس بها في مسيرتها المباركة، ولذلك أرى من الفائدة العميمة والخبرة الرشيدة دراسة الدول الإسلامية التي قامت، واجتهاداتهم في الحروب، وتربيتهم للشعوب، لنسترشد بها ولنطورها على حسب متطلبات المرحلة التي نمر بها.

ولذلك نجد أن الأمم عمومًا عندما تعد طلائع قيادية تهتم بدراسة الشعوب والحركات التحررية، والثورات الإنسانية لتكون رصيدًا لأولئك الذين يعدون ويربون على قيادة أمتهم في المستقبل المنظور.

إن العقلية الضيقة المتحجرة عندما تكون في سُدة القيادة لا تستطيع أن ترتقي بجنودها، وتجد نفسها تصطدم اصطدامًا عنيفًا مع مستجدات الحياة ومشاكلها المعقدة.

إن تجارب التاريخ الإسلامي تُكسب الطلائع القيادية للحركة الإسلامية المعاصرة خبرات مهمة، في مجال البناء والحركة والتنظيم والتكوين والتنفيذ والتمكين.

إن دروس التاريخ تعلمنا أن العلماء الربانيين، والفقهاء العاملين لهم مكانة في نفوس شعوبهم، ومهابة عند حكامهم، ولفتاويهم شأن عظيم في شؤون الحكم والدول والحروب وعزل الملوك وتولية غيرهم... إلخ.





المبحث السابع

العبور الثالث للأمير يوسف بن تاشفين للأندلس

بعد طلب العلماء والفقهاء من الأندلس والمغرب والمشرق من الأمير يوسف أن يضم الأندلس إلى دولة المرابطين الفتية التابعة للخلافة العباسية السنية، عبر الأمير يوسف بقوة ضخمة عبرت من سبتة إلى الجزيرة الخضراء وسار على رأس جيشه إلى طليطلة، وأرسل فرقًا من جيشه نحو مختلف المدن، وسار بنفسه نحو مدينة غرناطة.

واستطاع أن يفتح غرناطة بعد شهرين من حصارها واعتقل أميرها عبد الله بن بلكين الصنهاجي الذي تحالف مع النصارى من أجل أملاكه، ثم أرسله أسيرًا إلى المغرب، واستقر في أغمات بالقرب من مراكش[1].

وحاول المعتمد بن عباد والأفطس أن يثنيا الأمير يوسف عن عزمه، ولكنه رفض مقابلتهما، وأيقنا أن زوالهما قريب.

وألقى المرابطون القبض على تميم بن بلكين والي مالقة وأُرسل إلى إفريقية، ثم رجع الأمير يوسف إلى سبتة، وتولى القيادة السياسية والعسكرية القائد المحنك سير بن أبي بكر، وبدأ الأمير يوسف في إرسال الجيوش من المغرب إلى الأندلس للقضاء الكلي على ملوك الطوائف، وأصبحت القوة المرابطة في الأندلس قوة ضاربة لا يستطيع أحد الصمود أمامها، وقسم الأمير يوسف جيش المرابطين إلى أربعة أقسام:

١ - جيش بقيادة سير بن أبي بكر توجَّه إلى إشبيلية.

---

(١) انظر: معركة الزلاقة، ص (٦٢).

٢ ـ وجيش سار إلى قرطبة بقيادة أبي عبد الله بن الحاج وواليها آنذاك ولد المعتمد الفتح أبو النصر.

٣ ـ وسار جرور اللمتوني إلى أرض رندة بجيش ثالث، وفيها ولد آخر للمعتمد وهو يزيد الراضي بالله.

٤ ـ وسار أبو زكريا بن واسندوا إلى المرية التي فيها المعتصم بن صمادح، صديق المعتمد الحميم.

وبقي يوسف بن تاشفين في سبتة على رأس جيش احتياطي لكي يقوم عند الحاجة بإنجاد هذا الجيش أو ذاك[1].

وسقطت قرطبة في يد المرابطين في صفر ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م بعد مقاومة عنيفة من ابني المعتمد اللذين قُتلا «المأمون ويزيد الراضي» ووصل المرابطون إلى ضواحي طليطلة مهددين ملوك النصارى. واستولوا على قلعة رباح التي فتحت الطريق أمامهم إلى قشتالة، واشتد الخوف بالمعتمد بن عباد الذي أرسل إلى ألفونسو يستنجده ضد المرابطين، وعقد الخطر المشترك أواصر الصداقة بينهم.

وسقطت قومونة بعد حصار قصير في ربيع الأول ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١م، وأصبح أمير إشبيلية في خطر عظيم، وجاءته إمدادات النصارى التي أرسلها ألفونسو بقيادة الكونت جومز، وعدتها أربعون ألف رجل مرتجل، وعشرون ألف فارس، ووصلت إلى مقربة من قرطبة وتصدّى لهم القائد الشجاع إبراهيم بن إسحاق في جند الشجعان، ونشبت بين الفريقين معركة حاسمة، أصاب فيها المرابطون! بالرغم من خسائرهم! نصرًا كبيرًا مبينًا، وغدت إشبيلية بعد فرار النصارى تحت رحمة المرابطين، وكانوا قد ضربوا حولها

(١) انظر: معركة الزلاقة، ص (٦٢).

الحصار، وكان سير بن أبي بكر يقود الجيش المحاصِر، وفتحت إشبيلية عنوة في رجب ٤٨٤ هـ/ ١٠٩١ م، وكانت خاتمة المعتمد بن عباد مأساة حزينة، وكانت عبرة لتقلب الدهر، وذلك أن الرجل الذي لبث زهاء ربع قرن يقبض بيديه على مصاير إسبانية، والذي كان يحكم سواد النصف الجنوبي لشبه الجزيرة، والذي يرجع إليه سبب استيلاء ألفونسو السادس على طليطلة، والذي استدعى المرابطين إلى الأندلس، اختتم حياته الحافلة بالأحداث في غمرة البؤس والحزن في أغمات المغرب، فقد قُبض عليه بعد سقوط إشبيلية، وعلى نسائه وأبنائه وبناته ـ وهم نحو مائة ـ وأرسلوا إلى مراكش[1]، وفي طريقه تألم المعتمد من قيده وضيقه وثقله فقال:

تبدلت من ظل عزِّ البنود ... بذل الحديد وثقل القيود

وكان حديدي سنانًا ذليقًا ... وعضبًا رقيقًا صقيل الحديد

وقد صار ذلك وذا أدهما ... يعض بساقي عض الأسود

لقد أطنب الشعراء والمؤرخون وأهل الأدب في سيرة المعتمد بن عباد، وسبب ذلك أمور كثيرة وأهمها في نظري أن قضيته غريبة، وشخصيته عجيبة، ومرَّ بأمور رهيبة، وكانت سيرته مليئة بالمتناقضات، فهو الذي قال: «رعي الإبل ولا رعي الخنازير» وهو الذي استعان بالنصارى، وأجلب خيلهم ورجالهم ضد المسلمين، وسيرته تبين لنا سنن الله في إعزاز من يشاء وإذلال من يشاء، وإعطاء الملك لمن يشاء ونزعه ممن يشاء.

قال (تعالى): ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَن تَشَاءُ وَتَنزِعُ الْمُلْكَ مِمَّن تَشَاءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَاءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَاءُ بِيَدِكَ الْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران:

(١) المصدر السابق، ص (٦٤).

[٢٦].

وتوفي المعتمد بن عباد في أغمات سنة ٤٨٨ هـ (رحمه الله تعالىٰ).

وفي النادر الغريب أنه نودي في جنازته بالصلاة على الغريب، بعد عظم سلطانه وجلالة شأنه، فتبارك من له البقاء والعزة والكبرياء[١].

من شعر المعتمد بن عباد:

دخل عليه ولده أبو هاشم والقيود قد عضت بساقيه فخاطب قيده فقال:

قيدي، أما تعلمني مُسلمًا	أبيت أن تشفق أو ترحما
دمي شرابٌ، واللحم قد	أكلته ولا تهشم الأعظُما
يُبصرني فيك أبو هاشم	فينثني، والقلب قد هُشما
ارحم أخيّاتٍ له مثله	جرَّعتهن السُّم والعَلقما

وقال ذات مرة بعد أن أحيط به في إحدىٰ معاركه:

لما تماسكت الدموع	وتَنهنه القلبُ الصديع
قالوا الخضوعُ سياسة	فليبدُ منك لهم خُضوع
وألذ من طعم الخضوع	على فمي السّمُّ النقيع
أتسلبْ عني الدُّنا	ملاكي وتُسلم القلبَ الضُّلوع
قد رُمتُ يوم نِزالهم	أن لا تحصِّنُني الدروع
وبرزت ليس سوىٰ القميـ	ـص عن الحشىٰ شيء دَفُوع

(١) وفيات الأعيان (ج٥/ ٣٧).

أجلي تأخــــر، لم يكـن بـهـــواي ذلـي والخـــضـــوع
مـــا ســـرت قط إلى القـتـــال وكـــــان في أملـي الرجـــــوع
شـــــيم الأولى أنـا منـهـم والأصل تـتـبـعـــه الفـــروع[1]

ولما توفي في فأغمات رثاه الشعراء بقصائد معبرة عن المشاعر الإنسانية الدفينة، وممن رثاه شاعره المخلص أبو بحر عبد الصمد بقصيدة طويلة أجاد فيها، وأولها:

ملك الملوك، أســامع فـــأنادي أم قـد عـــدتك عن السمــاع عـوادي
لما نقلت عـن القـصـور ولم تكن فـيـهـا كـمـا قـد كنت في الأعـيـاد
أقبلت في الثرى لك خـاضـعًـا وجعلت قبرك موضع الإنشـاد[2]

لقد كانت محنة المُعتمد بن عباد عظيمة، وتعاطف معه كثير من المؤرخين والأدباء والشعراء، واتهموا يوسف بن تاشفين بالقسوة والغلظة وأنه صحراوي بدوي نزعت الرحمة من قلبه، واستدلوا أنه ذو نزعة توسعية دنيوية، ولذلك أنزل العقوبة المؤلمة على من استطاع من ملوك الأندلس وتخلص منهم.

والواقع يقول: إن ابن تاشفين لم يطمع في الأندلس، وتردد كثيرا قبل العبور، وعفَّ عن الغنائم بعد الزِّلاقة وتركها للمعتمد ولأمراء الأندلس، ولم يأخذ منها شيئًا، وكانت عودته، ثم عاد في الجواز الثاني بسبب اختلاف ملوك الطوائف الهزلي، وتحالُف بعضهم مع ملوك النصارى، ولما

(١) التاريخ الإسلامي، للذهبي، حوادث ووفيات، مجلد (٤٨١ ـ ٤٩٠ هـ)، ص (٢٧١).
(٢) وفيات الأعيان (ج٥/ ٣٧).

اشتد الخطب على أهل الأندلس، وأفتى العلماء بخلع ملوك الطوائف حرصًا على سلامة الدِّين والعقيدة؛ قرر الأمير يوسف أن يضع حدًا لمهزلة ملوك الطوائف، لقد آن ـ من أجل الشريعة والمصلحة العظمى للأمة ـ لهذه الدويلات الهزيلة الضعيفة المتناحرة المتحالف بعضها مع الأعداء أن تنتهي، وكما قال الشاعر محمود غنيم:

من عالج الباب العصي فلم يلن   لـيـديه، حطَّمَ جـانب المصـراع

فقد شغله هؤلاء الأمراء المتفرقون عن الجهاد والفتوحات والمرابطة في سبيل الله لضعفهم وفرقتهم، فلقوا جزاء خيانتهم وفرقتهم، وابن تاشفين خص الأمراء وحدهم بشدة عقابه، وعفا عن الشعب المسلم، لأن التناقض جلي بين الشعب الذي تعلق بالمرابطين، وبالأمير يوسف لعدله وحزمه وجهاده، والذي حرص على رفع المظالم والضرائب والمكوس عن كاهل الشعب الذي طلب من ملوكه الاتحاد في وجه النصارى، وبين الأمراء والملوك الذين آثروا التفرق والخلاف، حُبًا في الحكم، وحفاظًا على مصالحهم الشخصية.

وهذا الذي قام به الأمير يوسف، وإزاحة الملوك من أعظم حسناته ومآثره الخالدة في تاريخه المجيد الذي تعتز به أمتنا العريقة.

وبسقوط إشبيلية تزعزعت باقي المدُن والحصون، وأصبحت غرناطة ومالقة وجيان وقرطبة وإشبيلية والمرية تحت حكم المرابطين في وقت لم يتجاوز ثمانية عشر شهرًا.

ولما سقطت المرية بيد داود بن عائشة، هذا القائد المجاهد المرابط في سبيل الله، المنصور بإسلامه ودينه وصفاء عقيدته وحفظه للعهود، واصل

سيـره الموفق مع جنوده البواسل، وافتتح مـرابيطر وبلنسية وشنتـمرية، ولـم تغن أمراءهم مـعاونة الكمبيـادور وفرسانه، فـبلنسية كان بهـا يحيى بن ذي النون «القادر»، وعلى الرغم من أنه كان منضويًا تحت حـماية ملك قشتالة، وقد خفت لإنجاده فـرقة كبيرة منهم، وقوة من المرتزقـة المسلمين من مرسية بقـيـادة ابن طاهر، على الرغم من كل هذا سـقطت بلنسـيـة بيـد المرابطين أصحاب الأيادي المتوضئة، والقلوب الطاهرة، والضـربات الفتاكة لكل جبار عنيد.

واستمر داود بن عائشة في فتح حصـون وقلاع مُدن شرق إسبانية تحفُّه العناية الإلهـية، وتتنزل عليـه الفتـوحات الربانية، ويـخط للمغاربـة وللأمة الإسلاميـة تاريخًا مجيـدًا باقيًا على مر العـصور والأزمان، واضحـة معالم العقيدة والإيمان في نحته وكتبه بماء الذهب الصافي.

أمـا القائد الرباني والفـارس الميدانـي سيـر بن أبي بكر فكان جهـاده الميمون في غرب الأندلس؛ حيث زحف إلى بطليوس وأمـيرها يومئذ محمد ابن الأفطس «المتوكل» بعد أن فتح إشبيليـة كما سلف، فاستولى على شلب ويابرة، ثم احتل بطليوس في صفر ٤٨٧ هـ ـ آذار (مارس) ١٠٩٤ م.

وفي الوقت الذي سقطت بطليوس، استطاع المرابـطون أن يفتحوا جزر البليار، التي كـان واليها يـومئذ من بني شـهيد أتبـاع أمراء بلنسيـة ودانية، وأحسن المرابطون صنعًا بفـتح الجزر الشرقية «بليـار» في الوقت الملائم، فقد كانت منعزلة تعيش تحت هيـمنة الأسطول النصراني، وقد تم الفتح على يد القائد البحري ابن تافرطست.

بذلك أصبحـت إسبانيا المسلمة تحـت قبضة دولة المرابطين الفـتية سنة ٤٨٧ هـ/ ١٠٩٤ م، ونسـتثني من ذلك ولاية سـرقسطة التي كـان واليـها

أحمـد بن هود «المستعين بالله» الذي أبلـى بلاءً حسنًا في جهـاد النصارىٰ، وظهرت فـيه شهـامة ورجولـة أقنعت الأمير يوسف علىٰ إبقـائه في مُلكه، وتحالف ابن هود مع إخوانه في العقيـدة ضدَّ أعدائهم في الدين، وكان سدًا منيعًا في الثغـور الشماليـة وقد كلف النصـارىٰ خسائر هـائلة في الأموال والأرواح.

واستطاع النصارىٰ أن يحتلوا مدينة «بلنسـية» عام ٤٨٧ هـ بقيادة القائد النصراني الـكمبيـادور الذي أمَّن قاضـيها «ابن جـحاف» ثم أحـرقه بالنار، وعمل المرابطون علىٰ إرجاع بلنسيـة والحصون التي وقعت في يد النصارىٰ، وتمكنوا من تحرير بلنسية عام ٤٩٥ هـ.

والجدير بالذكـر أن بابا الفاتيكان أفـتىٰ لأهل أسبانيـا ومن حولهم من الإفرنج أن قتالهم في الأندلس ضد المسلمين جهاد مقدس ولذلك لم يشارك الإسبـان في حروب النصارىٰ الصليبـية في شرق العـالم الإسلامي في هذه الفترة.

لقد كـانت سياسـة الإسبان فـي حروبهم للمسلمين صـليبيـة النزعة، همـجيـة الخلق، خـالية من الأخـلاق، ممزوجـة بالغدر بـعيـدة عن العلم والحضارة.

وكانت سياسة المرابطين في حروبهم وجهادهم مبنية علىٰ نشر الإسلام ومكارم الأخلاق، في أُطُر حضارية نابعة من مشكاة الوحيين كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ)[1].



(١) انظر: معركة الزلاقة، ص (٦٨).



المبحث الثامن

الجواز الرابع للأمير يوسف في الأندلس

لما أصبحت إسبانية المسلمة تحت حكم المرابطين بما في ذلك سرقسطة التي حكمها بنو هود، عبر أبو يعقوب يوسف بن تاشفين العبور الرابع سنة ٤٩٦ هـ/ ١١٠٣ م بعد استرداد بلنسية بعام واحد، يبتغي تنظيم شؤونها، وليطلع على حسن سير الإدارة، ودعا القادة والولاة وزعماء الأندلس، وشيوخ القبائل المغربية التي تدين بالطاعة له إلى الاجتماع في قرطبة، وعيّن ولده الأصغر عليًا «أبا الحسن» وليًا للعهد؛ فقد ظهرت مواهبه ونجابته ورجاحة عقله ولمس والده فيه الخصال اللازمة لحكم شعوب وأمم كثيرة[١].

أولاً: نص ولاية العهد للأمير علي بن يوسف:

عهد الأمير يوسف إلى كاتبه الفقيه أبي مُحمد بن عبد الغفور أن يكتب نص ولاية العهد وكان مشهورًا ببلاغته، وهذا هو النص: «الحمد لله الذي رحم عباده بالاستخلاف، وجعل الإمامة سبب الائتلاف، وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الكريم الذي ألف القلوب المتنافرة، وأذل لتواضعه عزة الملوك الجبابرة.

أما بعد: فإن أمير المسلمين وناصر الدين أبا يعقوب بن تاشفين لما استرعاه على كثير من عباده المؤمنين، خاف أن يسأله الله غدًا عما استرعاه كيف تركه هملاً لم يستنب فيه سواه، وقد أمر الله بالوصية فيما دون هذه العظمة، وجعلها من آكد الأشياء الكريمة، كيف في هذه الأمور العائدة في

(١) انظر: معركة الزلاقة، ص (٧١).

المصلحة الخاصة والجمهور، وأن أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة وحضه الله بها من النظر في الأمور الدينية الشريفة، قد أعزّ الله رماحه وأحدَّ سلاحه، فوجد ابنه الأمير الأجلّ أبا الحسن أكثرها ارتياحًا إلى المعالي واهتزازًا، وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازًا، فاستنابه فيما استُرعي، ودعاه لما كان إليه ودعا، بعد استشارة أهل الرأي على القرب والنأي، فرضوه لما رضيه، واصطفوه لما اصطفاه، ورأوه أهلاً أن يُسترعى فيما استرعاه، فأحضره مشترطًا عليه الشروط الجامعة بينهما وبين المشروط قبل، وأجاب حين دُعي، بعد استخارة الله الذي بيده الخيرة والاستعانة بحول الله الذي من آمن به شكره، وبعد ذلك مواعظ ووصية بلغت النصيحة مرامي قصية، يقول في ختامه شروطها وتوثيق ربوطها، كتب شهادته على النائب والمستنيب من رضى إمامتها على البعيد والقريب، وعلم علمًا يقينًا بما وصاه في هذا الترتيب وذلك في عام ٤٩٥ هـ/ ١١٠١ م[١].

أ- وأوصى يوسف بن تاشفين ابنه عليًا، بما يلي:

ألا يُعين في مناصب الحكام والقضاة في الولايات والحصون والمدن إلا المرابطين من قبيلة لمتونة.

وأن يحتفظ في الأندلس بجيش دائم حسن الأجر من المرابطين، قوامه سبعة عشر ألف فارس، يطعَمون على حساب الدولة يوزعون كما يأتي: أربعة آلاف في ولاية سرقسطة، وسبعة آلاف في إشبيلية، وثلاثة آلاف في غرناطة، وألف في قرطبة، والباقي قدره ألفان يحتلون قلاع الحصون كحامية، ويحسن أن يعهد إلى مسلمي الأندلس بحراسة الحدود النصرانية ومحاربة النصارى، فهم لهم معرفة أوسع وخبرة أكبر على مقاتلة النصارى

---

(١) الزلاقة ص (٧١، ٧٢)، انظر: ابن الخطيب، الإحاطة (٢/ ٥١٩ ، ٥٢٠).

من المغاربة، وأن يعمل على تشجيع الأندلسيين على روح الجهاد وأن يكافئ المتفوقين في الحرب منهم بالخيل والسلاح والثياب والمال.

ونصح أبو يعقوب ابنه أن يعامل أهل الأندلس وخصوصًا قرطبة بالرفق واللين، وأن يقوي علاقته الأخوية مع بني هود الذين هم طليعة الأندلسيين في محاربة النصارى، ولما انتهى يوسف بن تاشفين من تنظيم شؤون الأندلس وقسمها إلى ست ولايات هي: إشبيلية، غرناطة، قرطبة، بلنسية، وسرقسطة، عاد ابن تاشفين إلى مراكش.

ب ـ لقد مرت سياسة المرابطين في الأندلس بمراحل ثلاث:

١ ـ مرحلة التدخل من أجل الجهاد وإنقاذ المسلمين، وقد انتهت بانسحاب المرابطين بمجرد انتصار الزلاقة.

٢ ـ مرحلة الحذر من ملوك الطوائف، بعد أن ظل وضعهم وضع التنافر والتحاسد والتباعد، ولم يفكروا في الاندماج في دولة واحدة، بل فضل بعضهم التقرب إلى الأعداء للكيد ببعضهم.

٣ ـ مرحلة ضم الأندلس إلى المغرب، فوضعوا حدًا لمهزلة ملوك الطوائف.





المبحث التاسع

آثار الابتعاد عن تحكيم شرع الله على ملوك الطوائف

١ - إن الابتعـاد عن تحكيم شرع الله (تـعالىٰ) يجلب للأفـراد والأمة تعاسة وضنكًـا في الدنيا، وهلاكًا وعذابًا في الآخـرة، وإن آثار الابتعاد عن شرع الله لتـبدو علىٰ الحـياة في وجهـتها الدينيـة والاجتمـاعيـة والسياسـية والاقتصادية.

وإن الفتن تظل تتـوالىٰ وتتـرىٰ علىٰ الناس حـتىٰ تمس جـميع شـؤون حياتهم.

قـال (تعـالىٰ): ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].

لقد كانت في ممارسة ملوك الطوائف للحكم الـبعيد عن شرع الله آثار علىٰ الأمة، فتـجد الإنسان المنغمس في حـياة المادة والجاهلية مُـصابًا بالقلق والحيرة والخـوف والجبن يحسب كل صيحة عليـه، يخشى من النصارىٰ ولا يستطيع أن يقف أمامهم وقفة عز وشمـوخ واستعلاء، وإذا تشجع في معركة من المعارك ضعف قلبه أمام الأعـداء من أثر المعاصي علىٰ قلبه، وأصبح في ضنك من العيش: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ﴾ [طه: ١٢٤].

٢ - أما الآثار علىٰ الأمة الأندلسية فقد أصيبت بالتبلد وفقد الإحساس بالذات ومات ضميرها الروحي، فلا أمر بمعروف تأمر به، ولا نهي عن منكر تنهي عنه، وأصـابهم ما أصـاب بني إسرائيل عندمـا تركوا الأمر بـالمعروف

والنهي عن المنكر.

قال (تعالىٰ): ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ۝ كَانُوا لا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٨، ٧٩].

فإن أيَّ أمَّة لا تعظِّم شرع الله أمرًا ونهيًا فإنها تسقط كما سقط بنو إسرائيل، قال رسول الله (ﷺ): «كلا والله لتأمُرُنَّ بالمعروف ولتنهون عن المنكر ولتأخذن علىٰ يد الظالم ولتأطرنَّه علىٰ الحق أطرًا، ولتقصرنه علىٰ الحق قصرًا، أو ليضربن الله بقلوب بعضكم بعضًا، ثم ليلعننكم كما لعنهم»[١].

٣ - إن ملوك الأندلس تحققت فيهم سنة الله الماضية بسبب تغير النفوس من الطاعة والانقياد إلىٰ المخالفة والتمرد علىٰ أحكام الله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣].

كما أن المجتمعات التي تخضع تحت الحكام الذين تباعدوا عن شرع الله، تُذَل وتهان حتىٰ تقوم أمام من خالف أمر الله وتطلب العون من إخوانهم في العقيدة لإرجاع حكم الله في مجتمعاتهم.

إن ملوك الأندلس انعكس انحرافهم علىٰ شباب الأندلس كلّه، وفرّط أهل الأندلس في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وانعكس ذلك في حركة الفتوحات الإسلامية التي توقفت، ولذلك حُرمت شعوب كثيرة من سعادتها في الدنيا والآخرة بسبب تضييع الأمانة والرسالة والدعوة إلىٰ هذا الدين، لقد قست قلوب ملوك الطوائف وكثير من أتباعهم إلا ما رحم الله، وتركوا الحق وانقادوا للضلال، وابتلوا بالنفاق وفضحهم الله بذلك، وحرموا التوفيق والرجوع للصواب، وخف دينهم وضعف إيمانهم، بسبب بطرهم

(١) أبو داود، كتاب الملاحم، باب الأمر بالمعروف، رقم الحديث (٤٦٧٠).

للحق وغمطهم لحقوق الناس وابتعادهم عن شرع الله (تعالى).

٤ ـ لقد كانت ممالك الأندلس مليئة بالاعتداءات على الأنفس والأموال والأعراض، وتعطلت أحكام الله فيما بينهم، ونشبت حروب وفتن وبلايا تولَّدت على أثرها عداوة وبغضاء لم تزل عنها حتى بعد زوالهم.

٥ ـ وبسبب الابتعاد عن كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ) سهلت مهمة النَّصارى في الأندلس، فأصبحت شوكتهم تقوى، وتحصلوا على مكاسب كبيرة، وغاب نصر الله عن ملوك الطوائف وأهل الأندلس، وحرموا من التمكين، وأصبحوا في خوف وفزع من أعدائهم، وبعض المُدن تبتلى بالجوع بسبب حصار النصارى لهم، وكم قتل النصارى من المسلمين وكم سبوا من نسائهم.

٦ـ إن الابتعاد عن شرع الله في الأندلس ترتب عليه انتقاص الأرض وضياع الملك، وتسلط الكفار وتوالي المصائب.

٧ ـ إن من سنن الله (تعالى) المستخرجة من حقائق الدين والتاريخ أنه إذا عُصي الله (تعالى) ممن يعرفونه سلَّط عليهم من لا يعرفونه، ولذلك سلَّط الله النصارى على المسلمين في الأندلس، وعندما تحرك الفقهاء والعلماء وبعض الملوك واستنصروا إخوانهم في الدين، والتفُّوا حول دولة الشريعة نصرهم الله على أعدائهم، ثم خلَّص الله الأندلس من ملوك الطوائف الظالمين وأبدلهم بأمراء عادلين، منقادين لشريعة رب العالمين.

٨ ـ إن الذنوب التي يُهلك الله بها القرون ويعذب بها الأمم قسمان:

أولهما: معاندة الرسل والكفر بما جاؤوا به.

وثانيهما: كفر النعم بالبطر والأشر، وغمط الحق واحتقار الناس وظلم الضعفاء ومحاباة الأقوياء، والإسراف في الفسق والفجور، والغرور بالغنى

والثروة، فهذا كله من الكفــر بنعمة الله، واستعمالها في غــير ما يرضيه من نفع الناس والعدل العــام، والنوع الثاني من الذنوب هو الذي مــارسه ملوك الأندلس وأمراؤهم وأتقنوه إتقانًا عجيبًا.





الفصل الثالث

السياسة الداخلية والخارجية

في دولة المرابطين



المبحث الأول

حقوق الرعية في دولة المرابطين

إن الله (تعالىٰ) جعل بين الحاكم والمحكوم حقوقًا وواجبات متبادلة، وبينت الشريعة الغرَّاء هذه الحقوق المتبادلة؛ فمن أهم حقوق الرعية على الراعي:

أولاً: العمل على الإبقاء على عقيدة الأمة صافية نقية:

وذلك عن طريق حفظ الدين علىٰ أصوله المستقرة، وما أجمع عليه سلف الأمة، فهذا هو أهم الأمور التي تلزم ولاة الأمر تجاه الرعية[1]، وأهم هذه الأصول: التمسك بالكتاب والسنة وإجماع القرون المفضلة الأولى، وفي دراستي التاريخية لدولة المرابطين وجدت أن حُكَّامها ساروا علىٰ هذا المنهج الذي رسمه شيوخهم الذين سبقوهم، ولذلك توحدت دولة المرابطين، وكان لذلك المسلك سبب في حماية الأمة من التفرق في الدين إلىٰ دروب الأهواء والضلالات، وكان حماية ووقاية للحاكم والمحكوم في دولة المرابطين علىٰ السواء من الزيغ عن السبيل، قال (تعالىٰ): ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلا تَفَرَّقُوا﴾ [آل عمران: ١٠٣] أي: تمسكوا بدين الله الذي أمركم به، وعهده الذي عهده إليكم في كتابه إليكم، من الألفة والاجتماع علىٰ كلمة الحق والتسليم لأمر الله[2]، لقد كان يوسف ابن تاشفين ومن سبقه من

---

(١) الأحكام السلطانية للماوردي، ص (٢٢).

(٢) تفسير الطبري، (ج٧/ ٧٠).

حُكام دولة المرابطين على منهج الفرقة الناجية وسبيل أهل السنة والجماعة، لا سبل أهل الزيغ والتفريق التي نهى الله عنها في قوله: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٥، ١٠٦].

قال ابن عباس (رضي الله عنهما): «يعني تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل الفرقة والزيغ»[١]، لقد قام يوسف بن تاشفين بحماية أصول أهل السنة والجماعة بتشجيع العلماء والفقهاء وبنشرها وحمل الناس عليها، واستخدم في ذلك سلطانه وصلاحياته الشرعية[٢].

ثانيًا: توحيد المغرب تحت راية الخلافة الإسلامية:

قام يوسف بن تاشفين بتوحيد المغرب الأقصى تحت راية الخلافة الإسلامية، واستعمل من أجل هذا الهدف كافة الأسباب المشروعة سواء بإصلاح ذات البين بين القبائل المتناحرة، أو باستعمال القوة مع من استعصى عن الإجابة، وكان يسعى سعيًا حثيثًا للقضاء على الشرور في بلاده، ويعمل على إغلاق أبوابها أولاً بأول، وسبيله في ذلك: «تنفيذ الأحكام بين المتشاجرين، وقطع الخصام بين المتنازعين حتى تعمَّ النصفة، فلا يتعدى ظالم ولا يضعف مظلوم»[٣].

ثالثًا: العمل على حماية الأمة من المفسدين والمحاربين:

حيث استطاع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين أن يؤمن السبل في بلاده، وأن يبسط الأمن، ويقمع الأخطار التي هددت دولته من المارقين،

(١) تفسير ابن كثير، (ج١/ ٣٦٩).
(٢) انظر: الحكم والتحاكم، (ج٢/ ٥١٤).
(٣) الأحكام السلطانية للماوردي، ص (٢٢).

ونظم طرق الأسفار ومسارب التجارات.

وقد عدَّ علماء الإسلام تأمين السبل والطرق حقًا من حقوق الرعية التي سيُسأل عنها كل راع، فذكروا أن الإمام يلزمه: «حماية بيضة الإسلام، والذب عن الحرم، ليتصرف الناس في معايشهم وينتشروا في أسفارهم آمنين على أنفسهم وأموالهم»[1]، ولا شك أن تأمين السبل دليل بارز على انتصار الدين وتمكينه، فإنه (ﷺ) لما دعا عدي بن حاتم إلى الإسلام، وعده - إن طالت به الحياة - أن يرى طرق المسلمين آمنة، وسبلهم محفوظة، لما يؤول إليه الأمر من قوة المسلمين بعد ضعفهم، فقد روى البخاري في صحيحه عن عدى بن حاتم قال: «بينما أنا عند النبي (ﷺ) إذا أتاه رجل فشكا إليه الفاقة، ثم أتاه آخر فشكا إليه قطع السبيل، فقال: «يا عدي هل رأيت الحيرة؟ قلت: لم أرها، وقد أنبئت عنها، قال: «فإن طالت بك حياة لترين الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف أحدًا إلا الله...» وفيه أن عديًا (رضي الله عنه) قال بعدها: «فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالكعبة لا تخاف إلا الله»[2].

رابعًا: العمل على حماية الأمة من أعداء الخارج:

قام الأمير يوسف بن تاشفين (رحمه الله) بأعمال عظيمة حماية لدولته وشعبه من كل عدوٍّ يحاول أن يعتدي، واتخذ كل الأسباب المتاحة من أجل تحقيق هذا العمل المنشود، من تحصين الثغور بالعدة المانعة والقوة الدافعة حتى لا يظفر الأعداء بثغرة ينتهكون بها محرمًا، ويسفكون دمًا لمسلم أو

---

(١) المصدر السابق، ص (٢٧).

(٢) أخرجه البخاري، كتاب المناقب، باب علامة النبوة، (ج٦/ ٧٠٦)، رقم الحديث (٣٥٩٥).

معاهد»[1].

وقضى على كل محاولات أعداء دولته من البرغواطيين والمغاورة والحمَّاديين الذين حاولوا ضم أراض من دولته، وقضى على دويلات الكفر والإلحاد، وألزم الحمَّاديين احترامه بالقوة.

خامسًا: حفظ ما وُضعت الشريعة لأجله:

فقام بإقامة الحدود، حتى تُصان محارم الله عن الانتهاك، وتحفظ حقوق العباد من أي إتلاف أو استهلاك، ونفذ في رعيَّته قوله (تعالى): ﴿وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ [النساء: ٥٨].

سادسًا: إعداد الأمة إعدادًا جهاديًا:

ومسيرة المرابطين منذ خروجهم من رباط عبد الله بن ياسين تدل على أنهم قوم مجاهدون، وقام قادتهم بجهاد الوثنيين، واستمر يوسف بن تاشفين في قتال أهل الردة، وغلاة المبتدعة، وتوحيد القبائل الخارجة عن نطاق الدولة، وقام بواجبه في جهاد الكفرة المعاندين للإسلام حتى أسلموا أو أُدخلوا في ذمة المسلمين قيامًا بحق الله (تعالى) في ظهور دينه على الدِّين كلِّه»[2].

سابعًا: القيام على تحصيل الصدقات وأموال الزكاة والخراج والفيء:

حيث قام الأمير يوسف بالإشراف على جباية وصرف الزكاة في مصارفها الشرعية من غير حيف ولا عسف، فكانت من مصادر دولة المرابطين: الزكاة والخراج والفيء وغيرها، فكان الأمير يوسف لا يأخذ

---

(١) الأحكام السلطانية، لأبي يعلى.

(٢) انظر: الأحكام السلطانية، للماوردي، ص (٢٣).

الضرائب والمكوس، بل أسقطها، وإنما يأخذ المال من حلّه، ويضعه في حقه، ولا يمنعه من مستحقه[١].

ثامنًا: تحرّي الأمانة في اختيار المناصب:

حرص الأمير يوسف أن يختار الأمناء والأكفاء وأسند إليهم الولايات وقيادات الجنود ومناصب القضاة، وحرص على أن يولّي كل عمل من أعمال المسلمين، أصلح من يجده لذلك العمل، واختار وانتخب أحسن وأنفع العناصر لدولته السنية من أجل أن يقوم بواجبه نحو رعيته.

تاسعًا: الإشراف المباشر على شؤون الدولة:

اعتاد الأمير يوسف أن يُشرف بنفسه على أمور رعيته، ويتابع ولاته، ويزورهم في مواطنهم، ويستمع للناس، وما كان يعتمد على التفويض وحده، خوفًا من الله (تعالى) الذي قال في كتابه: ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ** ﴾ [ص: ٢٦]، وقد عدَّ الإمام الماوردي هذا الأمر من حقوق الرعية على الوالي، وذكر أنه يلزمه: «أن يباشر بنفسه مشارفة الأمور، وتصفّح الأحوال؛ لينهض بسياسة الأمة وحراسة الملة، ولا يعوِّل على التفويض تشاغلاً بلذَّة، أو عبادة؛ فقد يخون الأمين، ويغش الناصح...»[٢].

كان الأمير يوسف يراقب ولاته مراقبة شديدة، ولا يترددُ في تبديلهم وعزلهم إذا أساؤوا، وكان يضع مصلحة الرعية في المقام الأول عند تعيين الولاة ويوصيهم بها خيرًا، وقد جاء في كتابه إلى عبد الله بن فاطمة: «فاتخذ الحق إمامك، وارفع لدعوة المظلوم حجابك، ولا تسد في وجه

---

(١) انظر: السياسة الشرعية، لابن تيمية، ص (٢٩).

(٢) السياسة الشرعية، ص (٢٩).

المضطهد بابك، ووطن للرعية - أحاطها الله - أكنافك، وابذل لها إنصافك، والحرج من كل ما يحيف عليها ويؤذيها، ومن سدَّد عليها من عمالك زيادة، أو خرق في أمرها عادة، أو غيَّر رسمًا، أو بدَّل حكمًا، أو أخذ لنفسه منها درهمًا ظلمًا فاعزله من عمله، وعاقبه في بدنه، وألزمه في ردِّ ما أخذ متعديًا إلى أهله، واجعله نكالاً لغيره حتى لا يقدم منهم أحد على مثل فعله»[1].

وكان الأمير يوسف يُخطر أهل الولاية بتعيين الوالي الجديد؛ فكتب إلى أهل سبتة بشأن الأمير يحيى بن أبي بكر: «ونحن من وراء اختياره والفحص عن أخباره، فإذا وصل إليكم كتابنا؛ فالتزموا له السمع والطاعة، والنصح والمتابعة جهد الاستطاعة»[2] بالإضافة إلى ذلك كان الأمير يوسف كثير الطواف في مملكته للإشراف على تنفيذ أوامره وتعليماته من قبل الولاة[3]، والاطلاع على أحوال الرعية والنظر في أمورها.



(١) دولة المرابطين، ص (٦٦).

(٢) المرجع السابق، ص (١٦٦).

(٣) الأندلس في عهد المرابطين.

استفدت في مباحث أثر حكم الله على دلة المرابطين، وأثر ترك حكم الله والواجبات السياسية التي قام بها الأمير يوسف من كتاب الحكم والتحاكم في خطاب الوحي، للمؤلف عبد العزيز مصطفى كامل.



المبحث الثاني

موقف الرعية في دولة المرابطين

لقد استوفت الرعيـة في دولة المرابطين حقوقها الشرعية، فـكان طبيعيًا جدًا أن تؤدي واجـباتهـا إلى حكامهـا وولاتها، وأهم هذه الواجـبات التي أدتها:

أولا: الطاعـة: كان مسلمو المغـرب في زمن دولة المرابطين يتقربون إلى الله (تعالى) بطاعة أمـيرهم والانقياد له في كل مـعروف، ويرون هذه الطاعة حقًا ثابتًا لحكامهم بنص القرآن وصريح السنة وصحيحها.

قـال (تعـالى): ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ [النساء: ٥٩].

وفي مجتـمع المرابطين كانت الشريعـة فوق الجميع يخضـع لها الحاكم والمحكوم، ولهـذا فإن طاعة الحكام كـانت عندهم مقـيدة دائمًـا بطاعة الله ورسوله.

قال (ﷺ): «**لا طاعة في المعصية، إنما الطاعة في المعروف**»[1].

ثانيـًا: النصـرة: كان المسلمـون تحت قيـادة أمراء المرابطين يعـاضدون وينصـرون أمـراءهم في أمـور دينهم وجهـادهم لعـدوهم، عـاملين بقـوله (تعالى): ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢].

وكانوا يكرمون من يقـيم شرع الله من حكامهم، ويدافعـون وينافحون عنه ويكرمونه ويجلونه لقوله (ﷺ): «**إن من إجلال الله (تعـالى): إكرام ذي الشـيبـة المسلم، وحـامل القرآن غـيـر الغالي فـيـه والجافي عنه، وإكـرام ذي**

(١) أخرجه البخاري في كتاب الأحكام، باب السمع والطاعة، حديث (٧١٤٥).

السلطان المقسط»[١].

ثالثًا: النصح: قامت هذه الدولة الميمونة المباركة على النصح المتبادل بين الحاكم والمحكومين، ونجد أن أحد الوزراء يطلب من الأمير يوسف عدم جواز البحر في جهاده ضد النصارى حتى يسلم المعتمد بن عباد له الجزيرة الخضراء، فيسمع الأمير يوسف هذه النصيحة وينفذها في أرض الواقع، وامتنع عن جواز البحر حتى تحصَّل على تلك الجزيرة التي أفادته في جهاده كثيرًا، لقد كانت قيادات المرابطين تستمع للنصح في تواضع جم، واستعداد نفسي رفيع يدل على عمق التربية العميقة التي تحصلوا عليها.

إن الإسلام أوجب على الرعية أن تُناصح ولاة أمرها، وقد جاء الأمر بذلك في حديث جوامع الكلم لرسول الله (ﷺ) إذ يقول: «**الدين النصيحة** - ثلاثًا - قال الصحابة: لمن يا رسول الله؟ قال: «**لله (عز وجل) ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم**»[٢].

ومعنى النصيحة لهم في هذا الحديث: «معاونتهم على الحق وطاعتهم فيه وتذكيرهم به وتنبيههم في رفق ولطف، ومجانبة الوثوب عليهم، والدعاء لهم بالتوفيق»[٣].

وقال (ﷺ): «**ثلاثة لا يُغل عليهن قلب امرئ مسلم: إخلاص العمل لله، والنصح لأئمة المسلمين، ولزوم جماعتهم**»[٤].

لقد أكرم الله حكام المرابطين ببطانة آمرة بالمعروف وناهية عن المنكر،

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الأدب، باب تنزيل الناس منازلهم (٢٣/ رقم ٤٨٢٢).

(٢) رواه مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الدين النصيحة، (٢٣/ رقم ٥٥).

(٣) جامع العلوم والحكم، لابن رجب، ص (٧٩).

(٤) انظر: صحيح ابن ماجه، للشيخ الألباني (رحمه الله) (ج٢/ ١٨٢ رقم ٢٤٨).

مرشدة للصواب، ناصحة للراعي والرعية لا تخشى إلا الله.

رابعًا: التقويم: كان المسلمون الذين ارتبطوا بدولة المرابطين، لا يجدون حرجًا ولا مانعًا في إيصال ما يرونه من النصح والإرشاد وتقويم الأخطاء التي يقع فيها الحكام أثناء اجتهاداتهم في شؤون الحياة.

وهذا المبدأ قد استقرَّ في مفهوم الصحابة منذ بداية دعوة الإسلام، فهذا الصدِّيق (رضي الله عنه) عندما تولى الخلافة، قام في الصحابة خطيبًا، فقال: «يا، أيها الناس، فإني قد ولِّيت عليكم، ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه ـ إن شاء الله ـ والقوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه ـ إن شاء الله ـ، لا يدعُ قوم الجهاد في سبيل الله إلا خذلهم الله بذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمَّهم الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله»[1].

وكان عمر (رضي الله عنه) لا يكتفي بإنصاف الناس من نفسه، حتى ينصفهم من عُماله وولاته، يسأل الرعية عمن أساء منهم، وكان يقول: «إني لم أبعث عمالي ليضربوا أبشاركم وليشتموا أعراضكم ويأخذوا أموالكم، ولكني استعملتهم ليعلموكم كتاب ربكم وسنة نبيكم، فمن ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له عليَّ، ليرفعها إليَّ حتى أقصه منه»[2]..

إن علاقة الحاكم بالمحكوم في الإسلام غرضها الأول: إعلاء كلمة الله، وإعزاز دينه، ولمصلحة الراعي والرعية.

---

(١) البداية والنهاية، (ج١/ ٣٠٦) إسناده صحيح.

(٢) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد، (ج٨/ ٢٢٢).

ثانيًا: فهي بعيدة كل البعد عمَّن يجعلون في مرتبة من لا يُسألون فيها عـما يفـعلون، وبين مَنْ يحقـرون ويمتـهنون حُكامهم بدون وجـه حق، إن الحاكم في الإسلام له احتـرامه وحقوقه المستمـدة من كتاب الله وسنة رسوله (ﷺ)، وكذلك للمحكوم حقوقه المسـتمدة من أصل عقيدة الإسلام، لذلك نجد النصح والنقد والتقـويم بين الحاكم والمحكوم في تاريخ الإسلام على مر العصـور والأزمان، فإذا تأملت في الدول التي سـارت على شرع الله المولى (عز وجل) وجدت هذه المعالم واضحة.

وهذا يوسف بن تاشـفين عندمـا دخل في بلاد الأندلس للجـهـاد في سبيل الله، فأرسل إلى أهل المرية من ممالك الأندلس، وذكـر لهم أن جماعة أفتوه بجواز طلب العون اقـتداء بعمر بن الخطاب (رضي الله عنه) فردّ قـاضي المرية «أبو عبد الله بن الفراء» على الأميـر يوسف ردًا فيه نقد وتقويم ونصح، فلم يتعرض ذلك القاضي لعقوبة، بل اسـتمع الأمير يوسف إلى نصحه وإرشاده وما رآه حقًا، وكان هذا القاضي من الدين والورع بمكان، وهذا نصُّ الجواب الذي أرسله إلى الأمير يوسف: «أما بعد، ما ذكره أمير المسلمين من اقتضاء المعونة وتأخـيري عن ذلك، وأن أبا الوليد الباجي وجـميع القضاة والفـقهاء بالعدوة والأندلس أفتوا بأن عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) اقتضاها، وكان صاحب رســـول الله (ﷺ) وضجـيعه في قـبره، ولا يشك في عدله، فليس أمـير المؤمنين بصاحب رسول الله (ﷺ) ولا بضجيعه في قبره، ولا من لا يشك في عدله، فإن كـان الفقهاء والقـضاة أنزلوك بمنزلته في العدل فـالله سائلهم عن تقلدهم فيك، ومـا اقتضـاها عمر حـتى دخل مسجـد رسول الله (ﷺ) وحلف أن ليس عنده درهـم واحد من بيت مـال المسلمين يـنفقـه عليـهم، فلتـدخل المسجـد الجامع هناك بحـضرة أهـل العلم، وتحلف أن ليس عندك

درهم واحد، ولا في بيت مال المسلمين، وحينئذ تستوجب ذلك، والسلام»[١].

ومحل الشاهد من هذه الرسالة هو النقد والتقويم المستمر في حياة الأمة بين علمائها وأمرائها بدون ظلم وجور واعتداء من الطرفين على بعضهما البعض، وبذلك تنطلق حضارة الأمة بآفاقها المتنوعة لتحدث تغييرًا حضاريًا في دنيا الناس، مبني على النصح والتناصح، والنقد والتقويم، كما حدث في دولة المرابطين السنية.



(١) وفيات الأعيان (٧/١١٩).



المبحث الثالث

موقف المرابطين من الخلافة العباسية

رأى المرابطون أن مبايعة الخليفة العباسي واجبة، ولذلك أعطوا بيعتهم له لكونهم مالكيين سنيين، فاعترفوا بالخلافة العباسية واتخذوا السواد شعارا لهم، ونقشوا اسم الخليفة العباسى على نقودهم منذ منتصف القرن الخامس الهجري، وبعد أن بسط الأمير يوسف سيادته على الأندلس طلب منه الفقهاء أن تكون ولايته من الخليفة لتجب طاعته على الكافة، ونزولاً عند رغبتهم اتصل بالخليفة العباسى أحمد المستظهر بالله ٤٨٧ ـ ٥١٢ هـ/ ١٠٩٤-١١١٨ م وأرسل إليه بعثة منها عبد الله ابن محمد بن العربى الإمام المعروف، وزودها بهدية ثمينة، وبكتاب يذكر فيه ما فتح الله على يده من البلاد في المغرب والأندلس، وما أحرزه من نصر للمسلمين وعز للإسلام، ويطلب في النهاية تقليداً بولاية البلاد التى بسط نفوذه عليها، وأدت البعثة مهمتها بنجاح؛ فتلطفت في القول، وأحسنت الإبلاغ وعادت إلى المغرب بتقليد الخليفة وعهده للأمير يوسف بن تاشفين الذي سُرَّ بذلك سرورًا عظيمًا[1].

لقد كانت دولة المرابطين من الناحية العملية تستطيع أن تستغنى عن الخلافة العباسية الضعيفة، حيث إن السلطان لا يملك من السلطة إلا اسمه، بل كان الأمير يوسف أكثر قوة منه يملك ويحكم، ولكن حبَّهم لشريعة الإسلام وحرصهم على تنفيذ أحكام الله فى أسوأ الظروف جعلهم يتقيدون بذلك، لقد كانت توجيهات القرآن الكريم فى وجوب

(١) دولة المرابطين، ص (١٥٧).

لزوم لجماعة وذم التفرق واضحة المعالم بالنسبة إليهم، ولقد كانت أحاديث رسول الله (ﷺ) فى هذا المضمار هى التى أرشدتهم للانضمام للخلافة العباسية الضعيفة، قال (تعالى): ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ * وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٥ ـ ١٠٧].

لقد ذكر ابن جرير بسنده عن ابن عباس (رضي الله عنهما): قوله: ﴿وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ ونحو هذا في القرآن أمر الله ـ جل ثناؤه ـ المؤمنين بالجماعة، فنهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم أنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات فى دين الله»[1].

والأحاديث في هذا الشأن كثيرة: فعن ابن عباس (رضي الله عنهما) قال: قال رسول الله (ﷺ): «**من فارق الجماعة شبرًا فكأنما خلع ربقة الإسلام من عنقه**»[2].

وعن ابن عمر (رضي الله عنهما) قال: سمعت رسول الله(ﷺ) يقول: «**من فارق الجماعة، فإنه يموت ميتة جاهلية**»[3].

والمراد بميتة الجاهلية -وهى بكسر الميم- حالة الموت كموت أهل الجاهلية على ضلال، وليس له إمام مطاع، لأنهم كانوا لا يعرفون ذلك، وليس المراد أنه يموت كافرًا، بل يموت عاصيًا، لقد ذهب علماء المرابطين إلى أن الجماعة المقصودة في الحديث جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير، موافق للكتاب

---

(١) جامع البيان (ج٤/ ٣٩).

(٢) البخارى، فتح البارى، (ج١٣/ ٧).

(٣) انظر: الشيخ الألباني (رحمه الله) في السلسلة الصحيحة (ج/ ٩٨٤).

والسنة[1].

هذا في نظري سبب دخول المرابطين تحت الخلافة العباسية، وأما ما ذكره المؤرخون أن من أسباب ذلك بعدهم عن العباسيين، ولذلك كانوا لا يخشونهم، خاصة بعد أن تطرق إليهم الفساد، ودب الضعف فيهم، وهى لا تشكل أي خطر عليهم، فإني أستبعد ذلك حيث إن سياسة قادة المرابطين تقاد بالشرع، وليس العكس، فهم إسلاميون سياسيون، وليسوا سياسيين إسلاميين فى علاقاتهم الخارجية وشؤون دولتهم الداخلية وارتباطاتهم الدولية.

أولاً: الخطاب الذي رفعه الفقيه ابن العربي إلى الخليفة المستظهر بالله:

«٤٨٧ ـ ٥١٢هـ» يلتمس فيه تقليداً يخول يوسف بن تاشفين حكم بلاد المغرب والأندلس: بسم الله الرحمن الرحيم عليه توكلي:

أسعد الله الدنيا وأهلها بدوام أنوار المواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية، وضاعف مددها، ولا أرى المسلمين أمدها بغرائب مجد تبدعها، وفرائض تشرعها الخلافة، ومستأنف سعود تحرص جنابها، ولا زالت الأيام التي هي لأيامها غرر، وفي إكليل الخلافة درر، وللدهر تمائم، وفي المحل غنائم، والحمد لله الذي جعل المواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية شرائط السواد، وخصها بالمجد المؤثل المطول بالانتساب، كابراً عن كابر إلى أعلى خندف[2]، فهي أعلاها عماداً، وأوراها في مواقف الفضل زناداً، أرومة الرسالة وجرثومة الخلافة، إليها ينزع هاشم، وعنها أخذت المكارم، مفاخر شهد لها الكتاب المنزل، وعهد بتخليدها مخبراً عن الوحي في آله وعقبه

(١) انظر: وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق، د. جمال أحمد، ص (٩٧).

(٢) خندف هى امرأة إلياس بن معز أحد جدود العرب، وقد عرف بنوه بها: نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب، ص (٢٤٨).

النبي المرسل، قد آمنت بعصمة الله من الغير، وتحققت أواخرها على السنن أولها في هداية البشر بحسن السير، أوزعنا الله الشكر على ما مَنَّ به من توقيفنا للتمسك بعراها الوثيقة، والإهداء بهداها إلى واضح الطريقة، فهم في الدين أمتنا، ويوم الدين وسيلتنا، استعملنا الله من طاعته وطاعتهم بما يؤدي إلى مرضاته ومرضاتهم، إنه الموفق الهادي لا ربَّ غيره.

وإن الخادم بالأدعية المتقبلة للمواقف المقدسة النبوية الإمامية المستظهرية، ألهمه الله منها لما يسمع فيرفع بمنه لما علم بموجب الشرع أن بيعة الإمام العادل من أركان الديانة، ومما يتعين ما يحتمل من رعاية الأمانة.

هاجر إلى ذلك بنفسه وبابنه المسترق القن من أقصى المغارب، معتقدًا أن عمله أفضل القرب والرغائب، واحتمل برد الهواء وظمأ الهواجر، واقتحم دون ذلك مسالك بلغت فيها القلوب الحناجر، ولم يثنه بحر يزخر، ولا قفر يذعر، ويحتسب في ذلك أثره، ويرجو أن يقبل الله يوم الجزاء عثره، إلى أن انتهى هو وابنه إلى مدينة السلام، لا زالت محروسة من غِيَر الأيام، عاصمة لمن التجأ إليه من مهتضمي الأنام.

ولم يزل الخادم بالأدعية المتقبلة بحول الله يتوسل بهجرته، ويتقرب بخلوص علانيته وسريرته، ويسأل تشريف رقاعه، بملاحظاتها، والنظر من انقطاعه، رغبة في الحظ الجسيم، إلى أن وصل إلى المجلس السامي وخدم البساط العالي، زاده الله تعظيما وتشريفا، وأنهى أغراض وفادته ومقاصد إدارته، فنفذت الأوامر الشريفة، أدام الله سموها وتشريفها، واصطفى على الجميع ستر سلطانها، وكنف إحسانها بقبول وسائله، وإلحاح مطالبه، وإضافة الإحسان عليه.

ولما بسط له فى الأمل، وكان هو وابنه في محل الكرامة والجذل، بدأ بعرض ما هو عليه ناصر الدين ، وجامع كلمة المسلمين، القائم بدعوة مولانا أمير المؤمنين صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، الأمير أبو يعقوب يوسف بن تاشفين المتحرك بالجهاد، المتجهز إلى المسلمين باستئصال فئة العناد، ولمة الفساد، قام بدعوة الإمامة العباسية والناس أشياع، وقد غلب عليهم قوم دعوا إلى أنفسهم ليسوا من الرهط الكريم، ولا من شعبة الطاهر الصميم، فنبَّه جميع من كان فى أفق قيامه بالدعوة الإمامية العباسية، وقاتل من توقف عنها منذ أربعين عامًا إلى أن صار جميع من في جهة المغارب على سعتها وامتدادها له طاعة، واجتمعت بحمد الله على دعوته الموفَّقة الجماعة، فيخطب الآن للخلافة، بسط الله أنوارها، وأعلى منارها على أكثر من ألفي منبر وخمسمائة منبر، فإن طاعته ضاعفها الله من أول بلاد الإفرنج - استأصل الله شأفتهم، ودمر جملتهم - إلى آخر بلاد السوس مما يلى بلاد غانة وهى بلاد معادن الذهب، والمسافة بين الحدين المذكورين مسيرة خمسة أشهر، وله وقائع فى جميع أصناف الشرك من الإفرنج وغيرهم قد فللت غربهم، وقللت حزبهم، وألفت جموعه حربهم، وهو مستمر على مجاهدتهم، ومضايقتهم فى كل أفق، وعلى كل الطرق، وقد استرجع كثيرًا من المعاقل التى استباحها الروم من أمور المسلمين، وسبت أهلها قبل حصول تلك الجهات فى حكم سلطانه، وكانت ثغور المسلمين بها مستضامة، وقد أعادها جده بحمد الله إلى أولها، واحترمت لحرمة المسلمين والإسلام وعز سلطانه، وهذا دأبه، وهجيراه الذي لا عمل له سواه.

وعدة جيوشه إذا جمعها لحركته ستون ألف فارس، وكان أمله مواصلة الخدمة والتشريف بإنهاء أعماله، والإعلام بمناقل أحواله وأفعاله، وباحتماله

على حمـاية دين المسلمين، وإقبـاله على مجاهدة المشـركين، إلا أن الحائل المانع دون ذلك لإشفاته، ولم يزل محافظًا على ما هو عليه من إقامة الدعوة السعيدة، والاعتراف بجمل النعم الوافدة العديدة بفضل الله، ولقد وصل إلى ديار المشرق فى هذا العام قاضي من قضاة المغرب يعرف بابن القاسم، وذكر من حال هذا الأميـر ما يؤكد ما ذكـرته، ويؤيد ما شرحتـه، وأشاع القاضى المذكور ذلك بمكة، وصل الله تشـريفها وتعظيمهـا، وذكر لى أن الروم على شفا جرف من تضييقه عليهم، وحصاره لهم، وقد تكرر إعلام الخادم بذلك لما تلزمه من طاعة أولي الأمر لا سيما هـذا الأمير، وقد حظي بفضائل منها الدين المتين والعـدل المستبين، وطاعـة الإمام، وابتـدأ جهاده بالمحـاربة على إظهار دعوته، وجميع المسلمين على طاعته والارتباط بحماية ثغور المسلمين، وهو ممن يقسم بالسوية، ويعدل فى الرعية، والله ما فى طاعته- مع سعتها- دان منه، ولا ناء عنه من البلاد ما يجرى فيه على أحد المسلمين رسم مكس، وسبل المسلمين آمنة، ونقوده من الذهب والفضة سليمة من الشرب، مطرزة باسم الخلافة، ضاعف الله تعظيمها وجلالها.

هذه حقيقة حاله، والله يعلم أنى مـا أسهبت ولا لغوت، بل لعلي قد أغفلت أو قصَّـرت ،ولمولانا أمير المؤمنين المستظهـر بالله، صلوات الله عليه وعلى آبائه الطاهرين، والطول العميم فى الأمر، تشريفه بقبول تأميله، وفي الإشـارة إليه بما يـقوي أمـره، ويشـد أزره، ويؤيد سلطانه، ويعلي شـأنه، مجـريا على السنن الكريم، والطول العمـيم، فوالله مـا في الأمراء ولا في شيع النصحاء الأولياء من يجِّوز في الولاء وصحة الانتماء سبقه، ولا يلبس من النصـيحة من الخـلافة المقـدسة المبنيـة على طريق النبوة، مـا يصل يده ويقوي أيده ويشد عضده بمنه وطوله.

وضراعة الخادم بالأدعية المتقبلة لنفسه ولابنه المسترق القن بعد الامتنان بإباحة الصدر لهما إلى الوطن، فقد بعد عنه سبعة أعوام، وأقاما في الجناب المخضب الظليل، والكنف الرحب المأهول مدة عامين، يستدران النعم الحافلة جملا بعد جمل، ويكرعان في المشارب الجمة العذبة عللا بعد نهل، فلله إلهام الشريفة التى مسحت على شكيتها من عدوان الأيام بيد شيم الكرام، فأزاحت عنهما جميع الشاكيات والآلام .. لا أعدم الله مولانا الإمام المستظهر بالله أمير المؤمنين، صلوات الله عليه وعلى آبائه المنتخبين مبرة تتضاعف بها المعالي، وسعادة تحرز أسنى الآمال، وكفاية يستمد بها حرية الأيام والليالى، فذلك بيده وغيره معجزة، وهو المنعم الجوَّاد، وكلُّ خير من طوله مستفاد، لا شريك له، ولا توفيق إلا به والحمد لله حق حمده، وصلواته على سيد المرسلين رسوله وعبده وعلى آله الطيبين، وعترته المنتخبين الراشدين، آباء أمير المؤمنين صلوات الله عليهم أجمعين إلى يوم الدين، وحسبي الله ونعم الوكيل[1].

إذا تأملنا في الرسالة المذكورة فإنها تدلنا على طابع رسائل الحكام فى فترة المرابطين، وتدلنا على حسن اختيار دولة المرابطين لمثليها عند الخلافة العباسية، حيث إنها اختارت عالماً فقيهاً ذا دراية وخبرة كبيرة فى مخاطبة الحكام والخلفاء، وبذلك نجحت تلك الوفادة وحققت أهدافها، ورجعت تحمل معها ثمارها.

ثانيا: رد الخلافة العباسية على طلب دولة المرابطين:

لا شك أن الخلافة العباسية دخلها سرور عظيم، وكسبت مكسبًا معنويًا كبيرا، ولذلك حرص الخليفة على أن يرد بنفسه على خطاب ابن تاشفين،

(١) دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، د/ أحمد العبادي، ص (٤٧٦).

حيث كتب سبعة وثلاثين سطراً جاء فيها: «عرضت هذه القصة بمفاوز العز والعصمة، ومواقف الإمامة المطهرة المكرمة- زاد الله جلالها- وسبوغ ظلالها- فخرجت المراسم الشريفة بأن ذلك الولي الذي أضحى بحبل الإخلاص معتصماً، ولشرطه ملتزماً، وإلى أداء فروضه مسابقًا، وكل فعله فيما هو بصدده للتوفيق من الولاء، طويل نجاده، إذ كان من غدا بالدين تمسكه، وفي الذيادة عنه مسلكه، حقيقًا بأن يستتب صلاح النظام على يده، ويستشف من يومه حسن العقبى في من يليه من الكفار، وإتيان ما يقضي عليهم بالاجتياح والبوار، اتباعه لقوله (تعالى): ﴿ قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة: ١٢٣].

فهذا هو الواجب اعتماده الذي يقوم به الشرع، وأن يؤلف شمل مَن في جملته من الأنجاد على الطاعة الإمامية التي هي العروة الوثقى والذخر الأبقى واستقراره قوله (تعالى) العمل، والبدار إلى التشبث بسببه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩].

وليكن دأبه الجهاد فيما يكسب عند الله الزلفى، ويمنحه من رضاه القسم الأكمل الأوفى: ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَدًا بَعِيدًا﴾ [آل عمران: ٣٠].

وأن يختص رافعها وولده بالإرعاء الذي يضفو عليهما برده، ويصفو لهما ورده، وليظهر عليهما من المهاجرة جميل الأثر، ويؤول أمرهما فيما يرجو أنهما إلى استقامة النظام وضم النشر، فليقابل الأمر الأسنى في ذلك بامتثال واحتذاء مطاع المثال - إن شاء الله - »[1].

(١) دراسات في تاريخ المغرب، ص (٤٧٨).

لقد استطاعت دولة المرابطين أن تكون سندًا قويًا معنويًا للخلافة العباسية السنية، وبذلك تكون نفذت أوامر ربها، واسترشدت بتوجيهات نبيها، فأصابها بركة ذلك من سمعتها العالمية في ديار المسلمين، وأصبحت جزءا على الخلافة العباسية التى اكتفت منها بالطاعة المعنوية، وبذلك تحصل أمراء المرابطين من اعتراف الخلافة العباسية بدولتهم، حيث إن المرابطين كانوا يعتقدون اعتقادًا راسخًا أنه لن يعتبر ملكهم مشروعًا إلا إذا باركته الإمامة القرشية العباسية.

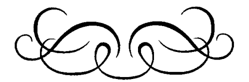
واختلف المؤرخون في زمن اتصال المرابطين بالخلافة العباسية: فابن الأثير يقول: إن أول اتصال بين المرابطين والعباسيين قد حدث عقب انتصار الزلاقة، واستيلاء يوسف على الأندلس، ويتفق مع ابن الأثير في هذا الرأي كل من ابن خلدون والقلقشندي، والذهبي[1].

وأنا أميل إلى أن اتصال المرابطين كان قبل ذلك بكثير، حيث إن واضع الخطوط العريضة لدولة المرابطين الفقيه «أبو عمران الفاسي القيرواني» من أتباع العباسية، وكل الفقهاء الذين من مدرسته سُنِّيُّون مالكيون، وبذلك يكون زعماء المرابطين ساروا على نفس التعاليم السنية المالكية.

وتجد أن نقود المرابطين قد نقش عليها أسماء الخلفاء العباسيين منذ عام ٤٥٠ هـ أي منذ عهد الأمير أبي بكر بن عمران، وظل اسم الخليفة العباسي يذكر مقروناً باسم أبي بكر بن عمران إلى أن توفي في عام ٤٨٠ هـ، وخلفه يوسف بن تاشفين فذكر اسمه على السكة مع اسم

(١) تاريخ المغرب والأندلس، د/ حمدى عبد المنعم، ص (٢٣٧).

الخليفة العباسي، وهذا يدل على صلة المرابطين بالعباسيين قبل الزلاقة، ولا شك أن كتابة اسم الخليفة على عملة المرابطين تم بعد اتصالهم بالخليفة العباسي، وبعد أن تلقوا منه إجابة بقبول طاعتهم، وتقليدًا بولايتهم[1].



(١) المصدر السابق، ص (٢٣٦).



المبحث الرابع

علاقات الأمير يوسف مع بني حماد

حرص الأمير يوسف على علاقة حسن الجوار مع دولة بني حماد الصنهاجية التي تقع في شرق دولة المرابطين، وكان الحماديون يتحينون الفرصة لضم أطراف من مملكة المرابطين، وتمَّ لهم ذلك عندما عبر الأمير يوسف الأندلس عام ٤٧٩ هـ، فتحالفوا مع عرب بني هلال؛ وغزوا المغرب الأوسط؛ وعادوا إلى بلادهم محملين بالغنائم، وسكت يوسف عن الانتقام منهم، وصالحهم، ولم يرغب في الدخول في حرب معهم مع وجود أسبابها حقنًا لدماء المسلمين وحفظًا لشوكتهم وقوتهم.

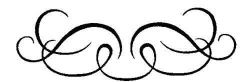
وعندما توفي الناصر بن علناس الحمادي في عام ٤٨١ هـ، بعث الأمير يوسف بكتاب تعزية إلى ولده وخليفته المنصور، مما يدل على نيات يوسف السلمية تجاه بني حماد، واستمرت حالة السلم بين الفريقين أكثر من عشر سنوات، ثم نشب خلاف بين والي تلمسان المرابطي تاشفين بن تنغمير وحكام بني حماد، فهاجم الأمير تاشفين بدون إذن من الأمير يوسف، واشتد الصراع بين الطرفين، وتدخل الأمير يوسف واستطاع بحكمته وسياسته أن يحقن دماء المسلمين، وعزل حاكم تلمسان تاشفين وعيَّن مكانه الأمير مزدلي، وبعد أن ضم الأمير يوسف الأندلس أضحت مملكة بجاية ملاذا للفارين من الأندلس، ومع ذلك لم يحرك الأمير يوسف ساكنا تجاه عمل بني حماد، وبقي الأمر كذلك حتى وفاته[1].

لقد كان للتوجه السني في دولة الحماديين أثر في تخفيف الصراع مع

---

(١) دولة المرابطين، ص (١٥٨).

المرابطين، كما أن لصلة القرابة الصنهاجية سببا آخر، وإلا ما كانت تستطيع دولة الحماديين أن تقاوم جيوش المرابطين الفتية، وفي نظري أن بقاء دولة الحماديين كانت من الأسباب التى أضعفت الدولة الزيرية والصنهاجية، وسببت توترًا وارتباكًا لدولة المرابطين، ولو ضُمت لدولة المرابطين لكان أفيد للإسلام والمسلمين وللمغرب الأوسط والأقصى.





المبحث الخامس

علاقة المرابطين مع ملوك الطوائف

مـرت علاقـة المرابطين مع ملوك الـطوائف بمراحل مـتعـددة، وهي: المسالمة، التحالف، القتال.

أولا: مرحلة المسالمة:

لما وصلت دولة المرابطين ذروة قوتها وحطت بجيوشها وأساطيلها على سهل البحر المتوسط ارتعـد ملوك الطوائف، وأصابهم الخوف وركبهم الهم، وأصبحـوا بين قبضتين قويتين: بين النصـارى الذين يمكن مداراتهم بالأموال والتنازل عن بـعض الحـصـون، وبين المرابطين الذين عـرفـوا بجـهـادهم واستعـلائهم على متاع الدنيا، وحـبهم للشهادة، ورفع المظالـم عن العباد، وقد وصلهم ظلم ملوك الأندلس، وقد اشتـهر جنود المرابطين بصيت عظيم في تحـقق النصر في المعـارك، وبأس شـدد في القتـال مما أدخل الرعب في قلوب ملوك الطوائف، فعـقدوا اجتمـاعا للتشاور في أمـر الخطر القادم من الجنوب، واستقـر رأيهم أن يكتبوا للأمير يوسـف يسألونه الإعراض عنهم، وأنهم تحت طاعته، وهذا نص الكتاب:

«أمـا بعد، فـإنك إن أعرضت عنا نـسبت إلى كـرم، ولم تنسب إلى عجز، وإن أجـبنا داعيك نسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهن، وقـد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبنا فاختر لنفسك أكرم نسبتك، فإنك بالمحل الذي لا يجب أن تُسبق فيه إلى مكرمة، وإن في استـبقائك ذوى البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت، السلام»[1].

---

(١) دولة المرابطين، ص (١٥٩).

وأرسلوا مع حامل الكتاب هدايا وتحفًا نفيسة.

وبعد أن تشاور الأمير يوسف مع مستشاريه رأى أن يسالمهم ويرضى بما قدموه له من طاعة، ورد عليهم بهذا الكتاب جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم من يوسف بن تاشفين سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، تحية من سالمكم وسلم عليكم، وحكمه التأييد والنصر فيما حكم عليكم، وإنكم مما فى أيديكم من الملك في أوسع إباحة، مخصوصين منا أكرم إيثار وسماحة، فاستديموا وفاءنا بوفائكم، واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم، والله ولي التوفيق لنا ولكم، والسلام».

وقد قرن الأمير يوسف الكتاب بالتحف وبدرق اللمط التى لا توجد إلا في ديار المرابطين، ولما وصل كتابه إلى ملوك الطوائف فرحوا بذلك، وتقوَّت نفوسهم على قتال الإسبان، وأحب أهل الأندلس دولة المرابطين حكامهم ومحكوميهم[١].

ثانيًا: مرحلة التحالف:

وبعد سقوط طليطلة في يد الإسبان النصارى عام ٤٧٨ هـ اضطر ملوك الطوائف أن يطلبوا النجدة من الأمير يوسف الذي لبى نداءهم، وكان سبباً في إيقاف زحف النصارى على ممالك الأندلس، وانتصر على ألفونسو في معركة الزِّلاقة المشهورة.

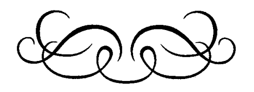
وبعد أن احتك الأمير يوسف بملوك الطوائف، ووقف على خيانتهم وتحالفهم مع النصارى، واتصالهم بأعداء المسلمين، انتقلت العلاقة من التحالف إلى العداوة.

---

(١) دولة المرابطين، ص (١٦٠).

ثالثا: مرحلة العداوة:

حيث استعـرت نار الحرب بين المرابطين وملوك الطوائف، انتهت بضم كل ممالك الأندلس لدولة المرابطين إلا سَرَقُسْطَة التي حكمها أحمد بن هود، والذي كان كالشـوكة في حلق النصارى، فقد قـاومهم زمنًا طويلاً، وتراجع النصارى أمام صـمود بني هود البطولي، وأظهر بنو هود مقـدرة فائقة على قتـال النصارى مما جعل المرابطين يحـترمونهم، وتوطدت العـلاقة الودية بين الأمير يوسف والأميـر أحمد بن هود الذي كان وافيًا في عـهوده، ومخلصًا في جهاده، وحريصا على أمته، ورضي المرابطون ببقاء أحمد بن هود حاكمًا تابعًـا لهم، بذلك أصبـحت الأندلس ولاية تابعـة لدولة المرابطين، وتوارت العناصر والزعامات الهزيلة وانهار سلطان العصبيات الطائفية[1].



(١) انظر: الأندلس فى عصر المرابطين، ص (١١٢).



المبحث السادس

علاقة المرابطين مع الاسبان والنصارى

كانت علاقة المرابطين مع نصارى الإسبان عدائية بصورة دائمة، إذ لم يتخللها أي اتصال ودي خصوصًا في زمن الأمير يوسف بن تاشفين، والاتصال الوحيد الذي حدث عن طريق الرسائل بين الأمير يوسف وألفونسو أثناء قيام هذا الأخير بحملته العدائية على مملكة المعتمد، ووصوله إلى مضيق جبل طارق، إذ أرسل إلى الأمير يوسف رسالة تفيض تهديدًا ووعيدًا، ويذكر فيها حالة ملوك الطوائف، وكان جواب الأمير يوسف مختصرًا: الجواب ما ترى لا ما تسمع ـ إن شاء الله ـ (تعالى) وأردف:

ولا كتب إلا المشرفية والقنا   ولا رسل إلا الخميس العرموم[1]

واستمر جهاد المرابطين للنصارى الذين امتنعوا عن دخول الإسلام، ورفضوا دفع الجزية، وحملوا السيف ضد المسلمين، أما الذين دفعوا الجزية، وعاشوا داخل دولة المرابطين؛ فكانت أحكام الإسلام في أهل الذمة تحفهم وتحفظ حقوقهم.

أولا: عاملتهم دولة المرابطين معاملة أهل الذمة:

فكانت عليهم واجبات في دولة المسلمين منها:

١ ـ التزام الجزية، وإجراء أحكام أهل الذمة عليهم.

٢ ـ ترك ما فيه ضرر على المسلمين في أنفسهم وأموالهم؛ كالتعدي على المسلمين بضرب أو نهب.

٣ ـ تحاشي ما فيه غضاضة على المسلمين، كذكر الإسلام أو القرآن أو

(١) دولة المرابطين، ص (٦٦).

الرسول (ﷺ) بما لا ينبغي.

٤ ـ تجنب ما فيه إظهار منكر، كشرب الخمر في الأماكن العامة للمسلمين.

٥ ـ التميُّز عن المسلمين بعلامة خاصة يُعرفون بها، كأن تكون في اللباس أو غيره[1].

ثانيًا: حقوقهم في دولة المسلمين:

الكف عنهم والحماية لهم، ليكونوا بالكف آمنين، وبالحماية محروسين[2]. روى نافع عن ابن عمر قال: «احفظوني في ذمتي»[3] والأحكام فيما يتعلق بأهل الذمة كثيرة، يرجع إليها في كتب الفقه المختصة.



(١) انظر المغني: لابن قدامة، (ج١٠/ ٦٠٦ ـ ٦١٨).

(٢، ٣) الأحكام السلطانية للماوردي، ص (١٤٣).



الفصل الرابع

سياسة المرابطين في دولتهم المجيدة



المبحث الأول

نظم الحكم والادارة في دولة المرابطين

أولاً: النظام الإداري:

١ ـ نظام إمارة المسلمين:

كان النظام السائد في إمـارة المسلمين عند المرابطين يعتمد على اختـيار الأميـر وفق فقه الشورى، وكـانوا حريصين على تطبيق قـول الله (تعالى): ﴿ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ [الشورى: ٣٨].

وكان زعماء المرابطين يتشاورون في الوسائل التي تعين على تمكين الحق وإظهار الصـواب، ونشر الصـلاح بين العبـاد، واقتدوا بالقـرآن الكريم في توجـيهه للـرسول (ﷺ): ﴿ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

«أي لا يصدنك مـا كان منهم من خطأ رأيهم فيمـا بدا منهم يوم أحد عن أن تستعين برأيهم في مواقع أخرى، فإنما كان قد حصل فلتة تُغفر وعثرة تُقال، وشاورهم في أمر الحرب وأمثاله مما يجري فيه المشاورة»[١].

وقد دلت الآية على أن الشورى قد أمر بها الرسول (ﷺ) في مهمات الأمة ومصالحها كالحرب ونحوها، وذلك في أمر التشريع، لأن أمر التشريع إن كان فـيه وحي فـلا محـيد عنه، وهي توجـيه لكل ولاة الأمـر بعده أن يشاوروا في أمـر الدين والدنيا، وما ليس فيـه نص واضح، وهي تشمل هنا المشاورة في شؤون الأمة ومصالحها[٢].

وكان مذهبـهم في الشورى مذهب المالكية وليس الخـصوص، قال ابن خويز منداد: «واجب على الولاة مـشاورة العلماء فيـما لا يعلمون، وفـيما

(١) انظر: تفسير أبي السعود، (ج١/٥٥٨).
(٢) انظر: تفسير القرطبي، (ج٤/ ٢٠٥).

يشكل من أمور الدين، ووجـوه الجيش فيما يتـعلق بالحرب، ووجوه الناس فيما يتـعلق بالمصالح، ووجوه الكتاب والوزراء والعمال فيـما يتعلق بمصالح البلاد وعمارتها»[١].

وأشار ابن العربي إلى وجوبها بأنها سبب الصواب، فقال: «والشورىٰ مسبار العقل وسبب الصواب»، ويشير إلىٰ أننا مأمورون بتحري الصواب في مصالح الأمة، وما يتوقف علىٰ الواجب فهو واجب[٢].

ويذهب ابن عطية أيضا إلىٰ الوجوب، بل يؤكـد هذا الوجوب فيقول: «الشورىٰ من قواعـد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستـشير أهل العلم فعَزْلُه واجب، وهذا ما لا اختلاف فيه»[٣].

لقد كـان نظام الشورى هو الأسـاس الذي اعتمـده المرابطون في نظام حكمهم في بداية دولة المرابطين قبل يوسف بن تاشـفين، فقد كان المرابطون يختارون بكامل الحرية رئيـسهم الذي يتم تعيينه بعد عقـد مجلس من زعماء القبائل والولاة والعلماء والفقهاء يشـارك فيه شيوخ المرابطين وأعيانهم، بهذه الطريقة تم اختيار عبد الله بن ياسين، الذي لم يحرص علىٰ استمرار الإمارة في أسرته، كمـا أنه لم يباشر أي ضغط علىٰ المرابطين في اختـيار يحيى بن عمر ثم أبي بكر بن عمر، بل كانت وصيته الأخيرة للمرابطين قوله: «إياكم والمخالفة والتحاسد علىٰ الرياسـة، فإن الله يؤتي ملكه من يشاء، ويستخلف فى أرضـه من أحب من عبـاده، ولقـد ذهبت عنكم فـانظروا من تقدمـونه منكم، يقوم بأمركم ويقود جيوشكم، ويغزو عدوكم، ويقسم بينكم فيأكم، ويأخذ زكاتكم وأعشاركم»[٤].

---

(١) تفسير القرطبي، (ج٤/ ٢٠٥).
(٢) ابن العربي .
(٣) ابن أبي زرع القرطاس، ص (٩٠).
(٤) المرجع السابق.

ومن هذه الوصية يتبين أن الزعيم الأول للمرابطين، لم يكن يرى طريقة الحكم الوراثي، أما يوسف بن تاشفين فقد كان يخشى أن يعود الأمر فوضى بعده وأن تنفصم عرى هذه الوحدة، وتنتهى هذه الدعوة التى عمل جاهدًا على تبليغها زهاء نصف قرن، لذلك رأى يوسف أن يعين واليًا للعهد يستخلفه بعد موته، وهكذا حدث انحراف في اختيار الحاكم عند المرابطين من الشورى إلى النظام الوراثي منذ أن اختار يوسف بن تاشفين ابنه عليًا واليًا لولاية العهد، وكان اجتهاد يوسف بن تاشفين في هذا التعديل الخطير يعتمد على رأيه أن اجتهاده ذلك يحفظ وحدة بلاده ودولته، ويقضي على التنافس من أجل الحكم، ورأى مصلحة بلاده وشعبه تقتضي اختيار ابنه.

كان من الطبيعي أن يمهد لفكرته في اختيار ولي العهد، ولذلك شاور كل من يهمه الأمر حول هذا الاختيار، ولهذا بادر بمشاورة الفقهاء والقضاة وزعماء القبائل وأفراد الأسرة المرابطية وكبار رجال الدولة في سنة ٤٩٥ هـ/ ١١٠١م، وناقشهم في المبررات التي دفعته إلى اختياره، فوافقه الجميع على ما اعتزم عليه، وعلى إثر ذلك قُرئ مرسوم البيعة الذي يتضمن الأسباب التي حملته على هذا الاختيار، والشروط الواجب توافرها فيه، والمبادئ التي ينبغي أن يسير عليها، وهذا المرسوم كتبه الوزير الفقيه أبو محمد بن عبد الغفور، وكان من أعلام البلاغة في ذلك العصر[1].

ونستخلص من نص الوثيقة التي ذكرتها فيما مضى أن يوسف بن تاشفين اتبع مبدأين في اختياره ولده أبا الحسن عليًا وليًا لعهده.

أولهما: مبدأ الاختيار:

فقد أشارت الوثيقة التي ذكرتها إلى أن يوسف قد اختار من بين أولاده

---

(١) انظر: الحلل الموشية، ص (٥٦، ٥٧).

مَن هو أصلح لقيادة تلك الدولة المترامية الأطراف: «فوجد ابنه الأمير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحاً إلى المعالي واهتزازًا، وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازًا، فاستنابه فيما استرعى ودعاه لما كان إليه دعا»(١).

ثانيهما: مبدأ الشورى:

فقد أخذ يوسف به، وتمسك بما جاء في القرآن الكريم، وما جاء على لسان نبيه (ﷺ)، وما سار عليه الخلفاء الراشدون: «ودعاه لما كان إليه دعا، بعد استشارة أهل الرأي على القرب والنأي»(٢).

كما أشار مرسوم البيعة إلى أنها كانت مشروطة ببعض الشروط، اشترطها الأمير يوسف على ابنه، وأهم تلك الشروط: التمسك بالمبادئ التي دعا إليها الإمام عبد الله بن ياسين من إعلان الجهاد على أعداء الإسلام، واحترام الفقهاء والقضاة والعلماء، والعمل على إقامة العدل بين الرعية، بالإضافة إلى بعض الأمور التي تتعلق بضمان أمن الدولة من وضع سبعة عشر ألف فارس بالأندلس موزعة على أقطار معلومة، يكون منها بإشبيلية سبعة آلاف فارس وبقرطبة ألف فارس، وباقي العدد على ثغور المسلمين للذَّب والمرابطة في الحصون المعاينة للعدو(٣).

وفي عام ٤٩٦هـ دخل يوسف بن تاشفين قرطبة، وجمع كبار رجال الدولة وأمراء لمتونة أشياخ البلاد، وقادة الرأي والفقهاء والعلماء والقضاة، وتلا عليهم عقد البيعة لابنه علي الذي سبقت الإشارة إليه، وضمَّنه الأسباب التي حملته على اختياره وليًا للعهد، ثم أخذ البيعة له من جميع

---

(١) المرجع السابق.

(٢) الحلل الموشية، ص (٥٦، ٥٧).

(٣) تاريخ المغرب والأندلس، ص (٢٥١).

الحاضرين، وأقسم هؤلاء يمين الطاعة والولاء، ثم وقَّعوا على عقد البيعة، وقام على أثر ذلك، فأقسم أمام الحاضرين بالتزام شروط العقد وتَرَسُّم السياسة التي رسمها أبوه، ثم أشهد الكتاب ووقَّع على الوثيقة(١).

أ- وفاة الأمير يوسف:

ثم عاد يوسف بن تاشفين إلى المغرب، حيث مرض مرضه الأخير الذى استمر زهاء عامين وشهرين، وانتهى بوفاته عن مائة عام حافلة بالجهاد والدعوة وإعزاز دين الله، وكانت سنة وفاته ٥٠٠ هـ/ ٢ سبتمبر ١١٠٦م وكان ولي العهد يقوم أثناء مرض أبيه بتصريف أمور الحكم نيابة عن أبيه، ونجح نجاحًا كبيرًا في إدارة دفة الحكم لدولة المرابطين، وكانت آخر وصية من يوسف لابنه في مستهل سنة ٥٠٠ هـ، أن أوصى ولده وولي عهده بعده أبا الحسن علياً بثلاث وصايا، أولها: «ألا يهيِّج أهل جبل درن ومن وراءه من المصامدة وأهل القبلة» والثانية: «أن يهادن بني هود بالأندلس، وأن يتركهم حائلين بينه وبين الروم» والثالثة: «يقبل ممن أحسن من أهل قرطبة ويتجاوز عن مسيئهم»(٢).

ب- لقب أمير المسلمين:

كان زعماء المرابطين يطلقون على أنفسهم لقب الأمراء، وظل المرابطون يطلقون لقب الأمير على كل زعيم يتولى أمرهم ابتداء من عهد أمير لمتونة أبي زكريا يحيى بن عمر اللمتوني، فتلقب به يحيى كما تلقب به أخوه أبو بكر بن عمر بعد وفاته، وعندما تولى يوسف بن تاشفين زعامة المرابطين منذ ٤٦٤هـ ظل يتلقب بالإمارة إلى سقوط أبي بكر بن عمر شهيدًا في أحد

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) ابن أبي زرع، ص (١٠٣).

المعارك في سنة ٤٨٠هـ/ ١٠٨٧م وعندئذ أصبح يوسف الزعيم الأوحد للمرابطين، واجتمع إليه أشياخ قبيلته وعرضوا عليه أن يتلقب بأمير المؤمنين، لأن حقه أكبر من أن يلقب بالأمير، فرفض ذلك قائلا: «حاشا أن أُسمَّى بهذا الاسم، إنما يتسمَّى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة، وأنا رجلهم والقائم بدعوتهم»[1]، ولكنهم قالوا له: إنه لا بد لك من اسم يمتاز به على سائر الأمراء، واقترحوا عليه لقب أمير المسلمين وناصر الدين، وأصبح العمل جارياً به عند سائر المرابطين، وقد صدرت الكتب تحمل هذا اللقب بعد وفاة أبي بكر بن عمر على القول الأرجح، وهذا نص الكتاب الذي أرسله إلى الولاة والقادة والعلماء: «بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما: من أمير المسلمين وناصر الدين يوسف بن تاشفين إلى الأشياخ والأعيان والكافة أهل فلانة أدام الله كرامتهم بتقواه ووفقهم لما يرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد، حمداً لله أهل الحمد والشكر، وميسر اليسر وواهب النصر، والصلاة على محمد المبعوث بنور الفرقان والذكر، وأنا كتبناه إليكم من حضرتنا العلية بمراكش ـ حرسها الله ـ، وأنه لما مَنّ الله علينا بالفتح الجسيم، وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة، وهدانا وهداكم إلى شريعة محمد المصطفى نبينا الكريم صلى الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم؛ رأينا أن نُخصص أنفسنا بهذا الاسم لنمتاز به على سائر أمراء القبائل، وهو أمير المسلمين وناصر الدين، فمن خطب الخطبة العلية السامية فليخطبها بهذا الاسم إن شاء الله (تعالى)، والله ولي العدل بمنه وكرمه والسلام»[2].

---

(١) دولة المرابطين، ص (١٦٢). (٢) دولة المرابطين، ص (١٦٢، ١٦٣).

ويرى بعض المؤرخين من أمثال أبي زرع في «روض القرطاس» إلى أن الأمير يوسف تلقب بأمير المسلمين في يوم الـزِّلاقة، ولم يكن يدعى به من قبل، وإن ملوك وأمـراء الأندلس- وكانوا ثلاثة عشر ملكًا- بايعـوه وسلموا عليه باسم أمير المسلمين وهو أول من سُمِّي به من ملوك المغرب.

وقد تأثر شـعب النيجر بشكل خاص بـالمرابطين، وأطلق على حكامه لقب أمـيـر المسـلمين، وكـانوا مـالكيين في المذهـب، ويرجع ذلك إلى أن المرابطين هم الذين نشروا الإسلام في تلك الربوع النائية[1].

ج. نائب الأمير:

كان اتساع مملكة المرابطين سببًا في اتخاذ نواب ينوبون عنه؛ حيث كان من المستحـيل على أمير المسلمين أن يشرف وحده على تلك الدول المتـرامية الأطراف، فعيَّن بعض النواب المقربين إليـه، فعين نائبًا على شؤون الأندلس ونوابًا على إقليم المغـرب، وكان يُـراعَى في اختـيار النائب أن يكون أقـرب الناس إلى أمير المسلمـين، وأن يتوفر فيه حسـن الإدارة والكفاءة العسكرية، ويعتـبر ممثلاً أوليًا لأمـير المسلمين، ويستمـد نائب الأمير سلطته مـن الأمير شخصيا، وكان ولي العهد نائبًا للأمير، وتولى نيابة الأندلس، وكانت قرطبة هي المفضلة لإقامـة ولي العهد لمكانتها الساميـة في نفوس الأندلسيين، وأول نائب عينه الأمير يوسف على الأندلس القائد سير بن أبي بكر اللمتوني، ثم بدل به ابنه أبـا الطاهر تميم بن يوسـف، وتلي نيـابة الأندلـس- من حـيث الأهمية -نـيابة فاس بالمغرب، وكـان النائب يستقر فـيها عندما كـان الأمير يوسف يعود إلى مراكش كي لا تحدث ازدواجية في السلطة[2].

---

(١) المرجع السابق نفسه، ص (١٦٢، ١٦٣).

(٢) حركات النظام السياسي والحربي عند المرابطين، ص (٦٥).

كانت مهمة النائب بالدرجة الأولى عسكرية إذ كان عليه أن يخوض الحروب، ويقمع الفتن وحركات التمرد، يعاونه قادة كبار من لمتونة[١].

وكان من سياسية يوسف بن تاشفين مع نوابه مراقبتهم، ولا يتيح لهم الاستقرار في مناصبهم لعهود طويلة حتى لا يعملوا على الاستقلال، فكان النواب دائمًا معرضين للنقل من ولاية إلى أخرى.

وكان نائب أمير المسلمين يتخذ لنفسه كتّابًا يقومون عنه بالمكاتبات، أو تسند إليهم بعض الأعمال الإدارية، وممن ظهر من كتاب نواب أمير المسلمين علي بن يوسف في الأندلس الكاتب الأديب أبو عبد الله محمد بن أبي الخصال كاتب الأمير محمد بن الحاج، وأبو بكر بن الصائغ كاتب الأمير أبي بكر بن إبراهيم، والزبير بن عمر اللمتوني كاتب تاشفين بن علي، وكانت حياة كل نائب من نواب أمير المسلمين صورة مصغرة من حياة هذا الأمير، فكانوا يتخذون القصور والخدم والفقهاء والأعوان[٢].

د- تولية الولاة:

كان الأمير يوسف يُعين الولاة على الأقاليم من لمتونة بشكل خاص وصنهاجة بشكل عام؛ فولى أمراء قومه الأقاليم، فقبل ضم الأندلس كان سير بن أبي بكر على مدائن مكناسة وبلاد مكلالة وبلاد فازاز، وولَّى عمر ابن سليمان المسوفي مدينة فاس وأحوازها، وداود بن عائشة سلجماسة ودرعة، وتميم بن يوسف مدينة أغمات ومراكش وبلاد السوس وسائر بلاد المصامدة وتدلا وتامسنا، وبعد ضم الأندلس عين يوسف بن تاشفين القائد

---

(١) مجلة كلية الأداب، جامعة القاهرة، المجلد ١١، (ج ٢/٢٧)، تحت عنوان الثغر الأعلى في عهد المرابطين، د. حسين مؤنس.

(٢) تاريخ المغرب والأندلس في عهد المرابطين، ص (٢٦٣).

سير بن أبي بكر حاكمًا على الأندلس، وفوَّض له تعيين والٍ على كل بلد يفتحه ويكون من لمتونة.

وكان الولاة يخضعون مباشرة لنائب الأمير، ومُنح الأمير يوسف سلطات واسعة: منها حق التصرف في عزل وتعيين مَن دونهم من الولاة المحليين، ومَن يليهم من رجال السلطة، وكذلك القيام بتحركات عسكرية داخل مناطق نفوذهم، وكان الأمير يوسف وابنه من بعده يراقبون ولاتهم مراقبة شديدة، ويجرى تبديلهم وعزلهم إذا أساؤوا، وكانوا يضعون مصالح الرعية في المقام الأول عند تعيين الولاة[1].

هـ. نظام الوزارة:

كان الأمير يوسف بعيدًا كل البعد عن اتخاذ الألقاب والألفاظ والاهتمام بالمناصب، فلم يتخذ وزراء بالمعنى المتعارف عليه، ولم يمنح لقب وزير لأي شخص، إلا أنه اتخذ لنفسه أعوانًا يرجع إلى مشورتهم، وكتابا يشرفون على ديوان الرسائل أو الإنشاء، وكانت لديه هيئة استشارية تشترك فيها طائفة من الفقهاء، والأعيان والكُتَّاب يلازمونه في قصره وتنقلاته، يبدون آراءهم في المشاكل المطروحة للبحث، وتبقى الكلمة الفاصلة للأمير، أما في الأمور المهمة فكان يجمع زعماء المرابطين وأبناء عمومته من لمتونة للتداول واتخاذ الآراء، وكان الاتصال بالأمير عن طريق الأعوان من السهولة بمكان، وساعد على ذلك ما امتاز به الأمير من زهد في الدنيا، وتطلع للآخرة وحب البساطة، وميل للتواضع.

ويذهب الأمير يوسف في مذهبه إلى أن الشورى معلمة وغير ملزمة وله في ذلك أدلة؛ حيث ذهب بعض المفسرين إلى الشورى غير ملزمة،

(١) دولة المرابطين ص (١٦٥).

مستندين في ذلك إلىٰ قوله (تعالىٰ): ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾.

ذهب الإمام الطبري إلىٰ القول: «إذا صح عزمك بتثبيتنا إياك وتسديدنا لك فيما نابك وحزبك من أمر دينك ودنياك، فامض لما أمرناك به، وافق ذلك آراء أصحابك وما أشاروا به عليك أو خالفها، وتوكل فيما تأتي من أمورك علىٰ ربك، فثق به في كل ذلك، وارض بقضائه في جميعه دون آراء سائر خلقه ومعونتهم»[١].

ويرىٰ بعض العلماء أن رأي الشورىٰ ولو أنه غير ملزم لكنه ينير الطريق أمام الحاكم[٢].

وأضاف العلامة أبو الأعلى المودودي في قضية الشورىٰ هل هي معلمة أو ملزمة بُعدًا آخر وهو طبيعة المجتمع وما يسوده من أخلاق؛ حيث يقول: «ما وجدت حكمًا قاطعًا في هذا الباب في أحاديث الرسول (ﷺ)، غير أن العلماء قد استنبطوا من عمل الصحابة في عهد الخلافة الراشدة أن رئيس الدولة هو المسؤول الحقيقي عن شؤون الدولة، وعليه أن يسيرها بمشاورة أهل الحل والعقد، ولكنه ليس مقيدا بأن يعمل بما يتفقون عليه كلهم أو أكثرهم من الآراء، وبكلمة أخرىٰ أنه يتمتع بحق الاعتراض علىٰ آرائهم.

ولكن هذا الرأي في صورته المجملة كثيرًا ما يسبب سوء الفهم بالقياس إلىٰ أحوالهم وأوساطهم الحاضرة، ولا ينظرون إلىٰ ذلك الزمان ولا الوسط الذي قد أخذنا هذا الرأي من أعمال الأمة فيه، فما كان أهل الحل والعقد في عهد الخلافة الراشدة منقسمين إلىٰ أحزاب متفرقة، بل كانوا كلما دعوا للمشاورة يأتون المجلس بقلوب ملؤها الإخلاص... ثم يوازن الخليفة بين

---

(١) تفسير الطبري، (ج ٧/٣٤٦).

(٢) د. عبد الحميد متولي، مبدأ الشورىٰ في الإسلام ص (٥٢).

الحجج الموافقة والمعارضــة ويعرض عليهم ما عنده من الدلائل، ويبين رأيه، وكان هذا الرأي في عامة الأحــوال رأياً يسلم به أعضاء المجلس كلهم. . .» ثم قال: «لم نعثــر في تاريخ الخلافة الراشدة كله على مثال واحــد نرى فيه أهل الحل والعقــد قد تفرقت آراؤهم حتى آل الأمــر إلى عدد الأصوات»[1]، وهذا تفــريق جمــيل بين المجــتمــع الإسلامى في حــاضــرنا وبين المجتــمع الإسلامي القائم على أسس دولة القرآن التي تربي المسلم على خشية الله فلا ينحرف عن الجادة.

وربما كان يوسف بن تاشفين وأمراء المرابطين مُحقين في أخذهم بالرأي القائل بأن الشــورى معلمة للأمير وليــست ملزمة، ولهم أدلة كثيــرة للتدليل على هذا المبدأ.

إلا أنني أرى الفــائدة الكبــرى والاستــفادة العــظمى في زمننا هذا في الأخذ بالرأي القائل بأنها ملزمة، والقائلون بهذا القول لهم أدلتهم، منها:

إن الشورى ملزمة للحاكم طالما أنها مـؤيدة بالشرع والعقل، فيقول ابن تيمية: «وإذا استشارهم فإن بيَّن له بعضهم ما يجب اتباعه من كتاب أو سنة رسوله أو إجــماع المسلمين، فعليــه اتباع ذلك، ولا طاعة لأحــد في خلاف ذلك، وإن كان عظيمًا في الدين والدنيا، لقوله (تعالى): ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٥٩][2].

ولو كانت الشورى غــير ملزمة، لكان بإمكان النبي (ﷺ) أن يجــنب الجماعة المسلمة تلك التجربة المريرة التي تعرضت لها في غزوة أحد، لو أنه قضى برأيه في خطة المعركة، مستــندًا إلى رؤياه. . ولم يستشر أصحابه، أو

(١) أبو الأعلى المودودي، نظرية الإسلام وهديه في السياسة والقانون ص (٢٧٣ ، ٢٧٤).

(٢) السياسة الشرعية، لابن تيمية، ص (١٨١، ١٨٢).

لو أنه رجع عن الرأي عندما سنحت له فرصة الرجوع . . ولكنه ـ وهو يقدر النتائج كلها ـ أنفذ الشورىٰ . . ثم يجيء الأمر الإلهي له بالشورىٰ ـ بعد المعركة ـ تثبيتًا للمبدأ في مواجهة نتائجه المريرة»[1]، وبهذه الأدلة التي ذكرتها نسترشد بهذا المبدأ في مسيرتنا الحركية والدعوية والتنظيمية التي تسعىٰ لإعادة الإسلام كنظام شامل يتناول مظاهر الحياة جميعًا، ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا﴾ .

و ـ ديوان الرسائل والمكتبات عند المرابطين:

كان المرابطون يهتمون بديوان الإنشاء، ولذلك حرصوا علىٰ أن يتولاه رجال من أشهر الأدباء في تلك الفترة جُلُّهم أندلسيون، واهتم الأمير يوسف بجلب الأدباء والبلغاء والفقهاء لهذه الأعمال، واستفاد من كُتَّاب ملوك الطوائف، وتوسع ديوان الرسائل مع امتداد رقعة دولة المرابطين، وانتفع المرابطون انتفاعاً عظيماً بخبرة الأندلسيين أصحاب الحضارة الأدب، وأقبل المغاربة علىٰ ثقافة الأندلس ينهلون منها في تواضع المستفيدين، وحدث تنافس بين الكُتاب، وحاولوا أن يُثبتوا جدارتهم في هذا الفن، وأصبح ديوان الأمير يوسف متألقًا بالحضارة.

وقام ابنه عليّ بتطوير ديوان الرسائل، وجلب له كتابا في غاية البلاغة ودقة الأسلوب، وجمال التعبير، ومما دفع الأمير عليًا علىٰ تطوير دولته تربيته الرفيعة وذكاؤه الوقّاد، واهتمامه بكتاب ملوك الطوائف، وتقريبهم إليه في زمانه، فشعر بحاجته إلىٰ طائفة مثقفة تفهم لغة الوفود، وتجيد فنون الكتابة، ومن أشهر أولئك الكتاب والأدباء والبلغاء: محمد بن سليمان الكلاعي المتوفى عام ٥٠٨ هـ، وصفه ابن خاقان في «القلائد» بقوله: «غرة

(١) سيد قطب في ظلال القرآن، (ج١/ ٥٣٢).

في جبين المُلْك، ودرة لا تصلح إلا لذلك السلك، باهت به الأيام، وتاهت في يمينه الأقلام، واشتملت عليه الدول اشتمال الكمام على النور، وانسربت إليه أماني انسراب الماء الغور»[١].

ويقول عنه ابن الصيرفي: «الوزير الكاتب الناظم الناشر، القائم بعمود الكتابة، والحامل للواء البلاغة، والسابق الذي لا يشق غباره، ولا تخمد أبدا أنواره، اجتمع له براعة النشر، وجزالة النظم، رقيق النسيج حصيف المتن رقعته وما شيت في العين واليد»[٢].

وكذلك انضم إلى البلاط المرابطي أبو محمد عبد المجيد بن عبدون المتوفى ٥٢٠ هـ، وأبو القاسم محمد بن الله بن الجد الفهرى المتوفى في عام ٥١٥ هـ، وابن أبي الخصال الغافقي المتوفى ٥٤٠ هـ، وأبو زكريا بن محمد بن يوسف الأنصاري الغرناطي المتوفى ٥٧٠ هـ، في غرناطة، وأحمد بن أبي جعفر بن محمد بن عطية القضاعي الذي نكبه عبد المؤمن بن علي خليفة الموحدين، وغير هؤلاء كثير من الأدباء والكتاب الذين عملوا في خدمة دولة المرابطين زمن أمير المسلمين عليّ بن يوسف[٣]، ولا ننسى أن الوزارة في زمن عليّ بن يوسف تطورت تطورًا ملحوظًا، وأصبح الوزير بمنزلة السمع والبصر واللسان والقلب بالنسبة لأمر المسلمين، وفي الأمثال: نعم الظهير الوزير.

كان الحكم في دولة المرابطين قائمًا على أسس عسكرية، فأمير المسلمين هو قائد الجيش الأعلى، ومعاونوه هم قواد الجيش، لهذا كان من الطبيعي

---

(١) قلائد العقبان ص (١٠٤).

(٢) المركش، عن ابن الصيرفي في المعجب. ص (١٦٤).

(٣) انظر: تاريخ المغرب والأندلس، للدكتور حمدي عبد المنعم، ص (٢٧٠ ، ٢٧١).

أن يتسم منصب الوزير بالطابع العسكري كذلك، ولكن لما كان الأمر يتطلب من الوزير أيضـا كتابة الوثائق، والمراسـيم وصيـاغتهـا فقـد وُجد في دولة المرابطين صنفان من الوزراء.

١ ـ وزراء عسكريون من قيادة الجيش، وهم من قرابة السلطان عادة أو من قبائل لمتونة وصنهاجة التي قامت على أكتافهم دولة المرابطين.

٢ ـ وزراء كُتاب وهم من الفقهاء.

وكان المغاربة يطلقون كلمة فقيه على العالم بالأحكام الشرعية، إلا أن أهل المشرق أصبح ذلك المصطلح عندهم يطلق على دارس الفـقه عمومًا من الطلبة.

وتوسع الأمـيـر عليّ بن يوسف في اتخـاذ الوزراء والمستـشـارين من الفقـهاء وكـبار العلمـاء، وكان من أخص وزرائه الفـقيه مـالك بن وهيب الإشبيلي الذي شـارك في جميع العلوم، ونظم الشعر، وكـتب مؤلفات في الفلسفة والتاريخ، وهذا الفقيه هو الذي أشار على سلطان المرابطين عليّ بن يوسف بقتل محمد بن تومرت زعيم دولة الموحـدين فيما بعد، حيث تفرَّس فيه حدة نفسه وذكاء خاطره، واتساع عبارته، فأشار على أمير المسلمين بقتله أو اعتقاله، قبل أن يستفحل خطـره، لأنه رجل مفسد ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه، غـير أن عليّ بن يوسف توقف في قتله واعـتقاله، وأبى ذلك عليه دينه، لعدم ثبـوت التهمة عليه، وقد صح ما تفَّـرسه مالك بن وهيب، إذ أنه على يد هذا المدعي المهـدية الكذاب ابن تومرت قـامت دولة الموحدين التى قضت على دولة المرابطين في المغرب والأندلس[1].



(١) انظر: تاريخ المغرب والأندلس، للدكتور حمدي عبد المنعم، ص (٣٦٨).



المبحث الثاني

النظام القضائي في دولة المرابطين

تمهيـد:

للقضاء مكانة عظيمة ومنزلة شريفة، وفاصل بين الناس في خصوماتهم وحاسم للتداعي وقـاطع للتنازع، وكان العرب في جاهليتـهم يعرفون منزلة القضاء، ويختارون له أهله، ويطلقـون عليهم الحُكام، واهتم المسلمون بهذا الأمر، ومـارسه رسـول الله (ﷺ) في زمانه، وسـار الخلفاء من بعـده على دربه، وأصبح القضاء بعد رسول الله (ﷺ) في عداد الوظائف الداخلة تحت الخلافة، وتطور القضـاء مع تطور دولة الإسلام، فكان الخليفة يتخـذ قاضيًا في حاضرة الخلافة وقضاء آخرين في الولايات والأمصار.

كان القـضاء في الأمصـار أول الأمر مُضـافاً إلى الولاة، حـتى كانت خلافة عـمر بن الخطاب فجعله مـستقلاً عن نظر الوالي، عيَّـن له من يتفرد بالنظر فيـه، ومع استقـلال القضاء عن نظـر الوالي، فإن تقليد القـضاء في الولايات كان يتم في الغالب عن طريق الولاة بتفويض الخليفة لهم، أما في العاصمة فكان الخليفة هو الذي يُعين القـاضي، إلى أن جاء الخليفة العباسي أبو جعـفر المنصـور الذي انحرف بالقـضاء نحـو مركزية الـدولة، وأخضع المؤسسـات القضائيـة لرقابتـه المستمـرة، وجعل تقليـد القضاء على قـضاء الأمصار من قـبله، وتابعه على ذلك خلفاء بني العباس، إلى أن اسـتحدث منصب قاضي القضاة في فترة تالية، فتولى قاضي القضاة النظر في مؤهلات المرشـحين للقضـاء ومراقـبة الكفـاءة المهنية للقـضاة فـي عاصـمة الخـلافة

وخارجـهـا[١]، واهتمت كل الدول التابعة للخلافـة بتطوير نظامها القضائي، وخـصوصـاً المرابطين الذين حـرصـوا على إقـامة العـدل ونشـره في ربوع بلادهم، فكان لمنصب القـضاة أهمية كـبيرة، ولذلك حـرص أمراء المرابطين على تعيين القضاة ممن برزوا في العلم والفقه وتميزوا بالمقدرة على تولي هذه المناصب في دولتهم دون الاسـتناد على العصبيـة القبلية، حتى أصـبح أكثر القضاة من غير قبيلة صنهاجة وهي سياسة حكيمة اتبعها الأمير يوسف رغبة في تحقيق العدالة وتطبيق تعاليم الإسلام.

وقد منـحهم رتبـة عالية في الـدولة حتى كثـرت أموالهم، واتـسعت مكاسبهم، وكانوا يستمدون نفوذهم من سلطة الدولة نفسها، يحكمون وفق المذهب المالكي، ويقوم بتنفيذ أحكامهم الولاة والحُكام المحليون، وقد شارك القضاة في معارك الجهاد في الأندلس، واستـشهد بعضهم في معركة الزلاقة منهم القاضي عبد الملك المصمودي قاضي مراكش[٢].

وكانت السلطة القضـائية تتمتع باسـتقلال كبير عن السـلطة التنفيذية، وكان تعيين القاضي يصدر بمرسوم عـن أمير المسلمين، وكذلك عزله، وكان لأهل البلدان التـابعة لدولة المرابطين حق التـرشيح لمن يرونه مناسـبًا لمنصب القضاء في بلدهم.

وإذا أراد المسلمين عزل قـاضٍ في بلد معين فعليه أن يوضـح الأسباب لأهل ذلك البلد.

أ- منصب قاضي الجماعة في الأندلس:

يعتبر منصب قاضي الجماعة من أرفع المناصب القضائية في الأندلس،

(١) تاريخ الحضارة العربية والإسلامية، د. محمد بطاينة، ص (٧٩).

(٢) دولة المرابطين، ص (١٦٦).

كان صاحبه يشرف على القضاء في جميع أنحاء الأندلس، ومن المرجح أن هذا المنصب الخطير كان لا يتولاه إلا كل من يثبت كفاءة عالية في أمور القضاء، وكان قاضي الجماعة في الأندلس يتمتع بسلطات واسعة، ومنهم أبو القاسم أحمد بن محمد بن علي بن محمد بن عبد العزيز التغلبي الذي وجه الأمير يوسف بن تاشفين إلى اتباع الحق في الأحكام دون أن يعرف في الله لومة لائم، فكتب له: «ولا تبالِ برغم راغم وتشفق من ملامة لائم، فآسِ بين الناس في عدلك ومجلسك حتى لا يطمع قوي في حيفك ولا ييأس ضعيف في عدلك، ولا يكن عندك أقوى من الضعيف حتى تأخذ الحق له، ولا أضعف من القوي حتى تأخذ الحق منه . .»[1].

ومن أشهر من تولى منصب قضاء الجماعة في الأندلس في عصر عليّ ابن يوسف، أبو الوليد مُحمد بن محمد بن أحمد بن رشد المالكي وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن خلف إبراهيم التجيبي المعروف بابن الحاج[2].

ب- قاضي الجماعة في المغرب:

كانت رئاسة القضاء في المغرب في زمن دولة المرابطين تُسند إلى قاضي الجماعة بمراكش، الذي كان يُسمى بقاضي قضاة المغرب أو بقاضي الحضرة، وكان على من يتولى هذا المنصب أن يكون من المقربين إلى قلب أمير المسلمين يستفتيه في كل ما يعرض له من شؤون، ومن أشهر من تولى هذا المنصب : أبو محمد عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن قاسم بن منصور اللخمي، وأبو الحسن علي بن عبد الرحمن المعروف بابن أبي حقون، وأبو سعيد خلوف بن خلف الله.

---

(١) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، (ج٢/١٠٦) ابن بسام.

(٢) تاريخ المرابطين، ص (٢٨٧).

لقد قطع المرابطون في تنظيم القضاء شوطًا أبعد من مجرد تقسيم قضاء الأندلس والمغرب وجعل زعامة القضاء في كل منهما لقاضي القضاة، أحدهما يختص بالأندلس والآخر بالمغرب، بل إن المرابطين اتخذوا فقيهًا له السلطة العليا على قضاء المغرب والأندلس على السواء، ومن المرجح أن زعامة القضاء في العدوتين كانت أحيانًا من نصيب قاضي مراكش أو قاضي سبتة أو طنجة، وأحيانًا أخرى لقاضي الجماعة بقرطبة[1].

جـ- مجلس الشورى القضائي:

كان للقاضي في صحبته مجموعة من فقهاء البلد الذي تولى قضاءه ليشاورهم قبل أن يصدر الأحكام، وكان قاضي المدينة يتولى اختيار هؤلاء الفقهاء من أهل مدينته، ممن يُعرفون بالورع والتقوى والتبحر في الفقه والعلوم الدينية، ويحدد ابن عبدون هؤلاء الفقهاء والمشاورين بأربعة: اثنين يشتركان في مجلس القاضي، واثنين يقعدان في المسجد الجامع[2].

د- القضاء العسكري:

عرفت دولة المرابطين ما يمكن تسميته بالقضاء العسكري، وكان يمارسه قضاة مختصون بحل مشاكل الجند في مواضع خاصة بالمعسكرات، كما كانوا يشتركون في القتال لحث الجند وتشجيعهم على القتال، وكان هؤلاء القضاة يسمون بقضاة المحلة أو قضاة الجند، وممن ذكرهم التاريخ فيمن تولوا منصب القضاء العسكري: عبد الرحيم بن إسماعيل الذي عُين قاضيًا في معسكر أمير المسلمين عليّ بن يوسف بمدينة سلا[3].

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس، ص (٢٨٨).

(٢) المرجع السابق، ص (٢٨٩).

(٣) تاريخ المغرب والأندلس، ص (٢٩١).

هـ ـ قضاء الذميين في دولة المرابطين:

أما بالنسبة لأهل الذمة في الأندلس، فقد كان رجال الدين النصارى واليهود يتولون القضاء لهم، دون أن يتدخل فيهم قضاة المسلمين، أجاز الفقهاء تقليد الذمي القضاء لأهل الذمة، وفي الأندلس خصص المسلمون لأهل الذمة قاضياً يعرف بقاضي النصارى أو قاضي العجم، أما إذا كانت الخصومة بين ذمي ومسلم فإن قضاة المسلمين يتولون الفصل بينهما، وفي هذا الصدد يشير أشباخ إلى أن النصارى كانوا «يتمتعون بحرية الشعائر ويحتفظون ببعض القوانين القوطية ولهم أساقفتهم وقضاتهم»[1].

و ـ شجون وأحزان وآلام وآمال:

إن السعي لإقامة دولة الإسلام في أي بقعة من بقاع العالم يحتاج للطلائع التي تسعى لهذا الهدف العظيم وفقه الأخذ بأسباب التمكين في جميع الأصعدة ومختلف الميادين.

وإذا نظرنا في النظم القضائية التي لا بد منها في أي دولة دينية أو علمانية وسألنا أنفسنا: ما حظ الحركات الإسلامية من هذا الفقه؟ وما هي الخطط التي وضعت لإيجاد هذه النظم القضائية الشرعية التي لا بد منها في أسلمة الدولة؟ وما هي الوسائل التي اتخذتها؟ وهل بدأت في إيجاد الكوادر التي تجمع فقه الشريعة والنظم المعاصرة؟ بحيث تستطيع أن تقدم نموذجًا حيًا لقدرة الإسلام على مواكبة التطور والتقدم بمفهومه الصحيح المنبثق من عقيدة الأمة ودينها وشريعتها لكانت الإجابة محزنة.

إن السعي لتحقيق هذه الجزئية من الجزئيات المطلوبة في إقامة الدول يحتاج من العاملين في هذه الميادين إلى جهد مضنٍ وسهر متواصل،

(١) تاريخ الأندلس، لأشباخ، ص (٨٢).

وتصميم أكيد على الوصول للهدف، وسعي دؤوب ممزوج بالدموع والعرق والدماء وهمم لا تعرف الوهن، وعزائم تنخر في هياكل الجاهلية ليدخل من خلال تلك الثقوب نور الإيمان وهدي القرآن لينتشر رويدًا رويدًا؛ زاحفًا على الظلام والضلال والظلم والكفران، وإعادة دولة الإسلام في أثوابها الزاهية، وتيجانها الناصعة، وعدلها المنتظر، وآفاقها الواسعة، ووظائفها المتعددة من إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ونصرة المستضعفين ومقارعة الظالمين، وفتح أبواب الجهاد وشراء سلعة الجنة بالمهج والأنفس والأرواح ثمنًا لها. إن أصحاب تلك الأهداف السامية والنبيلة لا بد لهم من أن يتميزوا في حياتهم عن غيرهم، فإن الآمال العظيمة لا يصل إليها إلا أصحاب النفوس الكبيرة.

إذا كانت النفوس كبارًا تعبت من مرادها الأجسام

إن تحديات الحركة الإسلامية كثيرة جدًا، فعليها أن تستعين بخالقها على تحقيق أهدافها، وعليها أن تكثر العمل وتُقلّل من الجدل، وتهتم بالرواحل وتترك المثبطين، وتصعد بأبنائها على كل المجالات والأصعدة وتهتم بتربيتهم وتزكيتهم وتفجير طاقاتهم وتوجيهها، حتى تسد الثغرات المتعددة، وعليها أن تحرص على أوقات أبنائها وتشغلهم بالنافع المفيد للأمة ولهم.

إن تحريك الشعوب الإسلامية نحو التغيير لإقامة شرع الله مقيد بسنن الله في المجتمعات والدول والأشخاص، وسنن الله لا تجامل ولا ترحم ولا تتغير ولا تتبدل، فعلينا أن نفقه سنن الله لنحسن التعامل معها، ونأخذ بها في خطواتنا لإقامة دولة الإسلام ونشر شريعة الرحمن.



المبحث الثالث

النظم العسكرية

أولا: صفات المجاهدين في سبيل الله:

تمهيد:

إن الجهاد في سبيل الله عظيم الكلفة والمشقة على النفس البشرية، قال (تعالى): ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦].

ولذلك لم يستطع أن يقوم بالجهاد الإسلامي على أصوله الصحيحة إلا من رزقه الله صفات تجعله أهلاً للقيام بهذه العبادة الكريمة.

والأصل العظيم الذي تنبثق منه كل صفات المجاهدين، سواء كانوا قادة أو جنودا، أو صفات الجيش كله هو الإيمان بالله العلي العظيم الذي بقوته تقوى صفات المجاهدين، وبضعفه تضعف تلك الصفات الرفيعة في القادة والأفراد والجيش على حد سواء، ولذا قال ابن تيمية «رحمه الله»: «وإذا كان أولياء الله هم المؤمنين المتقين فبحسب إيمان العبد وتقواه ولايته لله «تعالى»، فمن كان أكمل إيمانا وتقوى، وكان أكمل ولاية لله، فالناس متفاضلون في ولاية الله (عزّ وجل) بسبب تفاضلهم في الإيمان والتقوى»[1].

والذي يكون إيمانه أكمل يحقق عبوديته لله أكثر، فيكون وقته كله عبادة وصبرًا وعلمًا وتذكرًا وتقوى وإحسانًا وإخلاصًا واعتزازًا بدينه[2]، قال (تعالى): ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ * قُلْ يَا عِبَادِ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا رَبَّكُمْ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةٌ وَأَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةٌ إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم

(١) الفتاوى (ج١١/ ١٧٥).

(٢) انظر: الجهاد في سبيل الله، د. عبد الله القادري، (ج٢/ ٥).

بغير حساب * قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ * وَأُمِرْتُ لِأَنْ أَكُونَ أَوَّلَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الزمر: ٩ - ١٢].

إن زعماء المرابطين في تاريخهم المجيد حرصوا على تربية شعبهم المجاهد على صفات المجاهدين، سواء على مستوى الأفراد أو القادة أو الجيش أو الشعب.

أ- صفات القائد العسكري عند المرابطين:

إذا نظرنا في سيرة قادة المجاهدين في دولة المرابطين نجد أن خيار قادتهم تميزوا بصفات أهلَّتهم لقيادة الجيوش، وتحقيق النصر وإلحاق الهزائم بالأعداء، ومن أشهر أولئك القادة الذين تميزوا بصفاتهم القيادية أبو بكر بن عمر، ويحيى بن عمر، ويوسف بن تاشفين، وأبو محمد مزدلي، وسير بن أبي بكر، وأبو عبد الله محمد بن الحاج، وداود ابن عائشة، وعبد الله ابن فاطمة وغيرهم كثير.

نلاحظ أنهم تميزوا بأمور أهمها:

١ - الإكثار من طاعة الله وإعداد النفس لتحمل المشاق:

حيث تربوا على حسن صلتهم بربهم الذي يمدهم بالعون بقدر ما يحققون له العبودية؛ فكان لهم حظ من القرآن والصيام والقيام وحسن الصلة والإنفاق في سبيل الله، وكان لتربية عبد الله بن ياسين لهم في رباطه أثر كبير لازمهم على طول حياتهم، فكان في مرحلة التكوين يُربي أتباعه على الذكر والتوكل على الله، والصبر على الأذية في سبيل الله، وكان يعلمهم أساليب إتعاب النفس في ذات الله حتى تستطيع أن تتحمل المشاق في سبيله، وكان منهجه في ترسيخ هذه المعاني في نفوس أتباعه القرآن الكريم:

﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ * قُمِ اللَّيْلَ إِلاَّ قَلِيلاً * نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً * أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً * إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلاً ثَقِيلاً * إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلاً * إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً * وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلاً * رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلاً * وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلاً ﴾ **[المزمل: ١ - ١٠]**.

يقول سيد قطب (رحمه الله) في «ظلاله» في ترسيخ هذه المعاني في نفوس الدعاة: «إن الذي يعيش لنفسه قد يعيش مستريحًا ولكنه يعيش صغيرًا ويموت صغيراً، فأما الكبير الذي يحمل العبء فماله والنوم، وماله والراحة، وماله والفراش الدافئ، والعيش الهادئ، والمتاع المريح، ولقد عرف رسول الله (ﷺ) حقيقة الأمير وقدَّره، فقال لخديجة (ﷺ) وهي تدعوه أن يطمئن وينام: «**مضى عهد النوم يا خديجة**»، أجل مضى عهد النوم، وما عاد منذ اليوم إلا السهر والتعب والجهاد الطويل الشاق»[1].

لقد كان قادة المرابطين في تربيتهم الرشيدة جادين بعيدين عن الهزل واللهو واللعب، وتميز فيهم أبو بكر بن عمر، ويوسف بن تاشفين، فكان لهما السبق على أتباعهما في كل مجال من المجالات التي تُعتبر من ضرورات القائد الناجح.

٢ - القدوة الحسنة للجنود:

حيث نجد أن قادة المرابطين يقودون المعارك بأنفسهم، فقتل عبد الله بن ياسين في ساحات الوغى، ويحيى بن عمر كذلك، وأبو بكر بن عمر في جهاده في الصحراء الكبرى، كما كان يوسف بن تاشفين يقود الحرس الخاص الذي أعده لانتزاع النصر من الأعداء في الساعات الحرجة، ويندفع

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (ج٦/ ٣٧٤٤).

بجواده في ميادين الجهاد عندما يشتد وطيس المعركة، وضربوا أمثلة رائعة في إيمانهم وعملهم الصالح وشجاعتهم وكرمهم الفياض وحزمهم وإيثارهم وإقدامهم.

٣ ـ حرصوا على تزكية وتطهير جنودهم والارتقاء بهم طاعة لله:

إن بُعد الجنود عن التعليم والتربية والتطهير يكون سببًا في قسوة قلوبهم وانغماسهم في الآثام والذنوب، ومن ثَمَّ الهزيمة.

قال (تعالى): ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [آل عمران: ١٦٤].

وقال (تعالى): ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ [الجمعة: ٢].

يقول سيد قطب (رحمه الله): «ويزكيهم ويطهرهم ويرفعهم وينقيهم: يطهر قلوبهم وتصوراتهم ومشاعرهم، ويطهر بيوتهم وأعراضهم وصلاتهم، ويطهر حياتهم ومجتمعهم وأنظمتهم، ويطهرهم من أرجاس الشرك والوثنية والخرافة والأسطورة وما تبثه في الحياة من مراسم وشعائر وعادات وتقاليد هابطة بالإنسان وبمعنى إنسانيته، ويطهرهم من دنس الحياة الجاهلية وما تلوث به المشاعر والشعائر والتقاليد والقيم والمفاهيم»[1].

٤ ـ الخبرة بأمور الحرب والقوة فيها:

وظهر ذلك في قادة المرابطين في جهادهم من أجل توحيد المغرب الأقصى كله، والقضاء على دولة برغواطة الملحدة، وما خاضوه من حروب ومعارك ظهرت فيها خبرتهم الحربية، ومقدرتهم على تنفيذ أساليب الكر

---

(١) في ظلال القرآن (ج١/٧/٥٠)

والفر، وظهرت خبرة القائد الأعلى يوسف بن تاشفين في معركة الزلاقة التي أكسبت أركان الحرب خبرات عميقة؛ ساعدتهم في جهادهم من أجل ضم الأندلس لدولتهم الفتية تحت راية الإسلام بمنهجه السني القويم، والقضاء على الخطر النصراني في الأندلس.

وفي القرآن الكريم نجد إشارة لطيفة تبين صفات القائد العسكرية وهي: العلم والقوة، كما قال (تعالى): ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

وقد ظهر علمه وخبرته في اختيار جنده، ومعرفة الصالح منهم للجهاد وغير الصالح، وبرزت قوته في صموده وصبره ومصابرته ونجاحه في جهاده.

قال سيد قطب (رحمه الله): «وفي ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة، وكلها واضحة في قيادة طالوت، تبرز فيها خبرته بالنفوس وعدم اغتراره بالحماسة الظاهرة، وعدم التفاته للتجربة الأولى، ومحاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة، وفصله للذين ضعفوا وتركهم وراءه، ثم ـ وهذا هو الأهم ـ عدم تخاذله وقد تضاءل جنوده تجربة بعد تجربة، ولم يثبت معه في النهاية إلا تلك الفئة المختارة، فخاض بها المعركة ثقة منه بقوة الإيمان الخالص ووعد الصادقين المؤمنين»[١].

---

(١) في ظلال القرآن.

٥ ـ البعد عن طلب القيادة وابتغاء الرئاسة:

وظهر لي هذا المعنى في شخصية الأمير المجاهد الزاهد أبي بكر بن عمر، فعندما لمس من ابن عمه مقدرة على القيادة أسند الأمر إليه، ودخل متوغلاً في الصحراء الكبرى من أجل الدعوة والجهاد حتى أكرمه الله بالشهادة، وكان أمراء المرابطين يرون الإمارة قربة وعبادة يتقربون بها إلى الله لنصر دينه وتحقيق مصالح عباده، وليست مغنماً من جاه أو منصب أو مال.

٦ ـ إسناد الأمور إلى أهلها:

وهذه الصفة ظهرت لي في سيرة يوسف بن تاشفين في تعيينه للولاة والقادة والفقهاء، وما كان ليمتنع عن عزل من قَصَّر في عمله، ويعين من هو أفضل منه.

٧ ـ تربية الجندي على التسليم المطلق لله لا لشخص القائد:

وكان أمراء المرابطين يضربون أروع الأمثلة في زرع هذه المعاني في نفوس المجاهدين، فهذا أمير المسلمين يرفع يديه نحو السماء مناجيًا المولى (عزوجل): «اللهم إن كنت تعلم أن في جوازنا هذا إصلاحًا للمسلمين فسهل علينا هذا البحر حتى نعبره، وإن كان غير ذلك فصعبه حتى لا نجوزه»[1].

وفي وسط معركة الزلاقة وهو يبث الحماس في نفوس المجاهدين: «يا معشر المسلمين اصبروا لجهاد أعداء الله الكافرين، ومن رزق منكم الشهادة فله الجنة، ومن سلم فقد فاز بالأجر العظيم والغنيمة»[2]، وهكذا القائد المسلم هو الذي يربي جنوده بالمواقف على تحقيق العبودية الخالصة لله.

---

(١) دولة المرابطين، ص (٩٠).

(٢) دولة المرابطين.

ولهذا لما قتل عبد الله بن ياسين لم يتأثر المرابطون، وقتل يحيى بن عمر ومن بعده أبو بكر بن عمر، وما زادهم ذلك إلا إيمانًا وتسليمًا، وهذا يدل على حسن تربيتهم للمجاهدين وتعلقهم وتسليمهم لله لا للأشخاص، أما تربية اليوم في جيوش المسلمين شبيهة بالفرعونية، حيث يربي القائد جنوده على طاعته المطلقة في الخير والشر، كما يربيهم على الخضوع الكامل لشخصه.

ووصف الشيخ محمد الغزالي - «رحمه الله» هذه التربية فقال: «إن الذي يدرس المجتمعات الفاسدة، ويتغلغل في بحث عللها، والذي يتتبع أعمال الأدعياء وطلاب الزعامة، ويستقصي وسائلهم الملتوية في تسخير الجماهير للوصول إلى القمة، والذي يلحظ النهضات الكبرى وكيف يدركها الفشل فجأة لأنهم أصيبوا برجال يحبون الظهور، فلا يرحبون بالنصر إلا إذا جاء عن طريقهم وحدهم، أما إذا جاء عن طريق غيرهم فهو البلاء المبين»[1].

وقال سعد جمعة: «والفرق بين الإسلام والنظم المعاصرة أن الولاء في الإسلام هو لله وحده، بينما الولاء في النظم الأخرى المنعوتة بالتقدمية، هو للطاغية، أو الدكتاتور أو الحزب الحاكم أو الجيش العقائدي أو الإيديولوجية المتسلطة، ولذا فهو ولاء إكراه وضغط فكري وقهر بوليسي، لا ولاء الخير والمحبة والمودة والتقوى والأخوة»[2].

وكم نحن محتاجون إلى منهج الإسلام الصحيح في غرس الربانية والتسليم المطلق لله لا للأشخاص.

---

(١) الإسلام والاستبداد السياسي، ص (٣٥).

(٢) الله أو الدمار، ص (١٨١).

٨ ـ الحرص على قاعدة الشورى:

كان لأمير المسلمين في دولة المرابطين ونائبه مجلس حربي يضم قواد الفرق العسكرية المختلفة لدراسة الخطط الحربية، وتلقي الأوامر والتعليمات من القائد الأعلى، والتشاور في أمور الجهاد والبلاد والعباد، واتصف قادة المرابطين بحرصهم على إقامة مبدأ الشورى فيما بينهم.

فكان قرار الجهاد ضد النصارى في الأندلس بعد شورى شارك فيها الشيوخ والقادة والعلماء والفقهاء، وكان قرار ضم ممالك الطوائف بعد شورى كذلك، واشتهر الأمير يوسف بمشاورة ذوي الرأي من علماء الشريعة الإسلامية وذوي الخبرة فيما يعرض له من أمور.

٩ ـ الحرص على تحقيق الأهداف والضبط الإداري وقوة التأثير:

ظهرت هذ الصفات في شخصية يوسف بن تاشفين الذي أظهر مهارة إدارية عندما فتح مدينة سجلماسة، واستطاع أن يحقق أهداف المرابطين بعد جهاد دام ربع قرن، جنى بعدها المرابطون ثمرة أتعابهم وبسطوا سيطرتهم على المغرب الأقصى، ونشر الأمن في ربوعه، واستطاع يوسف بحسن سيرته وعدله أن يؤثر بقوة الحق الذي التزمه على قبائل المصامدة وزناتة وغمارة وغيرها.

١٠ ـ الشجاعة والكرم:

وظهرت هاتان الصفتان في قادة المرابطين في جهادهم في الأندلس، فبعد معركة الزلاقة عف الأمير يوسف وجنوده عن الغنائم وتركوها لملوك الطوائف، مع كونهم بذلوا من الدماء والنفوس في تلك المعركة ما لا يعلمه إلا الله، فدل فعلهم ذلك على شجاعتهم وكرمهم.

١١ ـ التصرف الحكيم السريع أمام المفاجآت:

وظهرت لي هذه الصفة عندما تدخل الحماديون من الحدود الشرقية، واعتدوا على دولة المرابطين من أطرافها، فجرد المرابطون لهم جيشًا، وردوهم إلى حدودهم، وعقدوا معاهدة أمن وسلام، وعندما أخطأ والي تلمسان المرابطي وشن هجوما على بني حماد دون إذن من القيادة العليا عُزل ذلك القائد وعُيِّن مكانه مَن هو أفضل منه، وتراضوا مع بني حماد، وعندما تأكد الأمير يوسف من خيانة ملوك الطوائف أسر بعضهم، وقتل بعضهم، وضرب الحصار على ممالكهم حتى أسقطها جميعا، وساعده على تحقيق تلك الأهداف قادة عظام اتصفوا بصفات عظيمة انعكست على جنود المرابطين.

هذه بعض الصفات التي حرص المرابطون على غرسها في قياداتهم وزعمائهم، فكانت خيرًا وبركة على تلك الدولة السنية الفتية.

ب ـ المنهج التربوي لجيش المرابطين:

اهتم المرابطون بتربية جنودهم تربية جهادية، اهتموا بجميع جوانبها الروحية والنفسية والفكرية والجسدية، وقد تميزت تربيتهم الروحية بربط المجاهد بالجنة والاشتياق إليها، فشهدت المعارك التي خاضوها ضد أعدائهم على حبهم للموت كحب خصومهم النصارى للحياة.

وغرس علماء المرابطين في نفوس جنودهم عقيدة الإيمان بالقدر، فأصبح الفارس منهم ينطلق كالسهم في صفوف الأعداء يضرب ذات اليمين وذات الشمال، لا يخشى إلا الله (تعالى) مؤمنًا بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية التي تدل على تعميق هذا المفهوم في نفوس المجاهدين.

قال (تعالى): ﴿ اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَىٰ عَلَيْهَا الْمَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَىٰ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ﴾ [الزمر: ٤٢].

وقال (تعالى): ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [التوبة: ٥١].

وقال (ﷺ): «**إن أحدكم يُجمع خَلْقه في بطن أمه أربعين يومًا نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ويؤمر بأربع كلمات: بكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد....**»[1].

وكانت وسائل المرابطين في تقوية الجانب الروحي في جنودهم وشعبهم المقاتل تعتمد على إحياء شعيرة الصلاة، والصيام، والزكاة، والحج، وتلاوة القرآن، والذكر، وأما وسائلهم في التربية النفسية فتعتمد على جهود العلماء والفقهاء الذين يقومون بتزكيتهم وإيضاح حقيقة النفس والكون والحياة وغرض الإنسان وهدفه في هذه الدنيا.

وكانوا يرون أن أهم أسباب تربية النفوس أن تستعد دائما للجهاد، وأن تتربى على خشونة العيش والطعام والشراب، وقلة النوم لتنمية فضيلة الصبر في نفوسهم.

ج- أبرز الجوانب التربوية في جيش المرابطين:

١ ـ الأخوة الإسلامية:

كانت من أسباب قوة الجيش المرابطي سريان روح الأخوة بين جميع فصائل الجيش، وامتلأت قلوبهم ونفوسهم بهذا المعنى السامي الذي كان سبباً في تذويب النعرات الإقليمية والعرقية، وجيوشهم تتكون من الزنوج، ومن قبائل صنهاجة المتفرقة، ومن العرب، ومن مسلمي الإسبان، وكل هذه الفصائل المتعددة والمتنوعة كونت أمة واحدة.

---

(١) رواه البخاري، رقم (٣٠٣٦).

قال (تعالى): ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ [الحجرات: ١٠]، وقال (تعالى): ﴿ وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا ﴾ [آل عمران: ١٠٣].

لقد تحلى جيش المرابطين بهذه الصفة الربانية العظيمة فقوَّت رابطة المجاهدين، وجعلتهم صفًا واحدًا كالبنيان المرصوص في مواجهة الأعداء.

٢ ـ التواصي بالحق والتواصي بالصبر:

فعندما أصيب عبد الله بن ياسين بجراح بالغة، وحُمل على إثرها إلى معسكره؛ جمع رؤساء وشيوخ المرابطين وحثهم على الثبات في القتال، وحذَّرهم من عواقب التفرقة والتحاسد في طلب الرئاسة، وما لبث أن فارق الحياة[1].

وهكذا جند الله المجاهدون لا يتباطؤون في مناصحة بعضهم بعضًا، لعلمهم بأن في هذا التباطؤ هلاكهم جميعاً الذي وصفه لهم الرسول (ﷺ) في حديث النعمان بن بشير (رضي الله عنهما) فقال: **«مثل القائم في حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا على سفينة، فأصاب بعضهم أعلاها، وبعضهم أسفلها، فكان الذين في أسفلها إذا استقوا الماء مرّوا على من فوقهم فقالوا: لو أنا خرقنا في نصيبنا خرقًا، ولم نؤذ من فوقنا، فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا جميعا، وإن أخذوا على أيديهم نَجوا، ونجوا جميعا»**[2].

إن مفهوم الجندية الإسلامية يترعرع في بيئات التناصح والتواصي بالحق والتواصي بالصبر.

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس، ص (٤٤).

(٢) البخاري رقم (٢٤٩٣)، فتح الباري (ج٥/ ١٣٢).

٣ ـ إصلاح ذات البين:

حرص المرابطون على نبذ الشقاق والقضاء على الخلاف وعلى رأب الصدع وإصلاح ذات البَيْن؛ لعلمهم أن فساد ذات البَيْن يقضي على جند الجهاد أكثر مما يقضي عليهم عدوهم الخارجي مهما قويت شوكته وكثر جنده، فاتخذوا أسلوب الحكمة واللين والرفق من أجل تحقيق هذا الهدف المنشود، وإذا خرجت فئة تستمرئ الشقاق أو تعمل على إيجاده؛ جَرَّدوا لها الجيوش وأخضعوها بالقوة، وهذا ما قام به الأمير أبو بكر بن عمر عندما تمردت بعض قبائل الصحراء على مبادئ المرابطين، واشتبكوا مع بعض القبائل الأخرى في قتال؛ فخرج إليهم بجيشه الكثيف، وأصلح ذات البين مستعملاً في ذلك القوة، ومن أجل الضرورة وإصلاح ذات البين أَذِن النبي (ﷺ) لمن أراد أن يستعمل الكذب الذي لا يُحِل حراما ولا يحرم حلالاً، لا سيما إذا كان من باب التورية والتعريض، كما في حديث أم كلثوم بنت عقبة أنها سمعت رسول الله (ﷺ) يقول: «**ليس الكذب الذي يصلح بين الناس فينمي خيرًا أو يقول خيرًا**»[١].

وجعل النبي (ﷺ) إصلاح ذات البين أفضل من الصلاة والصيام والصدقة، وحذر النبي (ﷺ) من فساد ذات البين، قال رسول الله (ﷺ): «**ألا أخبركم بأفضل درجة من الصيام والصلاة والصدقة؟**»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «**إصلاح ذات البين، وفساد ذات البين الحالقة**»[٢].

٤ ـ نصر الحق والثبات عليه:

لما أرسل فقهاء سجلماسة ودرعة إلى الفقيه ابن ياسين، يرغبون في

---

(١) البخاري رقم (٢٦٩٢)، فتح الباري (ج٥/ ٢٩٩).

(٢) رواه الترمذي (ج/ ٦٣٣).

الوصول إليهم ليخلص بلادهم مما تعانيه من الحُكام الطغاة الظلمة زناتة المغراويين وأميرهم مسعود بن وانودين، فجمع ابن ياسين شيوخ قومه، وقرأ عليهم رسالة فقهاء سجلماسة؛ فأشاروا عليه بمد يد المعونة لهم، وقالوا له: «أيها الشيخ الفقيه هذا ما يلزمنا فسر بنا على بركة الله (تعالى)»[١].

ولما طلب ملوك الطوائف العون من المرابطين لنصرتهم على النصارى لبوا نداء الحق، لقد كان جيش المرابطين حريصا على نصرة الحق وإحقاقه والقتال عليه.

لقد حرص المرابطون على أن يشملهم قول رسول الله (ﷺ): «**لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك**»[٢]، وقوله (ﷺ): «**من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين، ولا تزال عصابة من المسلمين يقاتلون على الحق ظاهرين على من ناوأهم إلى يوم القيامة**»[٣].

إن صفة نصر الحق والثبات عليه والقتال عليه ليست دعوة تقال، أو شعارا يرفع على مستوى الجماعات أو الدول أو الطوائف، وإنما حقيقة لها دلالتها الواقعية في حياة الناس، وأي جماعة أو دولة تفقد صفة الفقه في الدين ونصر الحق أو إحداهما فليست أهلا لأن تكون هي الطائفة المنصورة.

وأي خلل يقع في أي جماعة؛ فلا بد أن يكون مصدره فقد إحدى الصفتين أو فقدهما معا أو ضعف في إحداهما أو فيهما معا[٤].

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس، ص (٤٢).

(٢) البخاري رقم (٣٦٤١)، فتح الباري (ج٦/ ٦٣٢).

(٣) مسلم(ج٣/ ١٥٢٤).

(٤) الجهاد في سبيل الله،(ج٢/ ٩٥).

إن دولة المرابطين في جيلها الريادي حققت صفة الفقه في الدين متمثلاً في فقهائها العظام، فاستحقت أن تكون من الطائفة المنصورة التي حالفها نصر الله وتوفيقه. وعندما ضعفت تلك الصفات آل أمرها إلى طائفة مغلوبة، بل زالت من الوجود.

د ـ عناصر جيوش المرابطين:

١ ـ الملثمون أو المرابطون: كانوا هم النواة الأولى التي تكون منها الجيش المرابطي، وقد قامت الدولة على أكتافهم، وقد اشتهر هؤلاء الملثمون بقوة بأسهم في الحرب، وكانوا أثبت من الجبال الرواسي في المعارك، ومهما تفوق عليهم عدوهم في العدد فلا يتقهقرون، ولقد حققوا انتصارات رائعة في معاركهم في المغرب الأقصى أو في معارك الجهاد في الأندلس.

٢ ـ العرب: وشكّلوا فرقة أصبحت من أهم فرق الجيش المرابطي وشاركوا في معارك الأندلس، وتنتمي بعض العناصر العربية إلى عرب الأندلس الذين استقروا في المغرب في عصر الأدارسة، ويرجع البعض الآخر إلى قبائل بني هلال التي انخرطت في سلك جيش المرابطين، وشاركوا في معارك الجهاد، ومن أشهر تلك المعارك معركة كنسويجرة.. يقول ابن الكردبوس: «فجر ابن تاشفين عسكرًا جرارًا من مرابطين وعرب وأندلس الشرق والغرب، وقدم عليهم قائده محمد بن الحاج، فالتقوا بكنثرة فكانت بينهم جولات وحملات إلى أن زلزل الله أقدام المشركين، وولوا مدبرين...»[1].

كما شاركوا في معركة إقليش، فيقول ابن القطان: «واستشهد في هذه الوقيعة ـ أي إقليش ـ الإمام الجزولي، وكان رجل صدق، وجماعة من

(١) الاكتفاء، ص (١٠٧، ١٠٨).

الأعيان والعربان . . »[١].

٣ ـ الحرس الخاص: كانت قوى الحرس الخاص تتألف من أشجع الجند من مختلف الولايات، ويشترط في قبولهم أن يكونوا من ذوي القوام الحسن والشجاعة الفائقة والقوة والبراعة، يقول أشباخ: «جمع يوسف بن تاشفين من تجار الرقيق من إقليم غانا، عددًا كبيرًا من العبيد واختار منهم أمهرهم وزودهم بالسلاح والخيل، ودربهم على جميع فنون القتال، وأنشأ من حرسه الخاص الأسود من ألفي رجل، وأنشأ على هذا النمط حرسًا خاصًا من الأندلسيين يتألف من فتيان من النصارى المعاهدين، وكان يوسف يحبوهم بعطفه وصلاته، وينعم على من امتاز منهم بالإخلاص والشجاعة بمختلف الهبات من الخيل والثياب والسلاح والعبيد»[٢].

وبيَّن الدكتور سعدون عباس نصر الله أن النصارى في جيش المرابطين اعتنقوا الإسلام[٣]، وأصبح الحرس الخاص ركناً أساسياً من أركان الجيش المرابطي، لا سيما أن على بن يوسف ضم إليه الكثير من أسرى الحروب وشارك هذا الحرس الخاص في حراسة معاقل المغرب، بل حتى في حروب الدولة ضد الموحدين[٤].

٤ ـ الحشم: كانت فرق الحشم من أهم فرق الجيش المرابطي، وكانت تتكون من زناتة والمصامدة، وكانت هذه الفرق تتقدم عادة الجيوش المرابطية في القتال[٥].

---

(١) نظم الجمان، ص (٩، ١٠)، انظر الثغر الأعلى، الأندلس، ص (١٢٩).

(٢) تاريخ الأندلس، لأشباخ، ص (٤٧٩، ٤٨٠).

(٣) دولة المرابطين، ص (١٧٠).

(٤ ، ٥) تاريخ المغرب في عصر المرابطين، ص (٢٩٨).

هـ- فنون القتال:

لما تولى الأمير يوسف مقاليد حكم المرابطين عمد إلى إصلاح نظام تسليح الجيش وطريقة إعداده للقتال، ففي البدء كانت أسلحتهم يدوية ويعتمدون على الإبل، وهذه الأسلحة تصلح لحرب الصحراء، أما حرب المدن والحصون فإنها تتطلب وسائل وأسلحة تتلاءم مع الوضع الجديد الناشئ عن حرب الحصار؛ ولهذا ابتكر الأمير يوسف الخطة العسكرية المعروفة بالتقري، وخطة التقري تعتمد على توجيه الجيوش إلى بلاد معينة للقتال مع جيوشها في معارك فاصلة لا لحصار المدن[1].

وسلح الجيش بكل أنواع الأسلحة المعروفة من مغربية وأندلسية ونصرانية، وكان سلاح كل فرقة من الجيش يتناسب مع تركيبها ووضعها القتالي: فمشاة الصف الأول يتسلحون بالقنا الطوال وبدروق اللمط.

وكان للأمير يوسف الفضل في تنظيم جيش المرابطين، ومعرفة الرجال ومواهبهم الفذة، الذين أعادوا إلى الأذهان تاريخ الفتوحات الأولى لأمة الإسلام، لقد كانت حركة المرابطين مقنعة للعالم في زمانها بأن الإسلام قادر في كل زمان ومكان على إنجاب القادة الأفذاذ أمثال سير بن أبي بكر، وداود ابن عائشة، وابن فاطمة، وابن ميمون ومزدلي وغيرهم، وعلى رأس الجميع القائد الرباني الذي أنقذ الله به الإسلام في الأندلس والمغرب يوسف بن تاشفين.

كان الأمير يوسف أثناء المعارك يرتب جيشه وفق نظام خماسي: المقدمة يحتلها الجنود المشاة ووحدة الفرسان الخفيفة، والجناحان الميمنة والميسرة، حملة القسي والنبال وأكثرهم من أهل الثغور، والقلب يتمركز فيه الفرسان المرابطون المزودون بالأسلحة الثقيلة والخفيفة، والمؤخرة ويقودها الأمير بنفسه

(١) دولة المرابطين، ص (٤٤).

وتتألف من صفوة الجنود والحرس، وكان لكل قسم من هذه الأقسام قائده الخاص، ويجتمع قادة الوحدات قبيل المعركة على شكل مجلس حربي لتلقي الأوامر والتعليمات من القائد الأعلى يوسف[1].

وتطورت فنون القتال عند المرابطين وأهدى ابن الصيرفي إلى الأمير تاشفين بن علي قصيدة احتوت على فنون الحرب والقتال فقال:

أهديك من أدب السياسة ما به ... كانت ملوك الفرس قبلك تولع

لأنني أدرى بها ولكنها ... ذكرى تحض المؤمنين وتنفع

خندق عليك إذا ضربت محلة ... سيان تتبع ظاهرًا أو تتبع

حارب من يخشى عقابك بالذي ... يخشى وهو في جود كفك يطمع

قبل التهارش عبئ جيشك مفسحـ ... ـًا حيث التمكن والمجال الأوسع

إياك تعبئة الجيوش مضيقًا ... والخيل تفحص بالرجال وتمزع

حصن حواشيها ولكن في قابها ... واجعل أمامك منهم من يشجع

واحذر كمين الروم عند لقائها ... وأمض كمينك خلفها إذا تدفع

لا تبقين خلفك عندما ... تلقى العدو فشرُّه متوقع

واصدمه أول وهلة لا ترتدع ... بدءًا تقدم فالنكوص يضعضع[2]

ونستطيع أن نستخرج بعض فنون الحرب التي أوصى بها الشاعر في قصيدته للأمير تاشفين بن علي:

١ ـ ضرورة حفر الخنادق حول المدن لحمايتها من أي خطر خارجي.

---

(١) دولة المرابطين، ص (١٧٢).

(٢) تاريخ المغرب والأندلس، ص (٣٠٠).

٢ ـ ضرورة تعبئة الجيوش وتنظيمها قبل المعركة بوقت كاف، لكي تدخل هذه الجيوش إلى المعركة وهي على أهبة الاستعداد، وحتى لا يأخذها العدو على غرة.

٣ ـ ضرورة وضع أقوى الفرق العسكرية في جناحي الجيش، وفي المقدمة، بينما يقود القائد العام للجيش المعركة من قلب جنده.

٤ ـ ضرورة نصب الكمائن خلف خطوط العدو.

٥ ـ عدو القتال وظهورهم إلى الماء، لأن في ذلك هلكة لجيوشهم.

٦ـ ضرورة إحداث عنصر المفاجأة في بداية المعركة، عن طريق الصدام مع العدو، مع ضرورة التقدم وعدم التقهقر.

هذه بعض الفنون العسكرية التي طبقت في دولة المرابطين.

وكان المرابطون في بداية أمرهم قليلي الخبرة بفن الحصار لاعتمادهم على قوات الفرسان المستعدة دائما للهجوم، إلا أنهم بعد فترات من جهادهم استطاعوا أن يتقنوا فن الحصار، وتجلى ذلك بوضوح خلال حصارهم لقلعة شنترين الحصينة، وتمكنهم من التغلب عليها، كما ظهرت براعتهم في هذا الفن أثناء الحصار الذي فرضته الجيوش الإسلامية على مدينة غرناطة لحمايتها من ألفونسو المحارب خلال غزوته الكبرى للأندلس، التي كان يهدف من ورائها تلبية دعوى النصارى المعاهدين في مدينة غرناطة إلى نصرتهم.

وضرب المرابطون الحصار، وكان موفقاً وحقق نتائجه المطلوبة.

وكما أتقنوا فن ضرب الحصار، فقد تفوقوا أيضًا في فن التخلص من الحصار، كما حدث في تخلصهم من الحصار الذي ضربه الموحدون على مراكش عام ٥٢٤هـ، ودام ما يقرب من أربعين يوماً، ثم تمكنوا وأوقعوا

بالموحدين هزيمة منكرة عند البحيرة[١].

واهتم المرابطون بجميع الأسلحة المعروفة في زمانهم من نشاب وسهام ورماح وسيوف ودروع ورعادات ومزاريق ودرق لمطية والأطاس.

و- الأسطول:

ومع توسع المرابطين في المغرب الأقصى واستيلائهم على معظم مدنها ولم تبق إلا طنجة وسبتة، شعر الأمير يوسف بأهمية الأسطول البحري لما وصلت دولته إلى شواطئ البحر الأبيض، وبعد القضاء على دولة برغواطة صاحبة الأسطول البحري بدأ يوسف يهتم بتطوير أسطوله، واستفاد من خبرات أهل الأندلس في ذلك، وأصبح أسطول المرابطين يتقدم نحو الهيمنة على البحر المتوسط، وأثمرت جهود يوسف في الاهتمام بالأسطول في زمن ابنه علي.

وأصبح أسطول المرابطين بفضل الله (تعالى)، ثم قادته الكبار - وعلى رأسهم أبو عبد الله بن ميمون - قوة ضاربة هددت النصارى في جنوب البحر المتوسط، ونفَّس الله به كربات مسلمي الشمال الإفريقي، وحقق أسطول المرابطين انتصارات تجاوزت كل تقدير وحسبان[٢].

ز- استيلاء المرابطين على جزر البليار:

كانت جزيرة البليار خاضعة لمجاهد العامري صاحب دانية الذي استقل بملكها سنة ٤٠٥هـ، وولى عليها بعض الولاة، ولما قتل مجاهد في سنة ٤٣٦هـ تولى ابنه علي الذي وقع في أسر بني هود عام ٤٦٨هـ ومات في سرقسطة سجينا عام ٤٧٤هـ، وكانت جزيرة ميورقة تابعة لجزر البليار، وكان

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس، ص (٣١١).

(٢) تاريخ المغرب والأندلس، ص (٣١١).

بها مبشر بن سليمان الذي أعلن استقلاله بميورقة، وأما مدينة دانية فضمها المقتدر بن هود إلى سرقسطة، ولما ضم المرابطون ممالك الطوائف تركوا مبشر ابن سليمان صاحب البليار حرًا: تقديرًا لجهوده التي بذلها لصد النصارى وما اشتهر به من غيرة على مصالح المسلمين، وقدرته الفذة في حماية ملكه من غارات النصارى المتتابعة، فضلاً عن كونه أقر العدل، وأرضى الرعية، وهكذا أصبح مبشر يحكم الجزائر الشرقية في عهد يوسف بن تاشفين، وفي السنوات الأولى من حكم على بن يوسف إلى عام ٥٠٨هـ.

وعندما تحالف النصارى من أمراء فرنسا والبرتغال وإسبانيا وقرروا القضاء على جزر مبشر بن سليمان خرجوا له في خمسمائة سفينة، وضربوا على جزيرة ميورقة حصاراً عنيفاً، وراسل مبشر أمير المسلمين عليّ بن يوسف لنجدته ونصرة المسلمين، وتُوفي مبشر بن سليمان أثناء الحصار وقام بعده قريبه الربيع بن سليمان بن ليون، وسقطت ميورقة عام ٥٠٨ هـ،وقتل النصارى من المسلمين، وسبوا نساء المسلمين، وعاثوا في الأرض فسادًا ونهبًا وتخريبًا.

وعندما اقترب أسطول المرابطين بقيادة القائد البحري «ابن تافر طاست» وجد النصارى قد رحلوا وتركوها كأن لم تكن بالأمس، وفي الحال شرع «ابن تافر طاست» في تعمير الجزيرة، وأعاد إليها الفارين من سكانها، وكان قد لجأ منهم إلى الجبال جموع غفيرة، وبذلك أصبحت تلك الجزر تابعة لدولة المرابطين الفتية.

وكان لأسطول المرابطين الفضل- بعد الله- في التصدي لأطماع النومنديين في مدن الشمال الإفريقي، وكان لأسطول المرابطين جهاد مشكور في سواحل أوروبا الجنوبية؛ مما عزَّز من هيبة المسلمين في نفوس النصارى

الحاقدين، فأغار على سواحل حليقية وقطلونية وإيطاليا والإمبراطورية البيزنطية[١].

ومن أشهر قادة الأسطول المرابطي: أبو عبد الله بن ميمون، وتوارث أبناؤه من بعده قيادة أساطيل المرابطين، ولعبت أسرة بني ميمون دورًا رياديًا في حماية ثغور المسلمين، والذود عن حوزتهم وأعراضهم وأموالهم وعقيدتهم.

ح- موانئ أسطول المرابطين:

كان المرية من أكبر موانئ الأسطول المرابطي في الأندلس، وكان بها قسم كبير من أسطول المرابطين بقيادة أمير البحر أبي عبد الله محمد بن ميمون، وكان بالمرية دار صناعة للسفن، ثم تأتي بعد المرية مدينة دانية التي تعتبر مقر قيادة الأسطول المرابطي في الأندلس.

وكانت موانئ أسطول المرابطين تنتشر على شواطئ سواحل المغرب والأندلس، ومن أشهرها طنجة، وبجاية وإشبيلية والجزيرة الخضراء، وجزر البليار[٢].

إن الشمال الإفريقي لا عزة لشعوبه ولا كرامة إلا بالتمسك بالمنهج الرباني، وتربية شعوبه على الانقياد لمنهجه الرشيد، ويحتاج ذلك لعلماء ربانيين وقادة سياسيين يعرفون قيمة دينهم، ويؤمنون بمنهج ربهم ويستعدون لجهاد عدوهم، ويهتمون بإحياء روح الجهاد، ويغرسون معاني الشهادة في شعوبهم حتى تتدفق دماء الإسلام من جديد في شرايينهم، ليعملوا على إرجاع الأندلس المفقود، ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبًا.

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس، ص (٣١١).

(٢) المصدر السابق، (١١٢).



المبحث الرابع

النظام المالي في عصر المرابطين

حرص المرابطون في دولتهم على إسقاط الضرائب غير المشروعة عن كاهل شعوبهم، التي فرضها الزناتيون في المغرب وملوك الطوائف في الأندلس، وكذلك المكوس والرسوم والضرائب في جبل طارق، ولم يفرض المرابطون في دولتهم رسم مكس أو معونة خراج لا في حاضرة ولا في بادية، واتبعوا نظامًا ماليًا يقوم على قواعد الإسلام، وكان هذا النظام ظاهر المعالم في زمن الأمير يوسف بن تاشفين الذي التزم بالكتاب والسنة في جميع الأموال وتوزيعها، فاعتمد على الزكاة والعشر والجزية وأخماس الغنائم، وجب بذلك من الأموال على الوجه الشرعي ما لم يجبه أحد، وترك في خزانته مبلغ ثلاثة عشر ألف ربع من الورق، وخمسًا وأربعين ألفًا من دنانير الذهب[1]. وأما في عصر عليّ بن يوسف فاختلف الأمر، وفرض الضرائب على بعض السلع، وفرض ضريبة جديدة على مدن الأندلس الهامة، وكان يخصص دخلها لإقامة أسوار جديدة وترميم الأسوار القديمة، وكان سبب فرض هذه الضريبة دخول ألفونسو المحارب للأندلس غازيًا عام ٥١٩ هـ؛ فاضطر لتحصين المدن وترميم الأسوار وتقوية الجيوش، ففرض ضرائب تساعده في تسديد هذه النفقات التي لا غنى عنها.

العملة:

كانت العملة الرئيسية لدولة المرابطين هي الدينار الذهبي الذي كان عماد الاقتصاد في الدولة، وظلت هذه العملة المرابطية الذهبية مستخدمة لعدة قرون، حتى بعد سقوط الدولة المرابطية، كما استخدم العملة الفضية

(١) دولة المرابطين، ص (١٧٩).

المعروفة بالدرهم الفضي، لتسهيل المعاملات التجارية.

وانتشرت دور سك العملة في مـختلف أجزاء الدولة في المغرب أو في الأندلس مـثل أغمات، تلـمسان، سـجلماسـة، فاس، مـراكش، سبـتة، مكناسة، طنجة، شاطبة، إشبيلية، دانيـة، غرناطة، قرطبة، مالقة، مرسية، سرقسطة، وغيرها[1].



(١) تاريخ المغرب والأندلس، ص (٣٢٠).



الفصل الخامس

أهم أعمال دولة المرابطين الحضارية



المبحث الأول

الآثار المعمارية في المغرب والأندلس

إن دولة المرابطين تركت آثارًا معمارية بارزة ظلت باقية على مر الدهور وكر العصور؛ لترشد الأجيال المتعاقبة على سمو حضارة المرابطين المعمارية، ومن أعظم هذه الآثار على الإطلاق:

١ ـ جامع القرويين:

من أهم المساجد الجامعة في بلاد المغرب وأكثرها شهرة لكونه جامعة إسلامية عريقة ضاربة بجذورها في أعماق التاريخ، وكانت هذه الجامعة تقارع الأزهر الشريف في العلم وتخريج الدعاة والعلماء والفقهاء.

ولقد مرَّ جامع القرويين بثلاثة أدوار:

الأول: عند تأسيسه سنة ٢٥٤ هـ/ ٨٥٩ م.

والثاني: عند الزيادة فيه سنة ٣٤٥ هـ/ ٩٥٦ هـ.

والثالث: عندما زيدت مساحته في عصر عليّ بن يوسف سنة (٥٣٠/ ١١٣٥ م).

وتولّى مشروع زيادة مسجد القرويين وتوسيعه القاضي أبو عبد الله محمد بن داود بسبب ضيق المسجد بالناس، واضطرارهم للصلاة في الشوارع والأسواق في يوم الجمعة، وحرص على أن يكون المال من أوقاف مساجد المسلمين، وأشرف القاضي أبو عبد الله بنفسه على هذا المشروع الحضاري العظيم، وكان تمام التوسعة عام ٥٣٨ هـ.

ولقد تخرجت في جامع القرويين على مر العصور وكر الدهور أفواج عديدة من فقهاء الأمة وعلماء الملة ودعاة الشريعة والمجاهدين الأبرار والقادة العظام، وكان لمسجد القرويين عند المرابطين مكانة عظيمة في نفوسهم.

وتذكر كتب التاريخ أن منبر جـامع القرويين من أجمل منابر الإسلام، وتدل على روعة المغاربة في اختياراتهم الذوقية الرفيعة[1].

٢ ـ المسجد الجامع بتلمسان:

وكان مقرًا لنشر علوم الإسلام وتربية المسلمين على معاني القرآن، وتم بناء هذا المسجـد عام ٥٣٠ هـ في إمـارة عليّ بن يوسف، وكانت هندسـته المعمارية في غاية الجمال ودقة الإتقان، ورأى بعض بعض المؤرخين أن البنية المعمارية لمسـجد تلمسان فيها لمسـات أندلسية، وفنون معماريـة قرطبية، بل بعضهم يرى إن عرفاء مـسجد تلمسان قلّدوا جامع قرطبة تـقليدا مباشرا في لوحتي الرخام اللتين تكسوان إزار واجهـة المحراب بتلمسان، وكذلك سقف المسجد الخشبي شبيه بسطح مسجد قرطبة، وكذلك البلاط شبيهٌ به أيضا.

والذي يظهر أن دولة المرابطين انـصهرت في بوتقتـها حضـارة المغاربة والأندلسيين والأفارقـة، فتجد تلك المعالـم الحضارية المختلفة في كـافة بقاع دولة المرابطين، ولا ينكر تأثير المعالم الحضارية المعـمارية الأندلسية في جميع مدن الدولة.

٣ ـ الآثار الحربية:

اهتم المرابطون بالحصون والقلاع؛ ولذلك انتشرت في المدن والثغور.

وزاد الإهتمـام بالتحصينات العـسكرية في زمن عليّ بن يوسف الذي أكـثر من الأسـوار والقلاع والحـصون للـدفاع عن دولتـه في المغرب ضـد الحركات السياسية والثورات العدائية المناهضة لدولة المرابطين، وواصل الأمير عليّ اهتمامه بهذا الأمر كذلك في الأندلس.

ومن أروع آثار المرابطين الحـضارية الحربيـة أسوار مـراكش، حيث بدأ

(١) تاريخ المغرب والأندلس، ص.(٣٦٦).

الأمير عليّ بن يوسف في بناء سور المدينة ٥٢٠ هـ، وكمَّل بناء السور عام ٥٢٢ هـ[1].

وانتشرت فكرة بناء الأسوار في الأندلس، وفرضت الدولة على رعاياها ضريبة تنفق على هذا الهدف الاستراتيجي الجهادي الدفاعي.

ومن أشهر الأسوار التي بنيت أو أعيد ترميمها في الأندلس، أسوار المرية وأسوار قرطبة التي امتازت بأبراجها المستطيلة الضخمة المتقاربة، وأسوار إشبيلية من جهة نهر الوادي الكبير، وبنى المرابطون في المناطق الوعرة حصوناً بالحجر، وشحنوها بالجنود والأقوات؛ لكي تصمد للحصار مدة طويلة.

وكان عدد جنود الحصون والقلاع ما يعادل ٢٠٠ فارس و ٥٠٠ راكب في كل حصن.

ومن أشهر قلاع المرابطين في الأندلس قلعة منتقوط التي تقع على بساتين مرسية، ومن أشهر قلاع المرابطين في المغرب قلعة تاسغيموت التي تقع على بعد ثلاثة كيلو مترات جنوب شرق مراكش، وعلى بعد نحو عشرة كيلو مترات شرق أغمات على سطح هضبة أطرافها ذات أجراف وعرة شديدة الانحراف، يصعب على الغازين ارتقاؤها ، وأسوارها تمتد على حافة الهضبة نفسها.

إن قلاع المرابطين وحصونهم تدل على أن فن العمارة في زمانهم تأثر بالغ التأثر بفن العمارة الأندلسي[2].

---

(١) تاريخ المغرب والأندلس، ص (٣٧٢).

(٢) المصدر السابق، ص (٣٧٧).



المبحث الثاني

الحياة الأدبية والعلمية في دولة المرابطين

١- الحركة الأدبية:

ازدهرت الحركة الأدبية في دولة المرابطين في عـهد الأمير علي بن يوسف الذي اهتم بالشعر والأدب، وشجع الشـعراء والأدباء؛ فتوافدوا على بلاطه من أهـل الأندلس، ومن الذين مـدحـوا الأمـيـر علي بن يوسف الشاعر الـكبير أبو العباس أحـمد بن عبد الله القـيسي المعروف بالأعمى التطيلي حيث قال:

يـا عـلي الـعــــــلاء في كـل يـوم   ومـــا أنـت للـملك بـالســـــائس

يا ربيـع البـلاد يا غـيـمـة العـالم   مـن بـين مــــؤتـل ومــــــوال

يا قـريـع الأيام عن كل مـــسـجـد   يـا سليـل الأذواء والأقـــيــــال

لـك من تـاشــــــفين أو مـن أبـي   يعــقـوب ذكـر مكارم وفـعــال[١]

وكان الشعراء يقصـدون ولي عهد الدولة في زمن الأمير علي بن يوسف لمدح ابنه تاشـفين، ومن أشهـرهم الشـاعر أبو بكر يحـيى بن محمد بن يوسف، كما حظي الشعراء في عصر علي بن يوسف بمكانة عظيمـة لدى الأسرة الحاكمة وكـبار القادة وعمـال الدولة على الأقاليم المختلفة.

وكان الأمير عبد الله بن مزدلي موضع اهتمام الشعراء، منهم ابن عطية الذي قال فيه:

---

(١) الأعمى التطيلي، الديوان، ص (١٠٤).

ضــــــاءت بـنـور إيـابـك الأيـام وعــتــز تحت لوائك الإســـلام[1]

ومن قبل مدح الشعراء والده الذي قال فيه أبو عامر بن أرقم:

أنت الأمـيـر الذي للمـجـد همـتـه وللمـسـالك يـحـمـيـهـا وللدول
لمزدلـي لواء كـــان يـرفـــعــه مناسب كالضحا والشمس في الحمل
يا أيـهـا الملـك المرهب صـولـتـه وارتجى غـوثه في الحـادث الجلل[2]

ووصل المديح إلى الفـقـهاء والـعلماء لمكانـتهم العـاليـة في دولة المرابطين، فهذا الأعـمى التطيلي يمدح القاضي الفقيه ابن أحـمد قاضي الجماعة بقوله:

إليك ابن حــمـدين وإن بعـد المدى وأن غربت بي عنك إحدى المغارب
صـبـابة ود لم يـكدر جـمـامـة مـرور الليـالي وازدحـام الـشـوائب
وذكـر عـسـاها أن تـكون مـهـزة ترى علـى أعـقـابه كل شـاغب
بأيه مـا كـان الـهـوى مـتـقـاربًا وخطوى فـيـه ليس بالمتـقـارب[3]

ولا ننسى أن أعداء المرابطين مـن الشعراء قامـوا بالتندر بالمرابطين، وبفقهاء دولتهم، وممن اشتهـر بالهجاء والتندر في هذا العصر الشاعر أبو بكر يحيى بن سهل اليكي، الذي هجا المرابطين، ومن ذلك قوله:

في كل مـن ربـط الـلثــام دنـاءة ولـو أنه يـعلـوا علـى كـيـوان
مـا الفـخـر عندهـم سـوى أن يونقلوا من بطـن زانيـة لـظهـر حـصـان

(١) قلائد العقيان، لابن خاقان، ص (٢١٠).
(٢) قلائد العقيان، لابن خاقان، ص (١٣٣).
(٣) الأعمى التطيلي، الديوان، ص (٤، ٥).

المنتـــمـــون لحـــمـــيـــر لكنـهـم | وضـعـوا القـرون مـواضع التـيـجـان
لا تطـلبن مـــرابطًـا ذا عـــفــــة | واطلب شـعـاع النار في الـغـدران[1]

وازدهر في عصر المرابطين لون آخر من ألوان الشعر أعني الطبيعة، فقد شهد هـذا العصر ظهور عدد كبير من الشـعراء الذين نبغوا في هذا الفن الشـعـري، نذكـر منهم ابن سـارة الشنريني، وابن الزقـاق، وابن خفاجة البلنسي، وعبد الحق بن عطية، ومن ذلك قول الشنتريني الشاعر يصف البركة:

لله مـــسـجـــورة في شكل نـاظرة | مـن الأزهر أهـداف لـهـــا وطـف
فـيـهـا سلاحف ألـهانـي تقصـمـهـا | في مـائهـا ولهـا من عـرمض لحف
تنافـــر الشط إلا حـين يحـضـــرها | برد الشـتـاء فـتـسـتـدلـي وتنصـرف
كـأنهـا حـين يُبـديهـا تصـرفـهـا | جيش النصارى على أكتافها الجحف[2]

وهذا أبو الحسن علي بن عطية بن الزقاق يصف فرسا أغر:

وأغـر مـصـقـول الأديم تخـاله | برقـاً إذا جـمع العـتـاق رهان
يطأ الـثـرى مـتـبـخـترًا فـكأنه | من لحـظ مَن فـي مـتنـه نشـوان
فـكأن بـدر التـم فـوق سـراتـه | حـسنا وبـين جـفـونه كـيـوان[3]

(١) تاريخ المغرب، ص (٣٨٦).

(٢) قلائد العقيان، ص (٢٧١).

(٣) المطرب من أشعار أهل المغرب، لابن دحية، ص (١٠٦).

وهذا أبو جعفر بن سلام المعافري يصف في شعره الثلج:

(ولم أر مثل الثلج في حسن منظر تقرُّ به عين وتشنعه نفس)
(فنار بلا نور يضيء له سنا وقطر بلا ماء يقلبه اللمس)
(ترى الأرض منه في مثال زجاجة كأن كؤوس الماء يجمعه كأس)[1]

وهذا شاعر آخر يصف لنا قوسًا:

(يا رب مائسة الأعطاف مخطفه إذا دنا نزعها فالعيش منتزح)
(ظلّت ترنُّ فظلَّ النزع يعطفها كما ترنم نشوان به قزح)
(وقد تألف نصل السهم مندفعا عنها قفل كوكب يرمي به قزح)[2]

وهذا ابن خفاجة يصف الربيع وهو مِمَّن عاصر الأمير عليّ بن يوسف:

(أذن الغمام بديمة وعقار فأمزج لجينا منهما بنضار)
(وأربع على حكم الربيع بأجرع هزج الندامى مصفح الأطيار)
(وكمامة حدر الصباح قناعها عن صفحة تندى من الأزهار)
(في أبطح رضعت ثغور أقاحه أخلاف كلّ غمامة مدرار)
(نشرت بحجر الروض فيه يد الصبا دور الندى ودارهم النوار)
(وقد ارتدى غصن التقى وتقلدت حلي الحباب سوالف الأنهار)

(١) تاريخ المغرب، ص (٣٨٨).
(٢) المصدر السابق نفسه.

فحللت حيث الماء صفحة ضاحك جذل وحيث الشطر بدء عذار
والروح تنفض بكرة لمم الرُبا والطل ينضج أوجه الأشجار[1]

لقد ازدهر الشعر والأدب في عصر الأمير عليّ بن يوسف ازدهارا عظيما شهدت بذلك قصائد شعراء المرابطين التي سجلت في ذاكرة التاريخ الخالدة.

وما قيل عن انحطاط الشعر والأدب في عصر المرابطين أكذوبة استشراقية بأن زيفها أمام حقائق التاريخ التي لا تُجامل ولا تعرف التحايل.

ولا ننسى شيوع فن الموشحات والأزجال في عصر المرابطين، يقول ابن خلدون عن نشأة فن الموشحات: «وأما أهل الأندلس، فلما كثُر الشعر في قطرهم، وتهذبت مناحيه وفنونه وبلغ التنميق فيه الغاية، استحدث المتأخرون منهم فنًا يسمونه بالموشح ينظمونه أسماطا وأغصانًا يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة، ويسمون المتعدد منها بيتا واحدا، ويلتزمون عند قوافي تلك الأغصان، وأوزانها متتالية فيما بعد إلى آخر القطة، وأكثر ما تنتهي عندهم إلى سبعة أبيات، ويشمل كل بيت على أغصان عددها بحسب الأغراض والمذاهب، وينسبون فيها ويمدحون كما يفعل في القصائد وتجاوزوا في ذلك إلى الغاية واستطرفه الناس جملة الخاصة والكافة لسهولة تناوله وقرب طريقه»[2].

ومن أشهر وشاحي عصر المرابطين الأعمى التطيلي، ومن موشحاته:

---

(١) ابن خفاجة الديوان، ص (٢٩٠، ٢٩١).

(٢) ابن خلدون، المقدمة، ص (٤٣٦).

دمع مسفوح وضلوع حرار ماء ما اجتمعا إلا لأمر كبار
بئس لعمرى ما أراد العذول عمر قصير وعناء طويل
يا زفرات نطقت عن غليل ويا دموع قد أعانت مسيل[1]

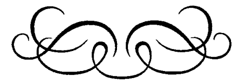
وأما نشأة الزجل فقال ابن خلدون عنه: «إنه لما شاع فنُّ التوشيح في أهل الأندلس، وأخذ به الجمهور لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائه، نسجت العامة من أهل الأمصار على منواله، ونظموا في طريقته بلغتهم الحضرية من غير أن يلتزموا فيها إعرابا، واستحدثوا فنًا سموه بالزجل، وألتزموا النظم فيه على مناحيهم إلى هذا العهد، فجاءوا فيه بالغرائب، واتسع فيه للبلاغة مجال بحسب لغتهم المستعجمة»[2].

ويعتبر أبو بكر بن قزمان القرطبي أول من ابتكر الزجل.

ومن أشهر أزجاله ما كان في مدح القاضى أحمد بن الحاج قوله:

وصل المظلوم لحق وانتصف غني ومسكين يحضر الإنكار والإقرار ويقع الفصل فالحين اجتمع فيه الثلاثة الورع والعلم والدين فيزول الحق إذا زال ويدوم الحق إذا دام[3].

هذه نبذة مختصرة عن بعض فنون الأدب التي ازدهرت وترعرعت في ظل دولة المرابطين.



(١) ابن خلدون، المقدمة، ص (٤٤١).
(٢) الزجل في الأندلس، لعبد العزيز الأهواني، ص (٢٠١).
(٣) المصدر السابق نفسه.



المبحث الثالث

من مشاهير علماء دولة المرابطين

كانت دولة المرابطين مبنية على أسس شرعية ولذلك اهتمت بالعلماء والفقهاء الذين لا دوام لدولة تريد أن تحكم بشرع الله بدونهم، ولذلك كثر المحدثون والفقهاء، نذكر منهم:

أولا: أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد الجد (ت ٥٢٠ هـ):

هو الإمام العلامة شيخ المالكية، قاضي الجماعة بقرطبة أبو الوليد.

أ- شيوخه:

من أشهر شيوخه الذين تتلمذ عليهم أبو جعفر أحمد بن رزق، وأبو مروان بن سراج، ومحمد بن خيرة، ومحمد بن فرج القلاعي، والحافظ أبو علي، وأبو العباس بن دلهات.

قال ابن بشكوال فيه: «كان فقيها عالما، حافظا للفقه مقدما فيه على جميع أهل عصره، عارفا بالفتوى، بصيرا بأقوال أئمة المالكية، نافذا في علم الفرائض والأصول، من أهل الرياسة في العلم، والبراعة والفهم، مع الدين والفضل، والوقار والحلم، والسمت الحسن، والهدي الصالح، ومن تصانيفه كتاب «المقدمات» لأوائل كتب المدونة، وكتاب «البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل»، واختصار «المبسوطة»، واختصار «مشكل الآثار» للطحاوي، سمعنا عليه بعضها، وسار في القضاء بأحسن سيرة وأقوم طريقة، ثم استعفى منه، فأعفي، ونشر كتبه، وكان الناس يُعولون عليه ويلجأون إليه، وكان حسن الخلق، سهل اللقاء، كثير النفع لخاصته جميل

العشرة لهم بارا بهم»[١].

ب- ومن أشهر فتاوى بن رشد الجد ما أفتاه في شأن المعاهدين من النصارى في بلاد الأندلس بإبعادهم وتغريبهم لغدرهم بالمسلمين ومساعدتهم لألفونسو المحارب[٢]، عاش هذا العالم الجليل سبعين عاما، ومات في ذي القعدة سنة عشرين وخمسمائة، وصلى عليه ابنه أبو القاسم، وروي عنه أبو الوليد بن الدباغ فقال: «كان أفقه أهل الأندلس، وصنَّف شرح العتبية، فبلغ فيه الغاية»[٣].

ثانيا: الشهيد القاضي الفقيه أبو عليّ الصدفي:

هو العالم الفقيه القاضي المحدث الحسين بن محمد بن سُكرة.

أ- شيوخه:

روي عن أبي الوليد الباجي، ومحمد بن سعدون القروي، وحجَّ سنة إحدى وثمانين، ودخل مصر على أبي إسحاق الحبَّال، وقد منعه المستنصر العبيدي الرافضي من التحديث.

قال: فأول ما فاتحه الكلام أجابني على على غير سؤالي، حذرا أن أكون مدسوسًا عليه، حتى بسطته وأعلمته أنني من أهل الأندلس أريد الحج، فأجاز لي لفظا، وامتنع من غير ذلك.

رحل للعراق، فسمع بالبصرة من جعفر بن محمد بن الفضل العباداني، وعبد الملك بن شغبة، وبالأنبار: الخطيب أبا الحسن علي بن محمد الأقطع، وببغداد: علي بن الحسن بن قريش بن الحسن صاحب ابن

---

(١) سير أعلام النبلاء، (ج١٩/ ٥٠٢).

(٢) تاريخ المغرب، (٢٣١).

(٣) سير أعلام النبلاء، (ج١٩/ ٥٠٢).

الصلت الأهوزي، وعاصم بن الحسن الأديب، وأبا عبد الله الحميدي.

وتفقه ببغداد على: أبي بكر الشاشي، وأخذ بالشام عن الفقيه نصر المقدسي، ورجع إليبلاده في سنة تسعين بعلم كثير، وأسانيد شاهقة، واستوطن مُرسية، وجلس للاستماع بجامعها.

ورحل الناس إلي، وكان عالما بالحديث وطرقه، عارفا بعلله ورجال، بصيرا بالجرح والتعديل، مليح الخط، جيد الضبط، كثير الكتابة، حافظا لمصنفات الحديث، ذاكرا لمتونها وأسانيدها، وكان قائما على «الصحيحين» مع «جامع» أبي عيسى الترمذي ولِّي قضاء مُرسية، ثم استعفي، وأقبل على نشر العلم وتأليفه، وكان صالحا دينًا، عاملا بعلمه، حليما متواضعًا، وخرج القاضي عياض شيوخه، وذكر أنه أخذ عن مائة وستين شيخا، وأنه جالس نحو أربعين شيخا من الصالحين وافضلاء، وأنه أكره على القضاء فوليه، ثم اختفى حتى أعفي منه.

وتصدَّر في زمن عليّ بن يوسف في نشر الكتاب والسنة في مرسية بالأندلس، وتوافد عليه الطلاب من كل حدب وصوب لينهلوا من علمه الجم الغزير، ونفع الله به المسلمين في تلك الأقطار.

ب- وفاته:

استشهد أبو علي الصدفي في وقعة قُتُنْدَةَ بثغر الأندلس، لست بقين من ربيع الأول، وهو من أبناء الستين، وكانت هذه الواقعة على المسلمين، وكان عيش أبي علي من كسب بضاعة مع ثقات إخوانه[1].

انظر رحمك الله إلى هذا الطود الشامخ، والجبل الراسخ، والبحر الزاخر في حبه لطلب العلم ونشره، والدعوة إلى دينه والدفاع عنه، وحبه

(١) سير أعلام النبلاء، (ج١٩/٣٧٨).

للجهاد والرباط، وحرصه على أكل الحلال، والتحري في لقمة العيش، والاستعلاء على الدنيا وزخارفها الكاذبة، ويا تُرى كم نفس أحياها خبر استشهاد هذا العالم الفقيه الزاهد، وكان (رحمه الله) يتذوق الشعر الذي فيه الذود عن سنة سيد المرسلين، ويكتبه لتلاميذه، منه ما قال أبو عبد الله محمد بن علي الصوري لنفسه:

قل لمن أنكر الحديث وأضحى عائبا أهله ومن يدعيه
أبعلم تقول هذا؟ أين لي أم بجهل فالجهلُ خُلُقُ السفيه
أيعاب الذين هم حفظوا الدِّين من الترهات والتمويه
وإلى قولهم وما قد رَوَوْه راجع كلُّ عالم وفقيه[1]

ثالثا: القاضي الفقيه أبو بكر بن العربي:

من أعظم فقهاء الأندلس في عصر المرابطين، هو القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد المعافري الأندلسي، الإشبيلي، الإمام العلامة، المتبحر في العلوم.

ولد عام ٤٦٨ هـ/ ١٠٧٦ م وتأدَّب ببلده، وقرأ القراءات، ثم رحل إلى مصر، والشام وبغداد ومكة وكان يأخذ من علماء أي بلد يرحل إليه حتى أتقن الفقه، والأصول وقيد الحديث، واتسع في الرواية، وأتقن مسائل الخلاف، وتبحر في التفسير، وبرع في الأدب والشعر، وعاد إلى بلده إشبيلية بعلم كثير، لم يأت به أحد قبله ممن كانت له رحلة إلى المشرق[2].

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي، وفيات عام(٥١١ ـ ٥٢٠)، ص (٣٦٩).

(٢) انظر: أحكام القرآن في المقدمة.

أ- مكانته العلمية:

قال الشيخ صديق حسن خان عن ابن العربي: «إمام في الأصوول والفروع، سمع ودرس الفقه والأصول، وجلس للوعظ والتفسير، وصنف في غير فن، والتزم الأمر بالمعروف ولنهي عن المنكر حتى أُذي في ذلك بذهاب كتبه وماله؛ فأحسن الصبر على ذلك كله»(١).

قال عنه القاضي عياض، وهو ممن أخذوا عنه: «استقصى ببلده فنفع الله به أهلها لصرامته، وشدة نفوذأحكامه، وكانت له في الظالمين سورة مرهوبة، ووتؤثر عنه في قضائه أحكام غريبة، ثم صرف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم وبثه»(٢).

قال عنه الشيخ أحمد بن محمد المقري: «علم الأعلاضم، الطاهر الأثواب، الباهر الأبواب، الذي أنسى ذكاء إياس، وترك التقليد للقياس، وأنتج الفرع من الأصل، وغدا في الإسلام أمضى من النصل»(٣).

ب- مؤلفاته:

للإمام القاضي أبي بكر بن العربي مؤلفات كثيرة لم يصلنا أغلبها، وقد قضي أربعين سنة في الإملاء والتدريس، وفي بث ما حصَّله من العلوم، وصنف (رحمه الله) في فنون متعددة منها: علوم القرآن، ولحديث، و «مشكل القرآن والحديث»، وأصول الدين، وكتب الزهد، وأصول الفقه، وكتب الفقه، والجدال والخلاف، واللغة والنحو والتاريخ، ومن أشهر المؤلفات التي انتفع بها المسلمون «العواصم من القواصم» ، «عارضة

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) المصدر السابق نفسه.

(٣) انظر: العواصم من القواصم، ص (١٣).

الأحوذي في شرح الترمذي»، «أحكام القرآن»، «القبس في شرح موطأ ابن أنس»، «المسالك على موطأ مالك»، «الإنصاف في مسائل الخلاف»، «أعيان الأعيان»، «المحصول في أصول الفقه»، «قانون التأويل»[1].

كان الرمام ابن العربي يصول ويجول بفقهه في بلاد الزندلس ينور طرق الظلام بعلمه، ويقضي على الشبهات بحججه، ويدمغ البدع المنتشرة بصبره وحلمه ودعوته، وكان من أعمدة دولة المرابطين في نشر الكتاب والسنة وتفقيه الناسوتربيتهم على مبادئ الإسلام وأخلاق الإيمان ودرجات الإحسان.

وله فوائد علمية سجلها في كتبه وانتفع بها طلاب العلم من بعده منها:

١ - قوله: قال علماء الحديث: ما من رجل يطلب الحديث إلا كان على وجهه نضرة، لقوه(ﷺ): «**نضر الله أمرأ سمع مقالتي فوعاها فأداها كما سمعها..**».

قال: وهذا دعاء منه (ﷺ) لحملة علمه، لا بد لفضل الله (تعالى) من نيل بركته.

٢ - ومنه قوله: كنت بمكة في سنة ٤٨٩ هـ وكنت أشرب من ماء زمزم كثيرا، وكلَّما شربته نويت العلم والإيمان، فنويت العلم والإيمان، ففتح الله لي ببركته في المقدار الذي يسره لي من العلم، ونسيت أن أشرب للعمل، ويا ليتني شربته لهما حتى يفتح الله لي فيهما، ولم يقدر فكان صفوي للعلم أكثر منه للعمل[2].

(١) انظر: ترجمة في كتاب العواصم من القواصم.

(٢) انظر: العواصم من القواصم، ص (١٦).

وفاته:

أتاه أجله «بمغليـة» قرب مدينة «فـاس» في ربيع الأول سنة ٥٤٣ هـ، ودفن في فاس خارج باب المحروف على مسيرة يوم من فاس غربًا منها[١].

رابعا: القاضي الفقيه عياض:

هو القـاضي أبو الفضل عـياض بن مـوسى بن عيـاض بن عمـرو بن موسى اليحصـبي السني، كان إمام وقته في الحديث وعلومـه والنحو واللغة وكلام العرب، وأيامهم وأنسابهم، وصنف التصـانيف المفيدة، ولد في سبتة في عام ٤٧٦ هـ، وتتلمذ على شيوخها ومن أشهرهم: القاضي أبو عبد الله بن عيسى، والخطيب أبو القـاسم، والفقيه إسحـاق بن الفاسي، وإبراهيمبن جـعفـر اللواتي، وربراهيم بن أحمـد القـيسي، وأبو بكر القـاسم بن عبـد الرحمن الكومي وغيرهم الكثير[٢].

أ- رحلته إلى الأندلس:

كان خروجه للأندلس من بيتـه يوم الثلاء منتصف جمادى الأولى سنة ٥٠٧ هـ، وكان عمره إذ ذاك واحدا وثلاثين عاما، ومن أشهر شيوخه الذين تتلمذ عليهم في قرطبةأبو محمد عبد الرحمن بن محمد المشهور بابن عتاب القرطبي، وقاضي الجماعة أبو عبد الله بن الحاج، والفقيه أبو جعفربن رزق، وأبو مروان عـبد الملك بن سراج، وأبو الوليـد بن رشد الجد، وأبو محـمد عبد الله بن أحمد سعيد الأندلسي الإشبيلي وأبو علي الصدفي.

وتحـصل على علوم غـزيرة وتصـدر للـتعـليم والتـدريس، وعُين في القضاء، ونبغ فيـه، واشتهر بعلمه وعبادته وعدله وجـوده، وكانت مؤلفات

---

(١) وفيات الأعيان (ج٣/ ٤٨٣).

(٢) المغرب والأندلس، د. مصطفى الشكعة، ص (١٢٤).

القاضي عياض أكثرها في الحديث الشريف، ثم في التاريخ والطبقات ثم في الفقه، ثم في القرآن[1].

ب- مؤلفاته:

١ - «الشفا بتعريف حقوق المصطفى»، موضوعه في السيرة النبوية والعقيدة والزصولوالتفسير والحديث.

٢ - «مشارق الزنوار على صحيح الآثار» وموضوعه تفسير غريب الحديث في الصحاح الثلاثة: «موطأ ومالك» ، «صحيحي البخاري ومسلم»، فضبط أسماء الرجال والألفاظ، ونبه على مواضع الأواهم والتصحيفات.

وفي هذا الكتاب قال الشاعر:

مشارق أنوار تبدت بسبتة ومن عجب كون المشارق بالمغرب

فأجابه آخر بقوله:

وما شرف الأوطان إلا رجالها وإلا فلا فضل اتُرب على تُرب

٣ - كتاب «الإكمال»، أكمل به كتاب «المعلم بفوائد كتاب مسلم» لشيخه المازري الفقيه المالكي المحدث المتوفي سنة ٥٣٦ هـ.

٤ - كتاب «منهاج العوارف إلى روح المعارف» وهو في شرح مشكل الحديث.

٥ - كتاب «الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع» في مصطلع الحديث.

٦ - كتاب «بغية الرائد فيما في حديث أم زرع من الفوائد».

(١) المصدر السابق، ص (١٢٥ - ١٣٦).

٧ ـ كتاب «التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة» في الفقه وجمع في هذه الكتاب فوائد وغرائب.

٨ ـ كتاب «الإعلام بحدود قواعد الإسلام» في العقيدة.

٩ ـ كتاب «الخطب» يحتوي على خمسين خطبة من خطب الجمع.

١٠ ـ كتاب «جامع التاريخ» في التاريخ والطبقات.

١١ ـ كتاب «تاريخ سبتة» وهو مسودة.

١٢ ـ «ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة أعلام مذهب الإمام مالك».

١٣ ـ «الغنية» وذكر فيه شيوخه وترجم لهم.

١٤ ـ «المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان».

١٥ ـ «غنية الكتاب وبغية الطالب»، في الأدب والإنشاء، وغيرها من المخطوطات والكتب التي تدل على سمو منزلته وسلامة منهجه.

لقد برع القاضي عياض في أمور عدة منها: القضاء والفقه والحديث واللغة والأدب، وكان شاعرًا مجيدًا، وله موهبة رائعة تدل على قدرته على نظم الشعر، ومن أروع ما قاله القاضي عياض من القصائد تلك التي أنشدها وهو يودِّع قرطبة في عام ٥٠٨ هـ، بعد أن تلقى العلم فيها من شيوخها، وتوطَّدت له صلات بأهلها ومودة وصداقة وأُخُوَّة أكيدة، فقال مودِّعًا المدينة الأندلسية ذات التاريخ العريق:

(أقول وقد جدَّ ارتحالي وغرَّدت حُداتي وَزُمَّت للفراق ركائبي)

(وقد غمضت من كثرة الدمع مقلتي وصارت هواء من فؤاد ترائبي)

(ولم تبق إلا وقفة يستحثها وداعي للأحباب لا للحبائب)

(رعى الله جيرانًا بقرطبة العلا وسقى ربُاها بالعهاد السواكب)

(وحـيًّـا زمـانًا بينـهم قـد ألفـتـه طليق المحـيًّـا مُسـتـلان الجـوانب)
(أإخـوانـنا بالله فـيـهـا تـذاكـروا معـهـاد جـار أو مـودة صـاحب)
(غـدوت بهم من برهـم واحـتـفـائهم كـأني في أهلـي وبين أقـاربي)[1]

ومن أشعاره الإخـوانية التي وصف ليلة جَمَعَت مِـن أصحابه كل ذي مكانة وفضل وجاه:

(سـمحَ الـزمـان بـليـلـة غـراء جـامـعـة الـسـرورْ)
(أجـنـتْ أكـفُّ جُـنـاتـهـا قطـفَ الأمـانـي والحـبـور)
(مـا فـضَّ طينُ خـتـامـهـا فـيـمـا تقـدم مـن دهور)
(دارت عـلى فـلك الـسـعـود بمـثل أشـبـاه الـبـدور)
(مـا إن تـرى إلا أمـيـرًا حـاز إرثًـا عن أمـيـر)
(تـخـذوا الـقـلوب أسـرة وثَوَوْا بـهـا عـوض الـسـرير)
(فـعـليـهـم وقف الـعـلاءُ وإن تُـدوولـت الأمـور)[2]

لقد اهتم الأمـير علي بن يوسف بالقاضي عـياض لما كان شـابًا وظهر ذكاؤه وانتشر صيته، فـأكرمته دولة المرابطين، وهيأت له الأجواء للمزيد من التحصيل والتفقه في الدين.

وكان القاضي عياض لا يحب كثرة الأسفار والارتحال، ويلاحظ المتتبع

---

(١) المغرب والأندلس، د. مصطفى الشكعة، ص (١٣٩ـ ١٤٦).

(٢) المصدر السابق، ص (١٤٩).

لسيرته وحياته أنه كان قليل الارتحال بالقياس إلى معاصريه وأترابه من العلماء والفقهاء والمحدثين، وكانت له نظرية عجيبة في ذم السفر وبيان أضراره وعيوبه، نظمه في الشعر، وخالفه كثير من العلماء في نظرته المتفردة، وإليك الأبيات التي ذكرها في ذم السفر:

(تقعَّد عن الأسفار إن كنت طالبًا نجاةً ففي الأسفار سبعُ عوائق)
(تشوفُ إخوانٍ وفقدُ أحبةٍ وأعظمها يا صاح سُكنى الفنادق)
(وكثرةُ إيحاشٍ وقلةُ مؤنسٍ وتبذيرُ أموالٍ وخيفةُ سارق)
(فقد كان ذا دهرًا تقادم عهده وأعقبه دهرٌ شديدُ المضايق)
(فهذه مقالي والسلام كما بدا وجرِّب ففي التجريب علمُ الحقائق)[1]

وهذه فلسفة غريبة في الأسفار أخالف القاضي عياض (رحمه الله) فيها، إلا أنني أقول: إن الإنسان في أسفاره العلمية أو التجارية عندما يقضي مآربه عليه أن ينتقل إلى غيرها حتى يحقق أهدافه ويرجع إلى وطنه وقومه غانماً سالماً مفيدًا لأهله وشعبه، وقد ذكر العلماء في الأسفار فوائد فقال الشافعي (رحمه الله):

تغرَّب عن الأوطان في طلب العلى وسافر ففي الأسفار خمسُ فوائد
تفرج همٍّ واكتسابُ معيشةٍ وعلمٌ وآداب وصحبة ماجد[2]

---

(١) انظر: النبوغ المغربي، عبد الله كنون، (ج٣/ ١٣١).
(٢) ديوان الشافعي، ص (٥٧).

وقال الإمام الشافعي في الاغتراب أيضا:

مـا في المقـام لذي عـقلٍ وذي أدبِ   من راحـةٍ فَـدَعِ الأوطـان واغـتـربِ
سـافـر تجـد عـوضًـا عـمن تـفـارقـه   وانصب فإن لذيذ العـيش في النصب
إني رأيـت وقـوف الماء يفـسـده   إن سـاح طاب وإن لم يجـرِ لم يطبِ
والأسـدُ لولا فـراقُ الأرضِ مـا   والسـهم لولا فراقُ القـوسِ لم يُصبِ
والشـمسُ لو وقـفت في الفلك دائمـة   لملَّهـا النـاس من عُـجم ومن عـربِ[1]

وكان ممن عاصر القاضي عياض العلامة الشيخ يعلى أبو جبل، وكان له رأي يخالف رأي القاضي عياض في السفر نظمه في هذه الأبيات:

(سـافـر لتكسـب في الأسـفـار فـائدة   فَـرُبَّ فـائدة تُلقـى مع السـفـر)
(ولا تُـقِم بمـكـان لا تُصـيبُ بـه   نصحًـا ولو كنتَ بين الظل والشـجر)
(فـإن «مـوسـى» كليم الله أعـوزهُ   علم تكسَّـبَـهُ في صحبـة الخضـر)[2]

ومن شعره في الأشواق ما نظمه من أبيات واصفًا فيها شوقه وحنينه لزيارة المدينة المنورة فقال:

(يا دار خـيـر المرسـلين ومـن به   هُـدى الأنـام وخُـصَّ بـالآيـات)
(عنـدي لأجلك لوعـة وصـبـابة   وتشـوقٌ مـتـوقـدُ الجـمـرات)
(وعليَّ عـهـدٌ إن مـلأت مـحـاجـري   من تلـكم الجـدران والعـرصـات)
(لأعـفـرنَّ مـصـون شـيـبي بينهـا   من كـثـرة التـقـبيل والرَّشـفـات)

---

(١) ديوان الشافعي، ص (٣٤).

(٢) المغرب والأندلس، ص (١٥٠).

(لولا العـــوادي والأعـــادي زرتـهـــا أبدًا ولو سـعـيـا علـى الوجنات)[1]

(لكن سـأهدي مـن جـمـيـل تحـيـة لقـطين تلـك الدار والحـجـرات)

(أذكى مـن المسك المفـتق نـفـحـةً تغـشـاه بالآصـال والبُكرات)

(وتخـصـه بزواكـي الصـلوات ونَوامي التـسليم والبـركـات)[2]

وله أبيات يصف فـيها نفسـه وشوقه إلى وطنه قالهـا في مدينة «داي» ببلاد المغرب سنة ٥٤١ هـ، وكان قد ناهز الخامسة والستين من العمر، وكان مرغما على البقاء فيهاممنوعا للرجوع إلى بلاده في زمن دولة الموحدين.

يعلم الله وأنا أمر على هذه الأبيـات التي فجرت الأحـزان في نفسي، وألهـبت مـشاعـري وهيـجت الأشـواق إلى مـدينتي «بنغـازي» ومنطقـتي «الحدائق»، وذكرتني ببلادي العزيزة ليـبيا ما تملكت دموع الشوق إلى مسقط رأسي الذي طالت مدة غيابي عليه أكثر من أربعة عشـر عاما نصفها مسجونا في بلادي، والنصف الآخر قضيتها متنقلا بين البلدان، ولم تكن تهمتي التي كلفـتني هذه العقـوبة القاسـية التي أحـتسبـها عند الله إلا رضـيت بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا ورسولا (ﷺ).

إن أبيات القـاضي عيـاض في غربتـه أضفت عليّ وأنا أترجم حـياته مسحة من الحزن، ولوعـة من الأسى، وإحساسا بالحنين إلى أهلي ووطني، وأحبتي وإخواني، فقال القاضي (رحمه الله) وهو يحاور حمامة مرت به:

(أقـمـريـة الأدواح بالله طـارحي أخـا شـجـى بالنـوح أو بغـناء)

(فـقـد أرقني من هـديلـك رنة تهـيـج من شـوقي ومن بُـرحـائي)

---

(١) المصدر السابق نفسه.

(٢) أزهار الرياض، (ج٤/ ١٨٠).

(لعلك مثلي يا حمام فإنني غريب «بداي» قد بُليتَ بداء)
(فكم من فلاةٍ بين «داي» و «سبتة» وخَرق بعيد الخافقين قواء)
(تصفق فيه للرياح خوافقٌ كما ضعْضعتني زفرةُ الصعداء)
(يذكرني سحُّ المياه بأرضها دموعًا أريقتّ يوم بنتُ ورائي)
(ويعجبني في سهلها وحزنها خمائل أشجارِ ترف لرائي)
(لعلَّ الذي كان التفرق حكمهُ سيجمع منَّا الشمل بعد تنائي)[1]

جـ. عياض والقضاء:

رجع القاضي عياض إلى سبتة بعد أن أتم ما أراد من علوم الأندلس، وكان دخوله لمدينته الحبيبة إلى نفسه عام (٥٠٨ هـ)، وفرح أهل سبتة بابنهم البار، وتصدر للتعليم والتدريس بعد أن امتحنه علماء مدينة سبتة في الفقه المالكي، وأصبح من أهل مجلس الشورى، وكان ذلك في الثانية والثلاثين من عمره أو يزيد قليلا، وكانت تلك المرحلة سببًا في إعداده ليتسنم سدة القضاة الشريفة الرفيعة في سبتة[2].

ولما كان عياض في التاسعة والثلاثين من عمره تولى القضاء وكان ذلك عام ٥١٥ هـ، وظل متربعاً على كرسي القضاء في بلده سبتة ستة عشر عامًا، فسار فيها أحسن سيرة، وكان محمود الطريقة مشكور الحالة، أقام جميع الحدود على ضروبها واختلاف أنواعها، وبنى الزيادة الغربية في جامع سبتة التي كمل بها جماله وترك في بلده آثارًا محمودة[3].

(١) انظر: المغرب والأندلس، ص (١٥٠). (٢) انظر: المغرب والأندلس، ص (١٥٠).
(٣) انظر: أزهار الرياض، (ج٣/ ١٠).

ويبدو أن بعض الأمراء لم يعجبهم حزم وعدالة القاضي عياض، كما خافوا من كثرة أتباعه وانتشار صيته ومحبة الناس له، فلذلك عزموا على نقله إلى غرناطة، ولم يذكروا سببًا مقنعًا، مما جعل الفقيه أبا الحسن بن هارون المالقي يمدح القاضي عياضًا في أبيات سجلتها ذاكرة التاريخ:

(ظلموا عياضًا وهو يَحْلُمُ عنهم والظلم بين العالمين قديمُ)

(جعلوا مكانَ الراء عينًا في اسمه كي يكتموه فإنه معلوم)

(لولاه ما فاحتْ بطائحُ سبتة والروض حول فنائها معدوم)[1]

وانتقل القاضي عياض إلى غرناطة ممتثلاً لأمر الأمير، فهب أهل غرناطة لاستقباله كما يُستقبل الفاتحون، وبالله إنه لحق فاتح للعقول، ومنور للقلوب، ومطهر للنفوس بعلمه الغزير، وخُلقه المتواضع وسيرته العطرة.

وسار في الناس سيرة العدل، ورفع الظلم، وإحقاق الحقوق دون خوف من أمير أو وزير، ونشط وضاق به ذرعًا من تعرضت مصالحه للخطر، ولا يستطيع الحصول عليها إلا بالظلم، وأسفرت مكايد الأشرار في غرناطة عن عزل القاضي النزيه في عام ٥٣٢هـ، ورجع إلى بلده ليكون بعيدًا عن القضاء قريبًا لطلاب العلم وحلقاته، وقصده الناس وانتفع به العباد، ونشر نور الكتاب والسنة في البلاد، واستمر على تلك الحالة الدعوية سبع سنين، وفي أواخر دولة المرابطين عام ٥٣٩هـ دُعي ليتولى قضاء سبتة من جديد، وهو في الثالثة والستين من عمره، وكان شيخا جليلا وعالما عظيماً، وقاضياً حكيماً، وأباً رحيمًا، فابتهج الناس لعودته، وسار فيهم سابق سيرته، وما مضت شهور قليلة حتى سقطت دولة المرابطين على يد

(١) انظر: المغرب والأندلس، ص (١٦٢).

دولة الموحدين البدعيــة، فاضطر القاضي الجليل إلى خوض الحياة السـياسية والحربية[1].

د ـ معارك السياسة والحرب:

إن ظهور دولة الموحدين على يد المبتدع الكبير محمد بن تومرت كانت من أسباب سـقوط دولة المرابطين، فطبيعي جدًا أن يخـوض حربًا ضد دولة الموحدين، وتولى قيـادة جيوش الموحدين عبـد المؤمن بن علي الذي استطاع بجيشه أن يحتل مدن المغرب مثل فاس ومراكش وغيرهما.

ورأى القاضي عياض أن المصلحة العليا لمدينة سبتة وأهلها أن يبايع عبد المؤمن حفاظاً على الأعراض والأمـوال، وتجنيب المدينة من الدمار الشامل، وقبل أمـير الموحدين تلك البـيعة الاضطرارية، ومـا أن قام محـمد بن هود بثورتـه على الموحدين حـتى استـجاب أهل سـبتة لذلـك بزعامة الـقاضي عياض، وقام السبتيون بقتل عامل الموحدين وأصحابه، وسار القاضي عياض إلى يحيى بـن علي المسوفي المعروف بـابن غانية في قـرطبة وبايعــه، وكان متـمسكًا بدعوة المرابطين، وطلب منه أن يعـيِّن واليًا على سبـتة فبعث مـعه يحيى بن أبي بكر الصحراوي، وأصبحت بذلك مدينة سبتة خارجة عن دولة الموحدين، وعادت إلى حكم المرابطين.

إلا أن جيوش الموحدين استطاعت إخضـاع مدينة سبتة وأهلها وأعادوا البيـعة من جـديد للموحـدين الذين قبلوا ذلك، واشـترطوا إبعـاد القاضي عياض عن مدينته إلى مراكش، وقيل: تدلا إلى أن توفاه الله تعالى.

إن موقف القـاضي عيـاض كان منسجـما مع عقـيدته وعلمـه ودعوته في

---

(١) انظر: المغرب والأندلس، ص (١٦٢).

محاربته للموحـدين الذين اعتقدوا عصمة إمامهم محـمد بن تومرت، وغير ذلك من العقـائد البدعيـة التي سنفصلها بإذن الله (تعـالى) عند كلامنا عن الموحدين.

إن القاضي عياض ليس من أهل السنة وحسب، ولكنه فقيه أهل السنة آنذاك على الإطلاق، وهـو كـذلك يرى وجـوب الوقـوف أمـام دعـوة ابن تومرت، وينبغي التـخلص منها حتى حانت أول فـرصة، وإن يكن قد بايع فالبيعة آنذاك كانت حفاظا على سلامة بلدته وأهلها، أما وقد لاحت الفرصة بخـروج بعض المدن عـلى سلطان الموحـدين القـائـم على بدعـة الإمـامـة المعـصومـة، أما وقـد جـرت الريح بما لا تشتـهي السـفن؛ فإن من العـقل الاستسلام ثم المبايعة وله حكم المضطر في ذلك.

وإن سلطان الموحدين عـبد المؤمن كان على مـقدرة عجيـبة من الدهاء والمكر، ولذلك رأي لمصلحة دولته أن يضع الفقهاء والعلماء الذين يشك في ولائهم لـه في مراكش، ومنعهم مـن العودة إلى بلادهم، أو يضـعهم في مدن أخرى ليخدموا مخططات الدولة الناشئة[1].

هـ - وفاة القاضي عياض:

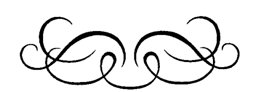
توفى (رحمه الله) في منفاه بعيدا عن وطنه في عام ٥٤٤ هـ ودفن في مراكش[2]، فعليه من الله الرحمة والمغفرة والرضوان على ما قدَّمه للإسلام.

هؤلاء بعض العلمـاء الذين كان لهم سـبق ومكانه في دولة المرابطين، وانتفع الناس بعلمهم وفقههم، ترجمت لهم ترجـمة متواضعة، كما برز في علوم الفقه والحديث كثيـر من العلماء والمحدثينفي عصر دولة المرابطينمنهم:

(١) سير أعلام النبلاء (ج٢٠/٢١٧).

(٢) المصدر السابق.

أبو الحسن علي بن عبد الرحمن المعروف بابن أبي حقون وله مختصر في أصول الفقه سماه «بالمقتضب الأشفى في أصول المستصفى»، ومنهم أبو محمد عبد الله بن علي بن عبد الله بن خلف بن أحمد بن عمر اللخمي، ويعرف بالرشاطي، وكانت له عناية بالحديث والرجال والرواة والتواريخ، وله كتاب سماه «اقتباس الأنوار، والتماس الأزهار في أنساب الصحابة ورواة الآثار»، ومنهم أيضا أبو عبد الله بن محمد بن حسين بن أحمد بن محمد الأنصاري، وأبو جعفر أحمد بن عبد الصمد بن أبي عبيدة بن محمد الخزرجي، وقد ألف كتابا في أحكام الرسول (ﷺ) سماه «آفاق الشموس وأعلاق النفوس»، وكتابا آخر سماه «مقاطع الصلبان ومراتع رياض أهل الإيمان» ، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن عطية المحاربي وله كتاب يُسمى «بالوجيز في التفسير»، وكذلك برز في عصر علي بن يوسف من الفقهاء وعلماء الحديث: أبو عبد الله محمد بن حسين بن أحمد الأنصاري المعروف بابن أبي أحد عشر، وأبو عبد الله يوسف بن أحمد بن سعيد بن يربوع بن سليمان، وأبو الوليد يوسف بن عبد العزيز بن يوسف ابن عمر المعروف بابن الدباغ، وأبو عبد الله محمد ابن أحمد بن خلف بن إبراهيم التجيبي المعروف بابن الحاج قاضي الجماعة بقرطبة.





المبحث الرابع

علوم اللغة في زمن المرابطين

ونبغ في علوم اللغة في عصر علي بن يوسف عدد كبير من العلماء المبرزين في النحو وعلوم اللغة نذكر منهم: أبا محمد، عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي النحوي،ت ٥٢١ هـ، وكان حجة في علمه عالما متبحرا في النحو وعلوم اللغة، وكان الناس يجتمعون إليه ويقرؤون عليه، ومن تواليفه كتاب «الاقتضاب في شرح أدب الكتاب»، وكتاب «التنبيه على الأسباب الموجبة لاختلاف الأمة»، وكتاب آخر في شرح الموطأ، بالإضافة إلى ذلك كان شاعرًا مطبوعًا، فمن نظمه قوله:

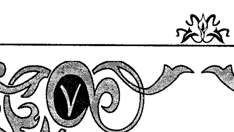
(أخو العلم حي خالد بعد موته وأوصاله تحت التراب رميم)
(وذو الجهل ميت وهو ماشٍ على يُظَنُّ من الأحياء وهو عديم)

ومن أئمة اللغويين وأعلامهم في عصر علي بن يوسف، أبو الحسن علي بن أحمد بن خلف الأنصاري النحوي، وقد كان من أهل المعرفة بالآداب واللغة، متقدما في علم القراءات، وأبو محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن أحمد بن عبد الله النحوي المعروف بابن اللجاش، وكان عالماً متبحراً في النحو، وأبو العباس أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله المعروف بالتدميري ت ٥٥٥ هـ، ومن تواليفه «نظم القرطين وضم أشعار السقطين» وجمع فيه أشعار «الكامل» للمبرد و «النوادر» لأبي علي البغدادي، كما له كتاب «التوطئة في العربية» وله شرح على كتاب الفصيح لثعلب، وله في شرح أبيات جمل الزجاجي كتاب سماه «شفاء الصدور» ،

وكتـاب «الفوائد والفرائد» ، ومنهـم أبو العباس أحـمد بن عبـد العزيز بن هشام بن غزوان الفري، وكان من أهل المعرفة بالنحو واللغة والعروض، وله أرجوزة مزدوجة في قراءة نافع وثانية في قراءة ابن كـثير، ومن تواليفه كتاب «فوائد الإفصاح عن شواهد الإيضاح»[1].



(١) تاريخ المغرب والأندلس، ص (٣٩٨ ـ ٤٠٠).





المبحث الخامس

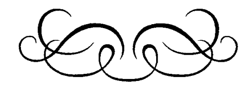
علوم التاريخ والجغرافيا في عصر المرابطين

ظهر في عصر المرابطين عدد كبيـر من أعلام الرواية والكتابة التاريخية نذكـر في مقـدمتهـم: أبو زكريا بن يحـيى بن يوسف الأنصاري الغـرناطي المعروف بابن الصـيرفي، كان من أعـلام عصر علي بن يوسف في البـلاغة والأدب والتاريخ، كتب بغرناطة عن الأمـير تاشفين بن علي بن يوسف أيام أن كان واليـاً على الأندلس، وألَّف في تاريخ الأندلس في العـصر المرابطي كتـابا سمـاه «الأنوار الجلية في تاريخ الدولة المرابطـية»، وكتـاباً آخر سـماه «قصص الأنباء وسـياسة الرؤساء» وهما مؤلـفان لم يصلا إلينا مع الأسف، ولم يصل إلينا من مـؤلفاته الأولى سـوى شذور نقلهـا المتأخرون مـثل ابن الخطيب، وخاصة روايته عن غزوة ألفونسو المحارب للأندلس سنة ٥١٩ هـ/ ١١٢٥ م، وقد توفى ابن الصيـرفي بغرناطة في سنة ٥٧٠ هـ، وهناك أيضا أبو الحسن محمد بن بسام الشنتـريني ت ٥٤٢ هـ، صاحب كتاب «الذخيرة في محـاسن أهل الجزيرة»، وهذا الكتاب مـوسوعة أدبيـة تاريخية يتـضمن تراث القرن الخامس الهجري ١١١٠ م ، وأبو عـبد الله محمد بن خلف بن الحسن بن إسـماعـيل الصدفي، ويعـرف بابن علقمة، وهو مـن أهل مدينة بلنسية ألَّف كـتابًا سماه «البيان الواضح في الملم الفـادح» وتوفي ابن علقمة عـام ٥٠٩ هـ/ ١١١٤م، وأبو طالب عبـد الجبـار عبـد الله بن أحمـد بن أصبغ، وله كتاب يسمى «عيون الإمامة ونـواظر السياسة»، وأبو عامر محمد ابن أحمـد بن عامر الـبلوى المعروف بالسالمي، وقـد ألف كتـابًا في التاريخ سمـاه «درر القلائد وغـرر الفوئد»، وأبـو نصر الفـتح بن محـمد القيـسي

الإشبيلي، والمعروف بالفتح بن خاقان، ومن تواليفه كتاب «قلائد العقيان في محاسن الأعيان»، وكتاب مطمع الأنفس ومسرح التأنس» وكتاب «رواية المحاسن وغاية المحاسن» وأبو القاسم خلف بن عبد الملك ويعرف بابن بشكوال، وكان من أعلام المؤرخين في عصر المرابطين، وأشهر تواليفه كتابه المعروف «بالصلة»، الذي جعله تتمة لكتاب ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس، ومن تواليفه أيضاً كتاب «الغوامض والمبهمات» في اثني عشر جزءًا، وكتاب «المحاسن والفضائل في معرفة العلماء الأفاضل» في واحد وعشرين جزءًا وقد توفي ابن بشكوال في رمضان ٥٧٨ هـ.

وفي مجال الجغرافية نبغ عدد من كبار جغرافيي الأندلس والمغرب في عصر المرابطين نذكر منهم: الشريف أبو عبد الله محمد الإدريسي، صاحب كتاب «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق»، وقد ألف الإدريسي لرجار الثاني صاحب صقلية، ولذا يُعرف هذا الكتاب في كتب الجغرافية العربية باسم الرجاري.

ومن جغرافيي عصر المرابطين عبد الله بن إبراهيم بن وزمر الحجاري صاحب كتاب «المسهب في غرائب المغرب»، وقد اتخذ بنو سعيد كتابه أساسًا لكتابهم المعروف باسم «المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب»[1].



(١) تاريخ المغرب والأندلس، ص (٤٠١ ـ ٤٠٣).



المبحث السادس

علوم الطب في عصر المراطين

تقدمت العلوم الطبية والصيدلانية في عصر المرابطين تقدمًا يشهد له الأسماء والأعلام التي تألقت في حضارة الأندلس والمغرب، وأشهرها ابن زهر وهو اسم طبيب أندلسي من أعظم أطباء الإسلام، ممَّن تركوا بصماتهم واضحة في تاريخ الحضارة الإنسانية جمعاء، وينتسب أبو مروان عبد الملك ابن زهر إلى أسرة أندلسية لمعت في ميدان الطب والعلوم الطبيعية والكيميائية عميدها الأكبر هو أبو مروان عبد الملك ابن الفقيه محمد بن مروان بن الأزهر الأيادي الإشبيلي، وكان والده الفقيه محمد بن مروان من جلة الفقهاء المتميزين في علم الحديث في إشبيلية، وقد رحل أبو مروان في شبابه إلى المشرق وسمع في القيروان ومصر، وتتلمذ على أيدي علماء المشرق في الطب، ورجع إلى الأندلس، وأصبح من أشهر علماء الطب فيها، وتوفي في إشبيلية، وورثه في علم الطب ابنه أبو العلاء الذي تبوأ مكانة عظيمة في دولة المرابطين، ومن تواليفه «الخواص» وكتابه «الأدوية المفردة» وكتاب «الإيضاح بشواهد الافتضاح» في الرد على ابن رضوان فيما رده على حنين ابن إسحاق في كتاب «المدخل إلى الطب» وكتاب «النكت الطبية»، وكتاب «الطرر» ومقالة في تركيب الأدوية، وتوفي أبو العلاء في قرطبة ٥٢٥ هـ، وحُمل إلى إشبيلية ودفن بها، وأمر الأمير علي بن يوسف بجمع كتبه ونسخها، وتم ذلك عام ٥٢٦ هـ، وورث ابنه أبو مروان من والده صناعة علوم الطب، ونبغ في هذا المجال، ولم يكن في زمانه من يماثله أو ينافسه، وكان له حظوة لدى الأمراء المرابطين، فقد صنف للأمير أبي إسحاق إبراهيم بان يوسف بن تاشفين كتابا سماه «الاقتصاد في صلاح الأجساد»، ومن

تواليفه أيضا كتاب «التيسير في المداواة والتدبير» وقد ألفه القاضي أبو الوليد ابن رشد وهذا الكتاب يُعد من أعظم مراجع الطب في العصور الوسطى، وله أيضا كتاب «الأغذية»، ومقالة في علل الكلى، ورسالة في علتي البرص والبهق، وتوفي هذا العالم في ٥٥٧ هـ، في إشبيلية.

ومن الأطباء الذين برعوا في عصر علي بن يوسف: أبو عامر محمد ابن أحمد بن عامر البلوي، وله في الطب كتاب سماه «الشفاء» وأبو الحسن علي بن عبد الرحمن بن سعيد السعدي وغيرهم.

ومما يؤكد اهتمام دولة المرابطين بالطب وجود منصب يعرف برئيس الصناعة الطبية، وهو منصب هام يقابل ما نطلق عليه اليوم اسم وزير الصحة، إذ كان فيما يبدو المسؤول الأول أمام الأمير في صناعة الطب، وما يتعلق بها من الأدوية والعقاقير[1].



(١) تاريخ المغرب والأندلس، ص (٤٠٧ ـ ٤٠٩).



المبحث السابع

أسباب سقوط دولة المرابطين

١ - ظهور روح الدعة والانغماس في الملذات والشهوات عند حُكام المرابطين وأمرائهم في أواخر عصر علي بن يوسف، وكان للمجتمع الأندلسي تأثير لا ينكر في قادة وأمراء وحكام دولة المرابطين، الذين استجابوا لنزوات شهواتهم وانغمسوا في الحياة الدنيا، فتحقق قول الله (تعالى): ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦][1].

يقول سيد قطب (رحمه الله): «والمترفون في كل أمة هم طبقة الكبراء الناعمين الذين يجدون المال، ويجدون الخدم، ويجدون الراحة، فينعمون بالدعة والراحة، وبالسيادة حتى تترهل نفوسهم وتأسن، وترتع في الفسق والمجانة وتستهتر بالقيم والمقدسات والكرامات، وتلغ في الأرض والحرمات، وهم إذا لم يجدوا من يضرب على أيديهم عاثوا في الأرض فسادا، ونشروا الفاحشة في الأمة وأشاعوها، وأرخصوا القيم العليا التي لا تعيش الشعوب إلا بها ولها، ومن ثم تتحلل الأمة وتسترخي، وتفقد حيويتها وعناصر قوتها وأسباب بقائها فتهلك وتطوى صفحتها..».

والآية تقرر سنة الله هذه في إهلاك من انغمس في الشهوات، وأسرف في الملذات، وتحلل من القيم والأخلاق ولازم الفسق والانحلال والفساد.

٢ - ظهور السفور والاختلاط بين النساء والرجال، وبدأت دولة المرابطين في آخر عهد الأمير علي بن يوسف تفقد طهرها وصفاءها الذي اتصف به جيلهم الأول، مما جعل الرعية المسلمة تتذمر من هذا الانحراف

(١) تاريخ المغرب والأندلس، ص (٤٠٧ ـ ٤٠٩).

والفساد، وتستجيب لدعوة محمد بن تومرت الذي أظهر نفسه للناس بالزاهد والناسك والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر.

٣ ـ انحراف نظام الحكم عن النظام الشوري إلى الوراثي الذي سبب نزاعًا عنيفًا على منصب ولاية العهد بين أولاد علي بن يوسف، كما تطلع مجموعة من الأمراء إلى منصب الأمير علي ونازعوه في سلطانه مما سبب تمزقاً داخلياً، ففقدت الدولة المرابطية وحدتها الأولى، وكثرت الجيوب الداخلية في كيان الدولة، وتفجرت ثورات عنيفة في قرطبة، وفي فاس وغيرهما ساهمت في إضعاف الوحدة السياسية وإسقاط هيبة الدولة المرابطية.

٤ ـ الضيق الفكري الذي أصاب فقهاء المرابطين وحجرهم على أفكار الناس، ومحاولة إلزامهم بفروع مذهب الإمام مالك وحده، وعملوا على منع بقية المذاهب السنية تعصبًا لمذهبهم، وكان لفقهاء المالكية نفوذ كبير مما جعلهم يوسعون تعصبهم وتحجُّرهم الفكري.

ويرى بعض المؤرخين أن التعصب الأعمى عند فقهاء المرابطين في زمن الأمير علي بن يوسف كان السبب الأول في سقوط دولة المرابطين[1]، لقد أسهم فقهاء المالكية في دولة المرابطين بقسط وافر في تذمر الرعايا، وإضعاف شأن الإمارة، لقد استغل بعض الفقهاء نفوذهم من أجل جمع المال وبناء الدور، وامتلاك الأرض، وعاشوا حياة البذخ والرفاهية المفرطة، وكان ذلك سببا في إيجاد ردة فعل عنيفة عند أفراد المجتمع المرابطي، وانبرى الشعراء في تصوير حال الفقهاء في تلك الفترة، فقال أبو جعفر أحمد بن محمد المعروف بابن البني:

(١) الزلاقة بقيادة يوسف بن تاشفين، ص (٩٨).

(أهل الرياء لبستم ناموسكم كالذئب أدلج في الظلام العاتم)
(فملكتم الدنيا بمذهب مالك وقسمتم الأموال بابن القاسم)
(وركبتم شهب الدواب بأشهب وبأصبغ صبغت لكم في العالم)[1]

٥ - ومن أهم العوامل التي أسقطت دولة المرابطين: فقدها لكثير من قياداتها وعلمائها العظام أمثال سير بن أبي بكر، ومحمد بن مزدلي، ومحمد ابن فاطمة، ومحمد بن الحاج، وأبي إسحاق بن دانية، وأبي بكر بن واسينو.. فمن لم يستشهد من كبار رجال الدولة أدركه الموت الطبيعي، ولم يستطع ذلك الجيل أن يغرس المبادئ والقيم التي حملها في الجيل الذي بعده، فاختلفت قدرات الجيل الذي بعدهم واستعداداتهم، وهذا درس مهم لأبناء الحركات الإسلامية في أهمية توريث التجارب والخبرات المتنوعة والمتعددة للأجيال المتلاحقة[2].

٦ - ومن أهم العوامل التي انهكت دولة المرابطين، أنها مرت بأزمة اقتصادية حادة، نتيجة لانحباس المطر عدة سنوات، وحلول الجفاف والقحط بالأندلس والمغرب، وزاد من حدة الأزمة الاقتصادية أن أسراب الجراد هاجمت ما بقي من الأخضر على وجه البلاد مما هيأ الظروف لانتشار مختلف الأوبئة بين كثير من السكان، ووقعت هذه الأزمة في الفترة الواقعة ما بين أعوام ٥٢٤هـ - ٥٣٠م[3].

٧ - ومن أهم الأسباب الرئيسية في زوال دولة المرابطين - في نظري - صدامها المسلح مع جيوش الموحدين، ورأيت أن أفرد له مبحثا مستقلا[4]، ويكون ذلك عند دراسة دولة الموحدين- إن شاء الله.

(١- ٤) انظر: سقوط دولة الموحدين، للدكتور مراجع الغناي، ص (٣١).

نتائج البحث

١ - إن في معظم القبائل في العالم الإسلامي رجالا لهم عقول راجحة وبعد نظر وتقدير للأمور، وفي أغلب الأحيان يتولى أمر القبيلة أرجح الناس عقلا وأكثرهم جودا، وأعظمهم شجاعة، وأخلصهم لأهله وعشيرته، وشخصية الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي خير دليل على ما قلت، ولذلك من الدروس العميقة من هذا البحث هو أهمية دور زعماء القبائل في دعوة قبائلهم وعشائرهم، وإيجاد الحماية اللازمة للدعاة إلى الله في أواسط القبائل، فعلى الحركات الإسلامية العامة أن توثق علاقتها مع هذه الشريحة من المجتمع، وتحرص على دعوتها للإسلام لتنصهر في الدعوة الربانية التي تبذل جهدها لتحكيم شرع الله تعالى.

٢ - إن أبا عمران الفاسي العالم الرباني والفقيه المالكي سيد الفقهاء في القيروان في زمانه يعتبر هو واضع الخطوط العريضة لدولة المرابطين، وكان (رحمه الله) يميز بين العمل العلني في الدعوة وفقهها وتعليم الناس، وبين العمل السري لإقامة دولة سنية، وكان (رحمه الله) على اتصال بفقهاء أهل السنة في مدن وقرى الشمال الإفريقي، ولذلك لما تعرف أبو عمران الفاسي على الأمير الصنهاجي يحيى بن إبراهيم، وعلم بأحوال قومه وحاجتهم لمنهج الإسلام ومن يربيهم على ذلك، اتصل بأخيه الشيخ وجاج بن زلوا اللمطي فقيه المالكية بالسوس الأقصى، وكان فقيها صالحا يقيم بمدينة ملكوس، وأطلعه على المهمة التي جاء من أجلها الأمير يحيى، فاختار لهذه

المهمة تلميذه الذكي الفقيه العابد الألمعي عبد الله بن ياسين الجزولي صاحب العلوم المتنوعة والشخصية الجذابة التي تجرى في دمائها صفات الدعاة المتعددة، وسار (رحمه الله) وفق خطة محكمة بصبر وحلم وشجاعة في قبائل الملثمين.

٣ ـ كانت مرحلة التعريف التي نفذها الإمام عبد الله بن ياسين في قبائل جزولة ولمتونة وغيرهما من أصعب المراحل، وكادت تودي بحياته واستطاع أن يحارب مظاهر الشرك والجهل في مجتمع صنهاجة الصحراوي، وأن يتحمل الكثير من أجل تعليمهم الإسلام وأركان الإيمان ومقامات الإحسان.

٤ ـ وفي مرحلة اختيار العناصر التي تحمل الدعوة اختار الإمام عبد الله بن ياسين رباطه على مصب نهر السنغال بعيدا عن نفوذ الأمراء وأصحاب الجاه والأموال، وشكل نخبة صفوية ألزمها بلوائح تنظيمية ومبادئ سلوكية، واجتهد في تربيتها وشكل منها مجلس الشورى.

٥ ـ وفي مرحلة المغالبة بعد أن أصبحت للإمام ابن ياسين شوكة وقوة ومنعة استطاع أن يقضي على قوة الشر في قبائل لمتونة وجزولة وغيرها، وأن يوحدها على منهج الإسلام وعقيدة الرحمن ودعوة الإيمان.

٦ ـ كانت تربية عبد الله بن ياسين لأتباعه رفيعة المستوى غرست في نفوسهم حب الشهادة، والتلذذ بمتاعب الجهاد والحرص على هداية الناس، واختار لأتباعه اسما يدل على الرابطة السامية التي ربطت هذه الجموع التي كانت متناحرة وأصبحت متآخية متعاونة ألا وهي «المرابطون».

٧ ـ أصبح فقهاء المغرب الأقصى والأحرار المتطلعون لتحكيم شرع الله في مدنهم يتصلون بالمرابطين، ويطلبون منهم مساعدتهم لأزالة الظلم الواقع

عليهم من حكام زناتة، وبالفعل لبى المرابطون هذا النداء، وتحركت جيوشهم القوية لإزالة المظالم ونشر العدل، والقضاء على دولة برغواطة الملحدة، وعلى بقايا الروافض، وأصبحت جبهاتهم متعددة نحو السنغال والنيجر ونحو فاس ومكناس وطنجة، وحققوا انتصارات رفيعة ودخلت أمم من الزنوج والوثنين في الإسلام.

٨ - استمر الإمام ابن ياسين يقود معارك التوحيد للمغرب الأقصى من أجل إقامة دولة سنية، واستشهد في تلك المعارك بعد أن ترك خلفه رجالا آمنوا بسمو دعوتهم وقدسية فكرتهم وروعة أهدافهم.

٩ - تولى قيادة المرابطين بعده الإمام أبو بكر بن عمر الذي تميز بزهده وعبادته وبساطته وحبه للجهاد والاستشهاد، وكان إذا ركب للجهاد ركب معه ٥٠٠ ألف مقاتل من المرابطين، فوضع هذا القائد الخطوة الأولى لدولة المرابطين، وأناب ابن عمه يوسف بن تاشفين على المغرب، وتحرك بجيش عظيم نحو الصحاري القاحلة لنشر الإسلام في النيجر والسنغال ومالي، وأبلى بلاء عظيما، وذخلت أمم وشعوب وقبائل لا يحصيها إلا خالقها في دين الفطرة ودعوة الإسلام الخالدة، ولما رجع إلى ابن عمه الأمير يوسف بن تاشفين في المغرب وجده قد حقق فتوحات عظيمة، ووحد البلاد، وقضى على الفساد، وأزال الظلم ونشر العدل، فتنازل عن الإمارة لابن عمه يوسف بعد أن أوصاه بتقوى الله وذكره قدومه على الله، ثم ودعه، ودخل في الصحراء الكبرى بجيشه الداعي إلى رضوان الله وصراطه المستقيم وأكرمه الله بالشهادة في قلب الصحراء الكبرى.

١٠ - تولى أمير المرابطين الأمير يوسف بن تاشفين؛ فنظم المدن، وأرسى نظم الحكم، وخطط للدولة المرابطية، فشرع في إنشاء دواوينها

ومجالسها وإداراتها وجيوشها، ووضع الأمراء والفقهاء والقضاة على المدن والقرى، وأشرف على تنفيذ أحكام الله، وأثبتت الأيام والحروب والمحن التي مر بها على أنه قائد عسكري وسياسي من الطراز الأول، وأحبه المرابطون والتفوا حوله وتطايرت الركبان في نشر سيرته وعدله وأحبه المسلمون.

١١ ـ أصاب المسلمين في الأندلس أضرار جسيمة بسبب خنوع ملوك الطوائف للنصارى وضعفهم في الحكم، مما عرض ممالك الأندلس لأطماع النصارى الحاقدين الذين جاسوا خلال الديار في الأندلس يقتلون ويذبحون ويسبون، وأصبحت ممالك الأندلس الإسلامية تتساقط في أيديهم مدينة بعد مدينة، وقرية إثر قرية، وحصنا خلف حصن، وركب المسلمين فزع عظيم فاضطر ملوك الطوائف أن يطلبوا الغوث والنصر من الأمير الرباني والقائد الميداني يوسف بن تاشفين، وكان قرار حكام الأندلس في استدعاء يوسف حكيما وتبناه الملك المعتمد بن عباد بكل ما يملك من حجة وقوة، ولما قالوا للمعتمد سيضم الأمير يوسف إليه الأندلس، فقال قولته المشهورة التي أصبحت مثلا رائعا على مر العصور وكر الدهور تتعلم منه الأجيال الوفاء لدينها والولاء لعقيدتها حيث قال: «رعي الإبل ولا رعي الخنازير»، وقال المعتمد لابنه: إن استدعاء الأمير يوسف أمر يرضي الله (تعالى)، ولن أكون أبدا سببا في ضياع ديار المسلمين.

١٢ ـ استجاب الأمير يوسف لدعوة إخوانه في العقيدة، وعرض الأمر على أهل مشورته؛ وتحصل على موافقة العلماء والفقهاء ورجال الدولة المرابطية، وحرك كتائب المرابطين بفرسانها الشجعان وجنودها الأبطال وعبر المضيق، وقاد الأمير يوسف كتائب المسلمين في الأندلس، ووضع مع أركان

جيشه خطة محكمة للقضاء على جيش ألفونسو النصراني، وسطر المرابطون في تاريخ أمتنا ملاحم العقيدة والفداء في معركة الزلاقة، وانتصر المسلمون وانهزم النصارى وحفظ الله الإسلام في الأندلس لقرون بعد تلك المعركة التاريخية، وبعد هذا النصر الرائع والنفيس الذي حققه المرابطون ورفعوا به راية الإسلام في سماء الأندلس رجع الأمير يوسف إلى المغرب، وترك الغنائم لملوك الأندلس الذين اختلفوا بعد ذلك وكادوا أن يضيعوا الإسلام من جديد في تلك الديار، فطلب فقهاء الأندلس من الأمير يوسف ضم الأندلس لحكم المرابطين، وشجعه علماء وفقهاء المغرب وتحصل على فتاوى من علماء المشرق من أمثال أبي بكر الطرطوشي في مصر، وأبي حامد الغزالي في العراق.

١٣ - استطاع يوسف بن تاشفين أن يفتح مدن الأندلس، وأن يضم الممالك إلى دولة المرابطين، وأسر بعض ملوك الأندلس الذين ثبت تعاونهم مع النصارى، ووضعهم في المغرب إلى أن توفاهم الله، وبذلك قضى على مهزلة ملوك الطوائف.

١٤ - حاول المستشرقون أن يلطخوا دولة المرابطين، وخصوصا الأمير يوسف إلا أنهم اصطدموا بحقائق التاريخ الناصعة التي دلت على عظمة الأمير يوسف ودولته الميمونة، وحاول المستشرق رينهارت دوزي أن يشوه دولة المرابطين ويصفها بالبربرية والتخلف، ويصف السلطان علي بن يوسف بالرجل التافه، ويمدح ملوك الطوائف في الأندلس الذين تحالفوا مع النصارى للقضاء على الإسلام والمسلمين، وشن حملة مسعورة على جهاد المرابطين الذين حققوا وحدة صفوف المسلمين، وهزموا أعداءهم النصارى، وخلصوا المسلمين من هؤلاء الملوك الضعفاء لقد شتم دوزي المستشرق الأمير يوسف،

ووصفه هو وابنه بأنهم تافهون، وأنا لا أستغرب من دوزي المستشرق أن يفقد توازنه، ويخرج عن نهج المؤرخين النزيه، لقد كان المستشرق دوزي ملحدا زنديقا عدوا للإسلام والمسلمين، كيف تريده أن يتحمل شعارات المرابطين الدالة على سمو عقيدتهم وطهارة منهجهم، وكأني بالمستشرق دوزي وهو يقلب الدينار المرابطي والمكتوب على وجهيه «لا إله إلا الله محمد رسول الله» ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، وقد اشتاط غضبا وفقد عقله وغرق في كفره، فأباح لنفسه الكذب والافتراء والزور ليهدئ من روعه وانفعاله، كيف يكون تافها من يوحد المغرب الأقصى ويضم إليه الأندلس ويقضى على ملوك الطوائف؟ لقد وصف المؤرخون المنصفون الأمير يوسف بأنه كان حازما ضابطا للنفس ماضي العزيمة عالي الهمة، تحركه عقيدته الإسلامية وشريعته الربانية، أما دولة المرابطين فقد أثبت التاريخ أنها دولة حضارة وعلم وثقافة، وأما ما قام به أعداؤها في وصفها بالتخلف الحضاري والتعصب المذهبي فهو قول باطل لا تسعفه الأدلة، عار من الحقائق، وما كان دافع خصومهم من الموحدين والأندلسيين الذين حملوا عليهم حملة ظالمة إلا من باب التعصب الديني أو المذهبي، أو كراهية سياسية أو قومية حاولوا النيل من دولة المرابطين السنية، وتابع أولئك الأقوام الذين مضوا بعض المستشرقين المحدثين أمثال المتعالم الحاقد الهولندي راينهارت دوزي وتابعه على ذلك نفر من المعاصرين أمثال ارشيبالد لويس في كتابه «القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط».

١٥ ـ ضم الأندلس إلى دولة المرابطين من أعظم أعمال الأمير يوسف ابن تاشفين الجهادية.

١٦ ـ كانت نظرة دولـة المرابطين إلى الخلافة الإسـلامية الـعباسـية في بغداد صائبة صحيحة لكونهـا منبثقة من منهج أهل السنة والجماعة، ولذلك بايعوا الخليفة العباسي، ورفعوا أعلامه وشعاره، ودعوا له على منابرهم.

١٧ ـ كانت علاقـة الدولة المرابطية بالخلافة العـبيدية في مصـر عدائية لاختلاف العـقائد والمناهج والمذاهب، ولذلك حرص المرابطون علـى اقتلاع بقايا الرفض والتشيع من دولتهم.

١٨ ـ كانت علاقة دولة المرابطين بالدولة الزيرية الصـنهاجية ذات أبعاد استراتيجية تعاونية، بـسبب وحدة المنهج والمعتقد والمذهعب والقرابة التي بين زعماء الدولتين، ولذلك نجد تنسيقـا في البحر المتوسط للإغارة على أساطيل النصارى، ونجد دعما اقـتصاديا في دولة تميم بن المعز الزيري لدولة المرابطين عندما خاضوا جهادهم المقدس ضد النصارى.

١٩ ـ أما عـلاقة بني حـماد بالمرابـطين فهي مـحفوفـة بالتخـوف من الطرفين، حيث نجد أن لبني حماد أطماعا توسـعية تستهدف أطرافا من دولة المرابطين، كما نجـد أن المعارضين والأندلسيين للمرابطين استقـروا في حماية بني حماد، إلا أن سياسة الأميـر يوسف مع بني حماد تميزت بالحكمة وبعد النظر، والابتعاد عن الصدام، مراعيـا في ذلك أمورا عديدة: منها قرابتهم، واتحادهم في المنهج والمعتقد والمذهب.

٢٠ ـ كانت عـلاقة المرابطين مع ملـوك النصارى عدائيـة، أم مع أهل الذمة فكانت محكومة بحكم الشريعة فيهم، فقامت على العدل والإنصاف.

٢١ ـكانت الأندلس مليـئة بالشـعراء والأدباء والفقـهاء، إلا إن الولاء والبراء ضاع مفهومه عند كثير من ملوكهم.

٢٢ـ استطاع الأندلسيون أن يثروا دولة المرابطين بالشعراء والأدباء، وأن

يؤثروا في كثير من جوانبها المعمارية والفنية والثقافية.

٢٣ ـ الحضارة الإسلامية في زمن دولة المرابطين امتزجت بالعناصر الإفريقية والعربية والأندلسية مما جعلها متميزة في كثير من جوانبها الحضارية.

٢٤ ـ كان في زمن المرابطين علماء وفقهاء لا زال أثرهم في الأمة ساريا إلى يومنا هذا من أمثال الفقيه القاضي أبو بكر بن العربي، والوليد بن رشد، والقاضي عياض، والمحدث الفقيه أبو علي الصدفي، وغيرهم كثير.

٢٥ ـ كان النظام العسكري والقضائي والإداري والمالي مواكبا لعصره، منضبطا بأحكام الإسلام في دولة المرابطين.

٢٦ ـ استطاع أسطول المرابطين أن يحقق الأمن والأمان لمسلمي الشمال الإفريقي، وأن يكبل النصارى في جنوب البحر المتوسط خسائر هائلة.

٢٧ ـ إن اهتمام الأمير علي بن يوسف بالزهد والعبادة وتسليمه لأمور الملك في آخر أيامه للأمراء خطر عظيم كلف دولة المرابطين متاعب عظيمة، ومن أعظم الأخطاء التي وقع فيها الأمير على عدم أخذه بنصيحة وزيره الفقيه مالك بن وهيب الرشبيلي الذي أشار على الأمير علي بقتل محمد بن تومرت الكذاب زعيم الموحدين، وقال للأمير: «هذا رجل مفسد لا تؤمن غائلته، ولا يسمع كلامه أحد إلا مال إليه، وإن وقع في بلاده المصامدة ثار علينا منه شر كبير».

إلا إن الأمير علي بن يوسف رفض قتله، فلما يئس مما أراد من قتل ابن تومرت، أشار عليه بسجنه حتى يموت، فقال أمير المسلمين: نسجنه، ولم يتعين لنا عليه حق؟ وهل السجن إلا أخو القتل، ولكن نأمره يخرجعنا من البلد، وليتوجه حيث شاء»[1].

(١) موسوعة المغرب العربي، (ج٢/١٨٨ ـ ١٨٩).

٢٨ ـ إن من أعظم أسباب سقوط الدول الذنوب والمعاصي، وارتكاب الكبائر والمظالم.

٢٩ ـ في زمن أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كانت مقومات النصر متجسدة في دولته، ومن أبيَن وأهم ما ظهر لي في هذا البحث من مقومات النصر من أهمها، أولا: الإعداد قبل المعركة، ثانيا: معرفةقوة العدو وإمكاناته، والتوجيه المعنوي، والتعمية على لعدو، والتحام القيادة مع الشعب، ومتانة العقيدة ووضوحها، القيادة المثلى، عدم القتال لدنيا، الحكمة في اتخاذ القرارات، صفات المجاهدين الخلقية والروحية، مما مهدت لهم طريق النصر.

٣٠ ـ من أخطر ما تمرُّ به الدول والحركات عدم قدرتها على توريث أفكارها ومناهجها وعقيدتها للجيل الذي بعدها.

٣١ ـ إن الاستهانة بالخصوم تؤدي إلى انهزام المستهزئ وانتصار المستهزأ به.

٣٢ ـ كان لنفوذ المرابطين في بلاد الأندلس أثر واضح المعالم في الحروب الصليبية في الشام، إذ إن دخولهم الأندلس منع الممالك الصليبية التي كانت تتجه إلى بلاد الشام، بل إن ظهورهم في تلك المرحلة التاريخية في المغرب والأندلس قد حال دون اشتراك القوى الأوروبية بكل ثقلها في الحروب الصليبية في الشرق، وبذلك قدم المرابطون خدمات عظيمة وجليلة للشرق الإسلامي[1].

٣٣ ـ كانت حضارة المرابطين في الأندلس والمغرب مقصدا لأبناء العلم من الأوروبيين الذين توالوا وتوافدوا على الأندلس لتلقي العلوم

(١) موسوعة المغرب العربي، (ج٢/١٨٨ ـ ١٨٩).

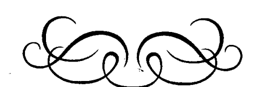
والصناعـات؛ بل إن بعض مـلوكـهم أرسل بعـثـات لدراسـة نظالم الدولة والحكم وآداب السلوك، وكل ما يؤدي إلى سـير الأمور في الدولة، والسـير بها في مدمار الحضارة والتقدم.

٣٤ ـ تركت دولة المرابطين التي لم يصل عـمرها الزمني إلى مـائة عام وهي فترة قصيرة في عمر الدول آثارا واضحة جلية في جميع المجالات، بل إن تلك المآثر الحـضارية تعـدت حـدود دولة المرابطين إلى أرجاء أخـرى من العالم الإسلامي.

٣٥ ـ إن ظهور دولة الموحدين وإنقضـاضها بعنف على دولة المرابطين تسبب في ضـعف النواحي الحضارية والثـقافية والسـياسيـة والعسكرية عند المغاربة عـموما، وفـتحت مجـالاً لملوك النصارى للقضـاء على الإسلام في الأندلس فيما بعد.

٣٦ ـ إن للأفراد آجـالاً محـدودة، وكذلك لكل دولة أجل مـحدود، فإذا جاء أجلها لا تستأخر ولا تستقدم.

٣٧ ـ سنة الله جارية في إعزاز مـا يشاء وإزلال من يشاء، ونزع الملك ممن يشاء وإعطائه لمن يشاء.





الفهرست